الخوف وآفاق المستقبل

أ. د عقيل حسين عقيل

2011م

المقدّمة

بسم الله

أقدِّم هذا المؤلف (الخوف وآفاق المستقبل) للقراء الكرام ليكون بين أيديهم فكرة مغايرة قابلة للنقد البناء الذي يُحفّزنا على التمسُّك بالخوف حتى نتّعظ ونتهذّب ونقدّر بعضنا بعضاً، ثمّ نتقدّم سوياً لنستطلع آفاق المستقبل.

يكشف هذا المؤلف حقيقة الخوف كونه فطريّاً، وتثيره بواعث خارجيّة، وتُحفّز عليه معارف واعية، تُمكّن العقل الإنساني من أنْ يتدبّر أمره قبل أن يصدر حكماً متسرّعاً قد يترتّب عليه ألماً.

وكذلك تُمكِّن العقل من التذكّر ليَعتَبِر من مخاوف الماضي وقصصه وما حوته من عِبر تَرشد أصحاب البصائر إلى ما يجب، وتمكّن العقل أيضاً من التفكّر الذي به يستطلع استحضار رؤية ترسم خِطّة تصنع مستقبلاً أجود؛ فتُحدِث نُقلة.

ففي ميادين علم النفس والتربية وعلم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد مؤلفات كثيرة تناولت الخوف بأنواعه، وعَرَضَتْ كثيراً من قضاياه التي حفّها اللبس والغموض من كلِّ جانبٍ، حيث وجدنا الكثير من هذه المؤلفات فضلاً عن بعض المعجمات اللغوية أنَّها تحتوي على لبسٍ وغموض مفاهيمي بين مفهوم الخوف، وبين مفهوم كلّ من الجُبن والرهبة والتوجّس والحذر والخشية والتخاذل والاضطراب والرعب والفزع؛ فحاولنا فكّ ما علق بها من اختلاط مفاهيمي.

ومنذ أن طرحنا فكرة الخوف للبحث بداية ونحن نتساءل:

. هل الخوف سالب أم موجب؟

. هل الخوف يؤدّي إلى الإقدام، أم أنَّه يؤدّي إلى الانسحاب، أم أنَّه يؤدّي إليهما معاً؟ ولكن لكلٍّ معطياته وظروفه.

. هل الخوف معيق لصناعة المستقبل أم أنَّه المحفّز عليها؟

. هل الخوف في ذاته مكوّن مُخيف، أم أنّ الخوف استشعار بالخطر ينبِّه على مصدرٍ مُخيف؟

وممّا توصّلنا إليه من نتائج أصبح الباب مفتوحاً أمام البحاثة والعلماء والمفكّرين والفلاسفة الكرام لبذل الجهد العلمي المُمكّن من التصويب والإضافة.

وممّا توصّلنا إليه من معرفة موضوعيّة أيضاً، أنَّ الخوف يؤدّي دائماً إلى بلوغ الحلّ، وبدونه تسود التأزُّمات بين خائفٍ ومخيف.

ثمّ عرفنا أيضاً أنَّ الخوف وحده يُخلّص من الخوف؛ فخوف العبد من الله يُخلّص العبد من خوف العبيد؛، ويُحرِّره من الألم؛ فتحلّ السكينة والأمن والطمأنينة في نفسه محلّ الخوف.

وكذلك اتّضح لنا أنَّ الخوف لا يخيف، بل الذي يخيف هو من يمتلك القوّة المخيفة؛ فلا يقف عند حدّه، ولذا وجب التدبّر والحذر والحيطة عند اتقاء المخاطر كي لا تلد الأزمة تأزُّمات جديدة.

وممّا تيسّر أمامنا معرفة أخرى هو أنَّ الخوف يصنع المستقبل، ولذا فمن خاف سلم، ومن لم يخفْ تعرّض للمخاطر والتهلكة.

وعليه فمن أراد أنْ يقضي على الخوف فعليه بمخافة الله؛ فيتجنّب ارتكاب المظالم والمفاسد وسفك الدماء في الأرض بغير حقّ، وأنْ يتقدَّم مشاركاً في إصلاحها وإعمارها قيماً وفضائل.

وختاماً لا يفوتني إلَّا أنْ أشكر أساتذة الفكر في ليبيا والوطن العربي الذين حفّزوني كثيراً على تناول هذا الموضوع بالبحث، وأخصّ بالاحترام أخي العلّامة الأستاذ الدكتور على الصّلابي حيث غرسنا التواصل بيننا سُنّة حميدة في تناول القضايا الفكرية والعلمية، خاصة في الفكر الذي يؤدّي إلى استشراف المستقبل وصناعته؛ فله مني فائق الاعتبار مع فائق التقدير.

كما أشكر أساتذة علم اللغة الكرام، الذين قاموا بمراجعة هذا الجهد، حتى ظهر إلى حيّز الوجود وهم.

الأستاذ الدكتور وليد محمَّد رشيد المحترم.

الأستاذ الدكتور على عبد الرزاق عبد القادر المحترم

الأستاذ الدكتور خالد مهدي صالح المحترم.

أ. د عقيل حسين عقيل

كلية الآداب

طرابلس ليبيا

2011م.

الخوف

الخوف توقّع حذري قبل وقوع الفعل؛ فهو يستوجب اتقاء ما سيقع، وقد يُحدث أمراً غير مُرضياً، أو أنَّه يُحقّق ألماً، والخوف هو ما ليس بجُبنٍ، فالجبن لا يكون ساكناً إلّا في نفس من يعرف الحقيقة تجاه ما يجب ولا يقدم عليه، والخوف لا يكون إلّا في دائرة المتوقّع من أجل الإقدام على، أو الانتهاء عن، دون تأخّر ولا جبن.

ولذا فالخوف استشعار للمستقبل واستطلاع لِما قد يَحلّ به وقد يؤثّر تأثيراً سالباً على الفرد أو الجماعة أو المجتمع وما يمتلكون، وحتّى لا يحدث تُبْذل الجهود من قِبل مستشعريه وقاية منه أو استبدالاً له، أو استغناء عنه في دائرة الممكن.

ومع أنَّ معظم معلومات العامة من الناس عن الخوف هي معلومات عن سالبٍ، إلّا أنَّ حقيقة أمره لا تربطه بسالبٍ؛ فالعامة على سبيل المثال يخافون من الظلمة، ولكن هل يوجد شيء من مكوّنات الظلمة يخيف؟

بالتأكيد الظلمة لا تُخيف، ولكن ما قد يفاجئك وأنت في زمن الظلمة قد يُلحق بِكَ ألماً أو ضرراً، ولهذا ينبغي أنْ تكون عند الظلمة حذِراً متيقّظاً، وإن لم تكن كذلك فقد تفاجأ بما هو غير متوقّع، وعندها قد تحدث الخسارة، ولكن بفضل الله علينا خلق الخوف في أنفسنا وجعله قابلاً للاستشعار العقلي ليتّخذ الإنسان حذره ممّا يُخيف.

وعليه فالخوف الذي هو من خلق الله فينا خلقاً، هو دائماً موجب، ولذا لا حُجّة للبعض الذين يرون أنّ الإنسان قد خُلق على السلبية في مقابل قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[1]؟

ولأنَّ الخوف موجب فكلّ عاقلٍ منّا يخاف المرض ولا يخاف الموت، ذلك لأنّ للمرض دواء؛ فكلّنا نسعى إلى بلوغه والعمل من أجل الحصول عليه؛ فتجرى التطعيمات الوقائية للناس عن المرض استباقاً، خوفاً من حدوثه، أمّا الموت فلا دواء له، ولهذا لا أحد يفكّر في علاج الموت.

ولأنّ الخوف يصنع المستقبل؛ فكلّنا نسعى لتوفير الماء قبل أن يلمَّ بنا العطش، ولأنّنا نجوع؛ فنسعى لتأمين غذائنا قبل أن تلمّ بنا أزمة الغذاء وألم الجوع، ولأنّنا نخاف من الوِحدة، فنسعى جميعاً من أجل تحسين علاقاتنا الاجتماعيّة مع الآخرين أبوة وأخوة وعمومة وقرابة وجيران كرام كي لا يلمّ بنا ما يخيف، وحينها نتمكّن من بلوغ السكينة.

ولأنّنا نعرف ما تتركه السرقة من ألم؛ فنسعى للتأمين على ما نمتلكه قبل أنْ تحدث السرقة، ولذا فمن لم يكن خائفاً فطناً سيدفع ثمن غفلته ألماً.

وهكذا بأسباب الخوف من الجهل تسعى الناس لنيل التعليم، ولذلك دائماً من لا يخاف على مستقبله لا يسعى لتأمينه، ومن لم يرسم الاستراتيجيات والخطط لمستقبل أفضل، لن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين الناس، ولن يكون له مستقبلاً مفضّلاً ولا مقدّراً، بل قد يجد نفسه على الرصيف جالساً على قارعة الطريق متسوّلاً، أو سجيناً بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة.

---

[1] التين 4.

ولأنّ الخوف نعمة من نعم الله علينا؛ فكلّ عاقل ليس له بدٌّ إلّا أنْ يُفكّر في كلّ ما من شأنه أن يجنِّبه ما يخيف.

وعليه: فالعاقل دائماً يسعى لتأمين مستقبله من الكوارث. وهكذا كلّ من يخاف من العدوان يسعى لإعداد العُدَّة قبل أن يحدث العدوان، وذلك لأجل إرهاب العدو ووضع حدّ له يقف عنده.

ولمتسائل أن يسأل:

الخوف من أجل ماذا؟

نقول:

من أجل السلامة، ولذا فمن يحرص على الإقدام على ما يخيف من أجل التخلّص منه أو تجنّبه بما يحقّق السكينة والأمن، سلم. وإلّا لماذا الآباء هم يخافون على أبنائهم؟

بطبيعة الحال خوف الآباء على أبنائهم هو من باب الحرص عليهم وتحقيق السلامة لهم. ولذلك فمن خاف سلم، ومن لم يخف ألقى نفسه في التهلكة.

وعليه فالعلاقة قويّة بين الخوف والتدبُّر، وبينه وبين التفكّر، والتذكّر، أي لماذا الإنسان العاقل ينبغي عليه أن يتدبّر أمره، ويتذكر ماضيه، ويفكّر في مستقبله؟

نقول:

يتدبّر حاله في الزمن الآن من أجل أن يستمدّ القوّة التي بها يتمكّن من التذكّر والتفكّر، ويتذكّر الماضي لكي يتدبّر حاضره عن بيّنة، ويعرف ما يجب أن يَقدِم عليه في مستقبله، أمّا التفكّر فلا يكون إلّا في كلّ ما من شأنه أن يحفّزه على صناعة المستقبل.

وكما أنّ هناك علاقة موجبة بين الخوف والتدبّر والتفكّر والتذكّر؛ فكذلك هناك علاقة سالبة بين الخوف والوهم؛ فالوهم مجرد افتراضات لا علاقة لها بالواقّع (تخيّل ليس إلّا)، أمّا الخوف فلا وجود له إلّا مع واقع، ولهذا فالفرق كبير بين متخيلات الوهم وبين ما يكشفه الخوف حقيقة. فالآباء في كثيرٍ من الأحيان يرسمون صور وهميّة في أذهان أبنائهم عن المجهول بالنسبة لهم بغرض السيطرة عليهم وجعلهم تابعين؛ فالغول الذي ليس له صورة لعدم وجوده حقيقة، صورته لم تمحَ من أذهان الكثيرين من أبناء العالم المتخلّف.

ولأنّ للخوف علاقة وثيقة مع المستقبل؛ فالناس تخاف من مفاجِئات الزلازل؛ فتسعى في البحث لأجل أن تتمكّن من المعرفة العلمية التي تكشف مؤشرات الزلازل قبل وقوعها تفادياً لِما قد تحدثه من كوارث، ولذا فالمهندسون وخاصة المعماريون هم دائماً يبحثون عن كيفية إيجاد تصميم معماري يُسهم في تفادي الهزات الأرضية أو الحدّ ممّا تؤدّي إليه من أضرار.

ولأنّ الخوف فطري؛ فكلّ المخلوقات الحيوانية حالها كحال الإنسان تخاف فطرةً لا تعلّماً؛ فالخروف بدون شكّ يخاف الذئب، والذئب يخاف الكلب، والكلب يخاف صاحبه ولا يخاف أعداءه، وهكذا الدجاج يخاف الثعالب، والثعالب تخاف الصيادين، ولكن دون تدبّر؛ فكلّ سلوك حيواني يكون الحسم فيه أثناء المواجهة للأقوى، ممّا يجعل للمفاجئة مكانة في إلحاق المغالبة بين حيواناً وآخر.

والفرق بين الخوف على المستوى العاقل والمستوى الحيواني هو أنَّ الإنسان يخاف فيتدبّر أمره مسبقاً من أجل أن يتفادى المخاطر المقدّرة

تقديراً بحسبان؛ فالمسلم يعلم أنّ أمامه مستقبل بين (سكينة وألم) وله أن يختار إرادة (جنّةً أم ناراً) ولهذا فالمؤمن في حياته الدنيا يتّقي الشرور ويبتعد عن ارتكاب المظالم خوفاً من النار وحبّاً في الجنّة، ولهذا فهو يُصلّي ويُزكّي ويصوم ويتّبع أمر الله ونهيه، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسعى للإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها، أمّا غيره من بني جنسه (الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم)؛ فهم غافلون، ولهذا لم يعملوا على صناعة مستقبلهم وهم في الحياة الدنيا، ولذا فالخوف تفادٍ للفعل المؤلم سواء أكان هذا الفعل في الحياة الدنيا أم أنّه عندما يكون مترتّباً عقاباً في الحياة الآخرة على ما لم يُفعل في الحياة الدنيا أو أنّه فُعل عن غير طاعة لما يجب أن يُفعل إرادة.

ولأنّ الخوف يُجنّب الألم؛ فالواعون دائماً يتجنّبون لحظة الغضب بحكمة وتدبّر، بغرض إضاعة الفرصة على الغاضب وإعادته لرشده، ولذا فإنْ لم يتمّ تفادي الغضب لحظته تحدث المواجهة المؤلمة؛ فتتأزّم الأمور ويتصدّع البناء الأسري أو العشائري أو أيّ بناء اجتماعي وإنساني على مستوى الأفراد والجماعات وحتى الدول.

وهكذا العالم المتقدّم دائماً يَقدم على كلِّ شيء يمكن أن يُسهم في صناعة المستقبل الأفضل؛ فبالنسبة له كلّ شيء بحسابه؛ ولذا كلّ يوم نلاحظ أسعار النفط والذهب والفضة والعملات وأسعار الأسهم وما شابهها اقتصادياً تتغيّر وتتبدّل قيمها أحياناُ بتعديل رؤية في سياسة منظّمة الأوبك أو تصريح من رئيسها أو تصريح من أيّ رئيس له أثر فعّال على الساحة العالمية، أو إذا وقعت كارثة طبيعية أو غير طبيعية من حروب أو حتّى تهديدات باردة ترتفع بأسبابها أحياناً جميع الأسعار

عقاريّة ومالية وذهبية ونفطية وفضيّة وغيرها، وكلّ ذلك بأسباب الخوف التي تجعل الكلّ يأخذ حذره الذي به يتمكّن من تأمين مستقبله.

وعليه: الناس جميعاً يخافون في ظروف متشابهة أو ظروف مختلفة، ولذا فالخوف انفعال طبيعي مرتبط بالفطرة، وثمّة مخاوف تكون وهميّة لدى البعض إذا تكرّرت بانتظام في غياب مخاطر حقيقية، وتكون هذه المخاوف ما بعد الفطرة في بعض الحالات، وهي مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بتجربة مخيفة نتج عنها رعب؛ فالذي يخاف من حيوان معيّن أو من أكثر من حيوان قد يكون هذا الخوف تأصّل في نفسه بعد أن تعرّض أو عرف وراء من تعرّض لهجوم من حيوان معين، وهكذا لو وقع طفل في حفرة؛ فهو يخاف أيّ حفرة مشابهة، ممّا يجعله أكثر حذراً في مستقبله من أجل السلامة، وهذا النوع من الخوف هو خوف زائد على الفطرة، لأنّه ناتج عن تجربة سبّبت أذى نفسياً كبيراً أو ألماً جسديّاً، جعلت صاحب هذه التجربة يخاف الأشياء التي مرّت به وسبّبت له ألماً أو أذى نفسيّاً أو جسديّاً؛ فأصبح هذا الخوف نوعاً من المرض الذي يجب علاجه، أمّا الخوف الطبيعي فهو خوف فطري لدى جميع البشر، وهو صفة من صفاتهم اللازمة، والذي لا يخاف يكون مريضاً وجب علاجه أيضاً.

الخوف هو صفة للخائف مثله مثل أيّ صفات أخرى يمكن أن يتّصف بها الإنسان، وطالما أنّ الخائف موصوف بما يمكن أن يتّصف من صفات ومن ضمنها الخوف؛ فإنّ الصفة التي اتّصف بها . أيّة صفة . إمّا أن تكون صفة عارضة تزول بزوال مسببها، كاصفرار الوجه الذي يسببه المرض مثلاً، أو أنّها صفة لازمة خلقية كلون البشرة والشعر

والأعين، أو فطرية غريزية من الصفات الإنسانية التي تنقسم إلى مادية وإلى نفسيّة روحية، فالمادية كالشعور بالجوع والعطش التي تزول بزوال مسبباتها بعد الأكل والشرب وإن تكرّرت بانتهاء مشبعاتها ويكون المنبّه عليها داخلي يشغل حيزاً مادياً معيّناً، وأمّا النفسيّة الروحية التي لا تنفكّ عن الجسد ولا يعرف موطنها فيه، كالشجاعة والجبن، والكرم والبخل، والخوف والأمن، تسكن في الحيّز الإنساني فطرة غريزيّة لا يعرف موطنها، وتفترق عن الصفات المادية بأنّها تستثار وتهدأ بمثيرات خارجية وهي ملازمة في الحالين:

. حالة الاستثارة.

. حالة الهدوء.

فالكرم صفة مثل صفة الخوف، ذلك أنّ الذي يتّصف بها يكون كريماً، ولا تظهر فيه صفة الكرم إلاّ بمثيرين اثنين:

الأول: من يقوم الكريم بإكرامه.

. الثاني: ما يقدّمه لمن يكرمه.

فإذا تلاشى كِلَا هذين المثيرين لهذه الصفة أو أحدهما، فإنّ صفة الكرم تهدأ في نفسه ولا تتلاشى، وذلك إمّا لأنّه لم يجد من يكرمه، أو أنّه لا يجد شيئاً يُكرم به، وبهذا تبقى الصفة قائمة في النفس لحين استحضار مثيراتها ودوافعها من الأسباب.

والخوف أقرب ما يكون إلى صفة الكرم؛ فهو ليس من الصفات المكتسبة، إذ لو كان الخوف مكتسباً لَعمِلنا جاهدين على إيجاد نقائض أسبابها بطريقة الكسب، وتخلّصنا منه إلى النهاية.

وعليه: فالخوف صفة لازمة للخائف ولغيره، وذلك أنّ الخائف تكون صفة الخوف لديه لازمة ظاهرة، وأمّا غير الخائف؛ فإنّ صفة الخوف لديه لازمة باطنة، وهذا يعني أنّ الخوف جزء من تكوين الإنسان النفسي كونه فطرياً غريزياً، ومعلوم أنّ الصفات الفطرية التي ترتبط بالجانب النفسي لها علاقة مباشرة في حياة الإنسان؛ فإن أحسن الإنسان استخدامها، أدّت وظيفتها الإيجابية التي وجدت من أجلها، وإن كان غير ذلك؛ فلا بدّ أن تكون النتائج عكسيّة.

ولمّا كان الخوف صفة فطرية لازمة؛ فلا بدّ أن تتناسب هذه الصفة مع مراحل الإنسان الحياتية وتنمو مع نمّوه بما يناسب التحذير من المخاطر التي تحدق به في كلِّ مرحلة من مراحل حياته، إذ لولا الخوف الفطري لهلك كثير من الناس وخاصة الأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة التمييز العقلي، وهنا تظهر صفة الخوف نعمة ممّا أنعم الله تعالى بها على خلقه، ولذلك يكون الخوف عندهم نوعاً من الحواجز التي تردعهم عن المخاطر في تلافيهم إيّاها، وكلّما كبر الإنسان كبر خوفه بنموّي عقله خوفاً تحسبيّاً، لا بمعنى الجبن والتخاذل، وإنمّا بمعنى تقدير المخاطر التي تؤدّي إلى ضرر، ومعرفة المكاسب التي تؤدّي إلى النفع، وعليه فخوف الإنسان خوفان:

1 . خوف من أن يدركه شيء.

2 . وخوف من أن يفوته شيء.

فكلّ إنسان يشغله حيّز من الخوف منذ ولادته، حيث يكمن هذا الخوف في نفسه وإن كان آمناً، كما يشغل النفس حيّز آخر من الأمن والآمان، ويدور صراع النفس مع الخوف إمّا من أجل الحصول على الأمان أو

المحافظة عليه حال وجوده، ومن هنا يجب أن يكون الخوف والأمن متوازيان لدى النفس الإنسانية، أو بعبارة أدق يجب أن يكونا متعادلين، بحيث لا تستغني عن الخوف ولا تكتفي به، كما أنّها لا تستغني عن الأمان ولا تكتفي به، ووجود الخوف الفطري المصاحب للأمان في النفس الإنسانية لا بمعنى الاصطحاب وإنّما بمعنى الكمون، يعطي الإنسان فسحة للتفتيش عن الأسباب التي تهدِّيء مخاوفه حال الاستثارة من خلال إيجاد المنافذ الأمنية والاطمئنان إليها عندما تطغى على المخاوف، ولذا نرى أنّ الأمان يمنح فرصة أكبر للوقوف على مصادر الخوف، لأنّه يمنح العقل انطلاقة التفكير بما يجب وما لا يجب، ومن هنا يكون الأمان مستثيراً للخوف في اللاوعي؛ فعندما يقف الإنسان من خلال اللاوعي على مصادر الخوف ومخاطر تلك المصادر؛ فيعود إلى وعيه ويبحث عن مثبتات الأمان من خلال خوفه، ولذلك فالنفس المطمئنة هي التي تتعادل لديها كفتي الأمن والخوف، الأمر الذي يمنحها الاتزان من خلال التوازن بين الجانبين؛ فإذا طغى الأمن على الخوف كان ذلك مدعاة للإفراط في الثقة بالذات، وهنا مكمن الخطر، وإن طغى الخوف على الأمن أدّى ذلك إلى الانسحاب المفضي إلى الجبن، ولذلك لابدّ لأيّ إنسان أن يمتلك قسطاً من الخوف يوازي أمنه ويحافظ عليه، ذلك أنّ هذا القسط من الخوف الذي يعتري الإنسان، يكون نواة تبلور السكينة والأمن والطمأنينة ومصدر لها، فإذا تنكّر الإنسان لخوفه، انطلقت نفسه على هواها، وهذا الانطلاق يؤدّي إلى الانزلاق الذي لا يمكن التخلص منه إلاّ بالعودة إلى الخوف استشرافاً للمستقبل الآمن من أجل التخلّص من القلق والاضطراب، فإذا

كان البعض يرى أنّ أزمة الإنسان في الوقت الراهن في عصرنا هي الخوف، فإننا نرى أنّ عدم الخوف هو أزمة أكبر لما يُحدث من مخاطر، فلو كان الخوف قائماً في النفس لوجب أن يكون هذا الخوف دافعاً للحصول على الأمن والسكينة والطمأنينة من وسائلها الأمنية بأسبابها الخوفية؛ فإن تغلّب الخوف على الإنسان ولم يكن خوفاً متوازناً يرافقه جانب أمني، يتحوّل هذا الإنسان إلى جبان فقد اتزانه وقدرته على مواكبة الحياة، وبهذه الحال يكون قد وصل إلى مرحلة الخوف من الخوف، والذي يحلّ المشكلة برمّتها هو حسن التعامل مع الخوف ضمن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولذا وجب على الإنسان أن يواجه خوفه مواجهة عقلية انطلاقاً من واقع يستشرف المستقبل بحيث يكون الخوف دافعاً للبحث عن منافذ الأمن ومسبباً للطمأنينة من خلال نظرة استشرافية للمخاطر التي يمكن أن يأتي بها الخوف مستقبلاً، وبهذه النظرة في طريقة التعامل مع المخاوف، يكون قد سخّر خوفه خدمة لمستقبله إن علم أنّ الخوف صفة لم يتّصف بها إلاّ من أجل الانطلاق نحو الأفضل.

فالخوف هو ذلك المحفّز الإيجابي للعاقل الذي يدفعه إلى التحصّن ضدّ الشرور باستدعاء مفردات الخيرات في البحث عنها وتأمين سبلها ومسبباتها خوفاً من سيطرة مفردات الشرّ التي تحمل الألم والضرر

والأذى، وما يترتّب عليها من حزن وقهر وحرمان، تؤدّي إلى حسرة ولوعة وخسران.

ولمّا كان الخوف ملازماً للإنسان غريزة وفطرة، فإنّه لم يكن قبله، ولم يأتِ بعده، مما يعنى أنّ صفة الخوف هي شعور يختصّ بالمستقبل؛ فيبدأ الإنسان من خلال خوفه بتحصين نفسه ضدّ المخاطر التي يدرك أنّها تؤدّي إلى الضرر أو الأذى وأحياناً تصل إلى درجة الهلاك، ومن هنا يبدأ الفرد في تحصين الذات ضدّ أشياء يخشاها بداية أثارت مخاوفه؛ فيتحصّن ضدّ الجهل والفقر والمرض والعدو، وضدّ العطش والجوع والحرّ والبرد، وأشياء أخرى تثير مخاوف الإنسان أكثر من أن تحصى، ولو لم يكن هناك خوف من هذه الأشياء لما سعى الإنسان لتأمين مضاداتها التي تقف حائلة في وجه ما يثيره الخوف وما ينتاب الإنسان من هذه الإثارة، وبذلك يكون الخوف مدعاة لتأمين العلم والمال والدواء والقوّة، وكلّما ازداد خوف العاقل ازداد مع هذا الخوف تحسّبه لما يمكن أن يأتي من مخاطر، فيكيّف نفسه وفق المخاوف التي يتوقّعها بما يعدّ لها من عدّة للمواجهة، وهكذا يكون الخوف سبباً للأمان والأمن والطمأنينة.

وكلّما اتسعت دائرة الإنسان، اتسع مع ذلك دائرة المخاوف التي تحدق به، إذ أنّ الامتداد الأسري للإنسان، هو امتداد لمخاوفه، ذلك أنّ خوف الأسرة أكبر من خوف الفرد؛ فالخوف على مستوى الأسرة يكون أوسع نطاقاً وأبعد مدى من مجال الفرد، وبالتالي فهو دافع أكبر وأوسع في استشراف مستقبل الأسرة وما يحيط بها من مخاطر وجب الخوف منها تفادياً لوقوعها.

وهكذا عندما تتّسع دائرة الفرد الإنسانية، يتّسع معها مجال مخاوفه، وبالتالي يجب أن يتّسع مع تلك المخاوف البدائل التي تقف في وجه تحقيق أهداف الخوف، ولذا نجد أن ما تحقّقه الدولة لا يحقّقه الفرد ولا تحقّقه الأسرة، لا بمعنى الإمكانات المادية، ولكن بمعنى الإنجازات التحسبية الناتجة عن المخاوف ومسؤوليتها تجاه مواطنيها خوفاً عليهم.

الخوف معيار التوازن

الخوف هو الوضع الطبيعي لدى الإنسان العاقل؛ فما من عاقلٍ إلّا وللخوف في نفسه مسكن ومكمن، وهذا السكون والكمون للخوف في النفس الإنسانية صفة فطرية لازمة للمخلوق العاقل تحافظ على اتزانه بين المخيفات التي تحمل المخاطر وبين المطمئنات التي تؤدّي إلى الاستقرار، وهذا التوازن في الوضع الطبيعي للخوف الكامن في النفس يشكّل نقطة صفرية لا سالب فيها.

وعليه فالخوف عاطفة مثل بقية العواطف التي تتّصف بها النفس الإنسانية مثلها في ذلك مثل الحبّ والرحمة، والكره والبغضاء، والفرح والسرور، والحزن والألم، وإن كان بعض العواطف مترتّب على البعض الآخر، أو أنّ بعضها يكون مبعثاً للبعض الآخر في السلب والإيجاب، ومعلوم أنّ العواطف لها مثيراتها الداخلية والخارجية، تدفعها هذه المثيرات إلى الظهور بصور شتى من الانفعالات التي تعبّر عنها الحركة والسكون في النطق والصمت، والقول والفعل، والتصرّف والسلوك، وردود الأفعال؛ فنلمس من خلالها حالة نفسية معيّنة ترتبط آثارها بالعاطفة المثارة، ممّا يدفع العقل إلى إشغال الفكر في البحث

دائماً عن الأسباب التي تعود بالنفس إلى وضعها الطبيعي نقطة الصفر لا سالب ولا موجب.

فالذي يضحك لا يمكن أن يستمرّ ضحكه إلى ما لا نهاية، والحزين لا يستمرّ حزنه أيضاً، والمسرور لا بدّ أن يقف سروره عند حدٍّ، وهذا ينسحب على الخوف الذي استنهضته المخاطر من مكمنه، وهو بدوره ينبّه العقل عليها وليس على حجمها، لأنّ تقدير حجمها والبحث عن حلول لها في المواجهة والصدام، أو التلافي والابتعاد هي مهمة العقل كي يعود الخوف إلى مكمنه.

إنّ الإنسان العاقل يحمل خوفه في نفسه، والذي يقول أنّه لا يخاف؛ إمّا أنّه غير عاقل وهو صادق في دعواه، وإمّا أنّه عاقل فأراد أن يخفي خوفه، ولكنّه برهن على وجوده بمعرفة الخوف، لأنّه لو لم يعرف الخوف أصلاً لكان سأل عنه، وما كان جوابه أنّه لا يخاف.

والذي يقول أنّه لا يخاف، هو لا يفهم الخوف، ذلك أنّ الله تعالى أودع هذه العواطف في النفس الإنسانية رحمة بالإنسان من جهة، وهي من باب التقويم الأحسن من جهة ثانية، إذ لولا هذه العواطف ومن ضمنها الخوف إن لم يكن في مقدمتها، لما استقرّت حياة الإنسان، وقبل ذلك نفسه التي يقوم عليها استقرار حياته؛ فلو قال إنسان أنّه لا يخاف وقدّمنا إليه النار، أو قدّمناه من النار، هل سيستمرّ إلى النهاية أم أنّه سيتراجع وينسحب؟

لا شكّ أنّه سيمتنع عن الاستمرار والمواجهة، فإن لم يقل أنّه تراجع خوفاً، سيقول أنّه تراجع بسبب ما تحدثه النار من أذى.

فما الذي جعله يدرك هذا الأذى الذي تحدثه النار ويعمل على تجنّبه؟

ربما يقول قائل: إنّ العقل نبّه على خطر النار بأنّها مؤذية ومحرقة فامتنع عنها وابتعد، ونحن إلى هنا لا نخالفه في دعواه.

ولكن ما الذي جعل العقل يتنبّه إلى ذلك الخطر؟

هنا تنحصر الإجابة في اتجاه واحد لا سبيل إلى غيره، ذلك أنّ النار التي استثارت الخوف من النفس دفعت العقل إلى التفكير في حلٍّ للقضية؛ فأوعز العقل بالتراجع بداية، وصاحب العقل إن لم يتراجع وأقدم على النار، فإنّ ذلك لا يعبّر عن عدم الخوف، وإنّما يعبر عن خوفٍ من مخاطر أكبر ممّا تحدثه النار، والذي لا يتراجع عن النار بدافع الخوف منها والتجأ إليها، إنّما هو شعور بمخاطر أعظم ممّا تحدثه النار ظنّاً منه بتقدير أقلّ الخطرين، وذلك كمن يدفعه خوفه من خطر وحش أو حيوان مفترس ويهرب أمامه من المواجهة وربّما لا يلتفت الوحش إليه؛ فإذا صادفه أثناء هروبه بئراً أو حفرة عميقة فقد يلقي نفسه بتلك الحفرة، وقد يؤدّي ذلك إلى هلاكه، ولو بقي على حاله الأوّل ربمّا لا يقربه الوحش ولا يفترسه، ولو أنّه واجه تلك الحفرة دون الوحش المفترس لما ألقى نفسه بها، لأنّه يخاف من خطر الإلقاء أن تكسر يده أو رجله أو أن يهلك، ولكن الخوف الذي نبّه على الخطر دفع العقل إلى طرح البدائل والموازنة بين أنواع مخاطر المخاوف وفوّض الإرادة بتنفيذ القرار، فكان اختيار ما هو متوقع أن يكون أقلّ خطراً بدافع الخوف، وربّما يكون أكثر خطراً وغير متوقع بدافع الخوف أيضاً.

ولو كان هذا الموقف واجه إنساناً غير عاقل على سبيل الافتراض؛ فإنّ الخوف نفسه هو الذي يدفعه إلى تلافي المخاطر؛ فالفطرة الخوفية التي كانت تتعامل مع العقل، انتقل تعاملها إلى الغريزة حال غياب العقل،

وهنا لا يتساوى الخوف من المخاطر بين العاقل وغير العاقل، لأنّ غير العاقل حال غياب العقل يكون تأثير الخوف على نفسه أقلّ، وذلك لعدم تحفيز العقل المقدّر لحجم الخطر، وبالتالي لا تتساوى لديهما البدائل في إيجاد الحلول التي تدفع المخاطر أو تمنعها، لثبوت العقل عند الأوّل وغيابه عند الثاني، وبغياب العقل تحلّ محلّه الغريزة القائمة على ردّة الفعل؛ فتعمل على التجريب لا من أجل اكتساب تجربة وزيادة خبرة، وإنّما تجريب ظنّي بدافع الخوف الغريزي الذي حلّ محلّ الخوف الفطري المرتبط بعلاقة وطيدة مع العقل.

إنّ المعرفة التجريبية لدى غير العقلاء لا يمكن أن تكتسب، وإنّما هي محاولة قد تخطيء وقد تصيب، لأنّها بالنسبة له ظنيّة، وبالنسبة للعقلاء هي افتراضات خارج دائرة التجريب العاقلة كونها لا تمنح استدلالاً يقينياً لمنبّهات الخوف الموصلة إلى النجاة.

لأنّ ّه معلوم أنّ إشارات التنبيه الخوفية تذهب بداية إلى العقل الذي يتعامل مع ما ورد إليه من معلومات يعرضها على ما اختزن في الذاكرة ليجد مضاداتها ومتوافقاتها ويعلم سالبها وموجبها، ثم يتّخذ قراره الذي يدفعه إلى الإرادة، وهذه العملية لا تتمّ إلاّ بسلامة العقل الذي يستقبل المعلومات أو الإشارات ويرسلها بعد معالجتها، ولا ينتهي دوره بعد أن يدفع بها إلى الإرادة، وإنّما يتعاظم دوره بعد ذلك في توجيه الإرادة أيضاً؛ فغير العاقل إن كانت أعصابه من خطوط الاستقبال والتوجيه التي تستلم الإشارات والمعلومات سليمة؛ فإنّ ذلك لا يغني عنه شيئاً بغياب العقل؛ فالمنبهات على الخوف وإن أثّرت على الأعصاب؛ فهي إمّا أنَّها لا توصل الإحساس إلى الدماغ، أو أنّ الدماغ لا يتعامل معها

لغياب العقل، وهنا يفقد غير العاقل التوجيه المركزي في التعامل مع مخاطر الخوف ويلجأ بالغريزة إلى الاستثناء القائم على ردّة الفعل ما يترتّب عليه غياب تقدير النتائج وذلك أنّه:

. فقد القرار السليم الذي كان يتّخذه العقل في قياس حجم المخاطر أوّلاً، ومن ثمّ طرح البدائل والحلول التي تواجه الحدث.

. فقد الإرادة التي كانت تبعث في الأعصاب ما تبعثه المؤثّرات في التعامل مع الحدث لحظة استنهاض الخوف للمخاطر، وكيفية التعامل معها بعد تلقي القرار من العقل وتفويضها في التعامل مع المخاطر.

الخوف نقطة الانطلاق الموجبة

لما كان الخوف من العواطف اللازمة للإنسان ويسكن في نفسه؛ فكان ذلك مؤشّر النقطة الصفرية، وهذا الخوف كامن في النفس عند نقطة الصفر التي يمكن أن نعتبرها بداية الموجب كون الصفر يدخل ضمن الأعداد، وهذا يعني أنّ وجود الخوف في نقطة الصفر هو بحدِّ ذاته موجب لوجوده.

إنّ الخوف يجعل النفس الإنسانية والإنسان بكلّيته عند استثارة المخاطر للخوف في نفسه، يتأرجح بين السالب والموجب إلى أن يتمّ الاختيار من العقل ودفع القرار إلى الإرادة؛ فإن اتجهت الإرادة إلى التوجس والحذر والخشية؛ فتكون قد سلكت مسلكاً موجباً انطلاقاً من الصفر صاعداً، وإن اتجهت إلى والتخاذل والجبن، فقد نحت منحىً سالباً انطلاقاً من الصفر نزولاً، وسنتناول المنطلقات الصفرية للخوف حتى نقف على الفوارق بينها وعلاقتها به موجبها وسالبها.

التوجس:

الوجس الصوت الخفي والتوجس التسمّع، والإيجاس وجود ذلك في النفس، والخيفة هي أدنى درجات الخوف، وهي الحالة التي عليها الإنسان تعادل الوجس وتساويه، فهل يكون الوجس مدخلاً للخوف أم مفتاحاً لطمأنينة؟

الوجس لا يكون بداعي الخوف المنبّه على المخاطر، وإنّما بحسابات فوت ما يرجو المتوجس من تحقيقه بما يداخله من حديث النفس، وينقسم الوجس إلى قسمين:

الأول: خارجي وهو أقرب ما يكون إلى استراق السمع بداعي الاطلاع أو المحبة أو المعرفة دون أن يطّلع على المتوجس أحد.

الثاني: حسابات ذاتية بين العقل والنفس على التناوب، تنتاب الإنسان عندما يريد أن يقدم على عمل يأمل تحقيقه بتوجسه منه وإن صاحب ذلك شيء من الرهبة لا ترقى إلى الخوف ولا تدفع إلى الاضطراب.

فهذه التوجسات نوع من الهواجس تميل بالنفس إلى الاطمئنان أكثر منها إلى الاضطراب على عكس الوساوس التي تشرّع الأبواب لما يؤدي إلى الجبن.

والوجس هو أدنى درجات الخوف، والخوف اسم التكبير، ويُصغّر على خُوَيف، وأصغر من خُوَيف يأتي خيفة، ولذا فإنّ الوجس في القرآن الكريم جاء مصاحباً لأدنى درجة من الخوف:

قال تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}[2].

قال تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}[3].

---

[2]. طه 67، 68.

قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}[4].

فأوجس في نفسه خيفة موسى، وهنا يبدو أنّ الوجس إذا تعاظم ربّما يؤدي إلى الخوف، لذلك خاطبه الله تعالى بقوله: لا تخف إنّك أنت الأعلى، فلمّا أوجس في نفسه خيفة، جاءته البشرى من الله تعالى؛ فإيجاس موسى لم يكن خوفاً ولن يرقى إليه، بدليل أنّ كلّ ما يترتّب على الوجس تكون نتيجته مرضية، لأنّ إثارة شعور التوجس يفتح مغاليق الطمأنينة، فكان أن بشّره الله تعالى بعد توجّسه بأنّه سيعلو على فرعون، وإبراهيم صلى الله عليه وسلّم عندما أوجس من الملائكة، نفوا عنه الخوف وبشّروه بغلام عليم.

وفي الآية الأخرى عندما قدّم إبراهيم طعاماً لضيوف امتنعوا عن الطعام (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) وهنا يتجلّى معنى الوجس بأوضح صوره، إذ أنّ الضيف الذي يأتي وخاصة في ذلك العصر، إنّما قادم من سفر بعيد وأنّه غريب أوّل ما يقدّم له الطعام والشراب؛ فعندما امتنعوا عنه أوجس منهم خيفة عدم فهم مرادهم في القضية التي جاؤوا من أجلها، وتوجّسه صلى الله عليه وسلّم كان حديثاً بينه وبين نفسه، وتساؤلات عمّا يريدونه، ولكن عندما أخبروه بأنّهم قد أُرسلوا إلى قوم لوط علم حقيقتهم فانتهى توجّسه بالوقوف على مبتغاهم.

وعلى هذا؛ فالتوجّس شعور ينتاب المتوجّس يدفعه إلى البحث عن حلّ للقضية المتوجس منها ليس بدافع الخوف، وإنّما بدافع المعرفة من

---

[3] – الذاريات 28.

[4] – هود 70

الذات وليس من الموضوع، لأنّ التوجس قائم على حوار بين المشاعر النفسية وإجابات العقل عنها.

الحذر:

لا يمكن أن يكون الحذر خوفاً كما جاءت به المعاجم اللغوية، والذي نراه أنّ الحذر شعور هو أقرب إلى التوجّس، ولكن يفترق عنه بأنّ التوجّس يكون في الذات، بينما الحذر يكون من الموضوع أو من عامل خارجي قبل وقوع الخوف، وهو تنبّه في أخذ الحيطة كي لا يقع الخوف مصداقاً لقوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}[5].

إنّ القتل الذي كان يمارسه فرعون بحقّ المواليد الذكور من بني إسرائيل لم يكن خوفاً منهم، ولو كان خائفاً وقتها ما استطاع أن يقتل من قتل من المواليد الذكور، وهذا القتل الذي كان يجريه عليهم، إنّما هو حذر في أخذ الاستعداد والحيطة كي لا يقع خوفه منهم، ولذا الآية بهذه الصيغة في النصّ، ذلك أنّ الحذر هو احتراز من مخيف، ليس من الخوف وإنّما أتى الحذر قبل وقوع الخوف.

إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا يحذرون جميع المواليد الذكور لا عن علم بهم ولا عن دراية، ولكن الذي يعلمونه أنّ مولوداً بعينه من هؤلاء ستكون نهاية فرعون على يديه، فدفعهم الحذر إلى قطع الطريق على الخوف الذي سيأتي لاحقاً بدليل قوله تعالى: (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) وحذرهم هذا من المولود الذي سيأتي

---

[5] – القصص 5، 6.

معه الخوف، إذن فالخوف أمر يقع بالمواجهة، والحذر هو احتياط لأمر كي لا يقع بالمواجهة.

الخشية:

الخشية وإن وردت في معاجم كثيرة بمعنى الخوف، إلاّ أنّ سياق نظم الكلام نادراً ما يأتي بهذا المعنى، ولذا فإنّ لها أكثر من معنى حسب سياق الكلام مثل الرجاء والكره، فقد جاء في مختار الصحاح قول الشاعر:

ولقد خشيت بأنّ من تبع الهدى سكن الجنان مع النبي محمدِ[6]

وهي بهذا المفهوم لا تدلّ إلّا على الرجاء، فلو كان الخوف هو الخشية ما اجتمعا في آية واحدة للدلالة على مفهوم واحد في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَشون سُوءَ الْحِسَابِ}[7].

فلو كانت الخشية خوفاً لكان الكلام (يخافون ربّهم ويخافون سوء الحساب) ولو كان الخوف خشية لكان الكلام (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ).

ولكن لمّا كان لكلّ كلمة معناها في مفهومها الدلالي اجتمع الخشية والخوف ليؤدّي كلٌّ منهما مفهومه ودلالته فيما أُريد له من مضمون؛ فكان الرجاء من الله تعالى، والخوف من سوء الحساب، ولا معنى لمفهوم: يخافون ربّهم ويخافون سوء الحساب لضعف التركيب وركاكة اللفظ.

---

[6] – مختار الصحاح ج1، ص196.

[7] – الرعد 21.

وأمّا قوله تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}[8]. فهي أبعد ما تكون عن الخوف لما يأتي:

آ . لو كان العبد الصالح خائفاً من الله تعالى في هذا الموضع ما كان ليقتله.

ب . لو كان خائفاً من الغلام ما تجرّأ على قتله.

ج . لو كان خائفاً ما أدخل موسى صلى الله عليه وسلّم في هذا الخوف، لأنّ موسى لم يصرّح له أنّه خائف أم لا، إذ قال (فَخَشِينَا) وأدخل موسى في الخشية.

إنّ فلسفة اللغة ليست بمعاني ألفاظها، وإنّما بدلالة مفاهيمها على تلك المعاني بما تحمل من مضامين، فإذا انتفى الخوف عن العبد الصالح وعن موسى في مواضع احتمال الخوف؛ فلم يبقَ للخشية هنا إلّا مفهوماً واحداً من الدلالة وهو(الكره).

ولو أعدنا صياغة معنى الكلام من مفهوم الآية في مثالين من مضمون الآية على مفهوم الخشية في هذا الموضع وفق هذا السياق لتوضيح المفهوم بعبارتين نستبدله بالخوف مرة وبالكره مرة أخرى مكان الخشية، سنقف على حقيقة المفهوم فنقول:

1 . فخفنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً.

2 . فكرهنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً.

فأيّ العبارتين أقرب للخشية وأدلّ على مفهومها؟

وتأتي بمعنى العلم والمعرفة في مواطن التخصيص كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ

[8] – الكهف 80.

الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[9].

ومثل هذا جواب هارون لموسى صلّى الله عليهما وسلّم حين قال: {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}[10].

من الملاحظ في قوله تعالى:(ألم ترَ) هو خطاب للعموم، ثمّ ذكر بعد ذلك آيات الدلالة على الخلق والقدرة والعظمة، وليس كلّ أحد يدرك هذا، ولمّا كان ذلك كذلك، حوّل خطاب العموم إلى إدراك الخصوص الذين يعرفون هذا ويعلمونه، فجاء بأداة الحصر(إنّما) التي قصرت الخشية على العلماء لعلمهم ومعرفتهم بما ضرب الله به المثل من آيات الخلق الدالة على قدرته، وبالتالي فأهل الخصوص بعلمهم ومعرفتهم (خشيتهم لله) يبيّنون ذلك للعموم من خلال الخشية.

وأمّا من قرأ (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) برفع لفظ الجلالة (اللهُ) ونصب (العلماءَ) وهي إحدى القراءات، فتكون الخشية بمفهوم التكريم والتبجيل والإعظام من الله تعالى للعلماء بسبب معرفتهم به حقّ المعرفة والعلم.

ومفهوم الخشية الذي يدل على العلم ورد في أكثر من موضع في القرآن الكريم لاسيما أنّها عندما ترتبط بالتذكير، منها قوله تعالى: {طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى}[11].

وقوله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}[12].

---

[9] – فاطر 27، 28.

[10] – طه 94.

[11] . طه 1 . 3

وقوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى}[13].

فالتذكير لا يكون إلاّ لمن عنده معلومة سابقة كان قد نسيها، فتأتي الخشية التي اختزنها في ذاكرته؛ فتذكره بها، لأنّ التذكير لا يكون للخائف، وإنّما للعارف.

وسبب اختلاط مفهوم الخوف بالخشية على ما نعتقد، هو اللبس الذي يحصل لدى الكثيرين بين الذات وبين الفعل المخيف الذي يصدر عنها، فالخشية تكون للذات والخوف يكون ممّا يمكن أن يصدر عنها من فعل كما قال موسى صلّى الله عليه وسلّم: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}[14].

إنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم لم يكن خائفاً من فرعون وملئه، وإنّما من فعل القتل الذي سيصدر عنهم.

ولذا فالخوف يرتبط بالفعل الذي يصدر عن الذات، والخشية تكون من الذات نفسها كما قال تعالى: {إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}[15].

التخاذل:

التخاذل من الصفات غير الحميدة؛ فقد ترتبط بالخوف حيناً وترتبط بالإرادة حيناً آخر، والتخاذل هو عدم فعل ما يجب أن يفعل في الموقف الذي يجب فيه ممارسة الفضيلة أو إظهارها، ويكون ذلك في مواطن نصرة الحقّ وإظهار العدل أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر وما إلى

---

[12] – طه 44.

[13] – الأعلى 9، 10.

[14] – الشعراء 14.

[15] – النساء 77.

ذلك من إظهار الفضائل أو ممارستها؛ فالذي لا يفعل ما يجب أن يُفعل؛ فقد ركب من التخاذل مركباً قلّ ذلك أم كثر، قد يكون بإرادة وليس خوفاً مباشراً، ونقصد بغير المباشر ما يظنّه المتخاذل خوفاً من وقوع خوف يترتّب عليه خطر؛ فيتّخذ من ذلك موقفاً، ولذلك نهى الله تعالى عن هذا النوع المرتبط بالإرادة بأسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يفترض أن لا يكون، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}[16].

فهنا لم يكن التثاقل في عدم النهوض إلى الجهاد في سبيل الله خوفاً مباشراً من المواجهة في القتال، لأنّها مرحلة لم يصلوا إليها بعد، وإنّما كان التنبيه على التخاذل خوف ترك ملذّات الحياة الدنيا بدليل ذكر المتاع الذي يتمتّع به الإنسان؛ فالخوف الذي يؤدّي إلى التخاذل في هذا الموقف، لم يكن خوفاً من الشيء، وإنّما خوف على فوات الشيء وتركه، بحيث أنّهم لم يصلوا إلى مرحلة الخوف من الشيء.

وفي هذا المقام مسألة لا بدّ من التنبيه عليها، حيث أنّ الخطاب عام لجميع المؤمنين في التثاقل المفضي إلى التخاذل الذي أمر الله تعالى بعدم الركون إليه، فكيف يتخاذل الجميع وفيهم المهاجرون والأنصار الذين رضي الله عنهم في أكثر من موضع من القرآن الكريم، ويدخل النبي صلّى الله عليه وسلّم في جملة المؤمنين وهو أوّلهم إيماناً وأعلى درجة فيه، والخطاب شمل جميع المؤمنين(يا أيّها الذين آمنوا).

[16] – التوبة 38.

إنّ الذي يريد أن يقف على المفهوم، لا بدّ من معرفته للأدوات والوسائل التي تؤدّي المفاهيم، واللغة هي الأداة التي توصل المفهوم إلى دلالة معناه، فمن المعلوم أنّ بعض الخطاب اللغوي يشمل الجميع في التلقي مع استثناء البعض من الحكم، وهذا واضح جلي في النصوص القرآنية وغيرها من النصوص مصداقاً لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[17].

فهناك من المؤمنين من يكون رزقه على قدر حاجته أو أقل من حاجته، فهل دخل في تلقي الخطاب؟

نقول أنّه دخل الخطاب وخرج من الحكم، وبالتالي فقد خرج من التخاذل، إذ أن الخطاب وإن كان عاماً؛ فإنّ حكمه مخصوص على المقتدر.

وقد يأتي الخطاب على عموم العموم تلقياً وحكماً، ومن يخرج عنه فقد دخل في التخاذل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[18]. فالصلاة هنا غير الصلاة المفروضة، وإنّما هي صلاة تطوّع من أجل الاستعانة بها على الشدائد في تثبيت الصبر؛ فمن ترك ذلك وقت الشدّة فقد دخل في التخاذل عن أمر كان وجوب الأخذ به أولى.

وقد يأتي الخطاب مخصوصاً في الحكم، ويُدخل العموم في التلقي لدفع التخاذل بالخصوص عن العموم، وأنّ العموم داخل في الحكم وإن لم

---

[17] – البقرة 254.

[18] – البقرة 153.

ينصّ عليه الخطاب مصداقاً لقوله تعالى: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[19]. فما كان للذين لم يتخلفوا من الأعراب وغيرهم، أن يتخلفوا في المرات القادمة كونهم لم يخاطبوا بما خُطب به المخلفون، وإنّما هم داخلون في الحكم قطعاً وإن لم يردْ ذكرهم.

وعليه فإنّ اللغة تخاطب الجزء بالكلّ، وتخرج البعض من الحكم، وتخاطب الكلّ وتدخل البعض في الحكم، وتخاطب العموم بعموم الخطاب والحكم؛ فيكون شاملاً.

الجبن:

الجبن تنبيه سالب من الخوف على عدم الإقدام على الفعل، أيّاً كان هذا الفعل، في النجدة والمروءة، أم في البيع والشراء، أم في الحرب والقتال، أم في الجدال والخصام، بحيث يستنهض الخوف من النفس الإنسانية أدنى درجة من الانهزام وعدم مواجهة المواقف، سواء أكان الجبان منفرداً أم معه صحبة ليلاً أم نهاراً، لما تظنّه نفسه أنّه يترتّب على الموقف الذي يفترض أن يكون، مخاطر تؤدّي إلى التهلكة وقد يكون الأمر ليس كذلك.

فهذه القضية مرتبطة بالجانب النفسي الذي فرض نفسه على العقل بطغيان العاطفة التي تصوّر للنفس أشياء غير واقعية وأحياناً غير منطقية، وتبدأ النفس بتحويل هذه التصوّرات إلى إشارات معلوماتية مصدرها التهيؤات النفسية الإنسانية وتخيلاتها؛ فتزوّد العقل بمعلومات

---

[19] – الفتح 16.

خاطئة عن حقائق طبيعية نتيجة اضطراب نفسي يجيّش العاطفة بحيث تطغى العاطفة على العقل، فينصاع العقل إلى روافد النفس بما تحمل من معلومات يختزنها العقل في الذاكرة، ويتخذ قراراته بناء على تلك المعلومات السلبيّة؛ فتكون النتيجة الطبيعية أن تنصاع الإرادة للأوامر والقرارات العقلية في اتخاذ الموقف القائم على الحكم النفسي وليس على الاستنتاج العقلي.

إنّ الوضع الطبيعي الذي يفترض أن تكون عليه النفس هو تقبل الواقع والتعامل معه وفق المساعدات العقلية السليمة في مواجهة حقائق الأمور خيرها وشرّها ونفعها وضرّها، ذلك أن كلّ أمر من الأمور له أدواته الخاصة به في التعامل من النفس والعقل والجوارح، وعندما تكون النفس مطمئنة والعقل سليم؛ فإنّ الإنسان يتعامل مع المخاطر التي ينبّه عليها الخوف في هدوء وسكينة وارتياح وطمأنينة، ولا يقف أثرها عند هذا الحدّ لدى البعض، بل ربّما تمدّه بقوّة إضافية تدفعه إلى الأمام وتحول بينه وبين الانسحاب؛ فتجعله يكرّ ولا يفرّ، يقدم ولا يحجم، بحيث لا يبالي أوقع على الخطر أم وقع الخطر عليه، وهنا ينصرف العقل باطمئنان النفس إلى الطريقة والأسلوب والأداة التي يتعامل بها مع الخطر، غير أنّ الانسحاب المفضي إلى الجبن بتنبيه الخوف السالب القائم على انعكاسات نفسية سلبية، يؤدّي إلى الانسحاب والهزيمة أمام الخطر الداهم، وهذا ما نجده عند قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم عندما دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة فقال لهم: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى

إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ}[20]

إنّ موسى عليه الصلاة والسلام يعلم أنّ الجبن متمكّن في نفوسهم، ولذلك أراد أن ينتزعه من نفوسهم قبل أن يسمع جوابهم بدليل قوله (وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) ومع ذلك فقد صدّقوا موسى بظنّه بهم أنّ هذه الأرض فيها قوم جبّارون؛ فهذا الجواب ينمّ عن نفسية منهارة سكنها الجبن عن طريق السماع وليس من قبيل التجربة، ومع العلم أنّ رجلين منهم يخافون الله أوضحوا لهم سبل المسالك التي تفضي بهم إلى تجاوز الخوف السالب وتحوليه عن طريق الأسباب إلى خوف موجب، لم يدفعهم ذلك إلى إطاعة موسى صلّى الله عليه وسلّم، وخوف الرجلين يختلف تماماً عن خوف بقية قوم موسى مصداقاً لقوله تعالى: {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[21].

فهذان اللذان يخافان الله قد أنعم الله عليهما بهذا الخوف الموجب الذي يفترض أن يكون قائماً في نفوسهم جميعاً، إلّا أنّ خوفهم من الجبارين جعل الجبن يتمكن منهم؛ فدفعهم إلى الانسحاب والهزيمة والعصيان، ولم يلتفتوا إلى نصيحة الرجلين، ولم يناقشوهما، لأنّه ليس لديهم أدنى استعداد للموقف بسبب الجبن الذي يتملكهم، لذلك أرادوا أن يصرفوا أنفسهم عن هذا الأمر وعدم الخوض فيه إلى أن ينجلي لهم بأسباب

[20] – المائدة 21، 22.

[21] – المائدة 23.

غيرهم: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}[22].

فهذا التأبيد الذي تمسّكوا به اتجاه خالقهم واتجاه نبيّهم بما قذف الخوف من جبن في قلوبهم، كان سبباً في أن تكون الأرض المقدسة محرمة عليهم، ويتيهون في الأرض أربعين سنة نتيجة لذلك.

إنّ الرجلين من الذين يخافون قد أنعم الله عليهما، وهذه النعمة لا بدّ أنّ سببها التقوى، فكان خوفهما مختلف، وبعبارة أدقّ أنّ منبّهات خوفهما كانت مغايرة لمنبّهات الخوف عند قومهما، ولذا كلّ ينظر إلى منبّهات خوفه وعمل على تلافي خطرها، فكان التلازم والترابط بين التقوى والخوف من الله، أمّا بقيّة القوم لم يتزودوا بزاد التقوى؛ فكان خوفهم من مخاطر الجبّارين، ولذا فإنّ هذا النوع من الخوف المفضي إلى الجبن يترتّب عليه أشياء أخرى من الألم النفسي الذي ينتج عنه الهم والحزن الذي يؤدّي إلى اضطرابات نفسية، حيث أنّ نسبة كبيرة من أسباب الأمراض الخطيرة ترجع إلى القلق النفسي والهموم والأحزان التي يسببها الخوف السلبي، والجبن يترتّب عليه عجز وكسل يؤديان إلى زيادة الهم والحزن، ثم إن الجبن يترتّب عليه مضارّ كثيرة؛ فالجبان مترقبّ لا يهدأ باله ولا تسكن نفسه، لأنّه يخاف من نفسه ويخاف على نفسه، ويعيش في الخوف الذي يصبح له كابوساً يطارده، فيحدث له الهمّ والحزن، وكذلك الجبن في الإنفاق، إذ أنّ الذي يُمسك ماله لخوفه عليه من الضياع والهلاك تراه فقيراً، فإذا أنفق شيئًا أو أجبر عليه؛ فقد تلزمه

[22] – المائدة 24.

الهموم ويتراكم عليه الخوف، ولذا نرى كثيراً من الناس فقراء خوف الفقر وهم أصحاب مال وما ذلك إلاّ خشية الإنفاق.

إنّ الجبن شرّ ما يتّصف به الإنسان من صفة يدفعه خوفه إلى التمسّك به، ولذا فإنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يكثر من الاستعاذة بالله تعالى من هذه الصفة لما يترتّب عليها من مضارّ، مصداقاً لقوله صلّى الله عليه وسلّم: " اللهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال"[23]، وعليه لو كان للخوف شيء من هذه الصفات لكان الرسول قد استعاذ منه كما استعاذ من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل.

الخوف بين الفطرة والغريزة

إنّ خوف العاقل هو الذي يقوده إلى البحث عن مكامن الأمن على تشعّباتها المادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية على الرغم ممّا ينظر إليه البعض على أنّه سيف مسلّط على رقاب الناس، أو أنّه سوط من الأذى يسوقهم إلى المكاره ويقضُّ عليهم مضاجعهم، إلاّ أنّ هذا السوط من الخوف هو أيضاً يجعل الإنسان في مأمنٍ من المكاره التي يخاف منها وليس من الخوف، إذ لو فقد الإنسان خوفه؛ لفقد الأمن والاستقرار والطمأنينة والسكينة، فالشعور بالخوف عندما يستثار من مكمنه، يولّد نوعاً من الألم النفسي على الرغم ممّا يصاحب هذا الألم من الرجاء في الانتقال من الاضطراب إلى الهدوء ومن القلق إلى السكينة، وهذا يعني أنّ الخوف وإن كان من العاطفة، إلاّ أنّه يدفع بالعقل إلى درجة عالية

[23] – مسند أحمد، ج26، ص484.

من توقّد الذهن ولا يغيّبه؛ بل يجعله يُجدّ البحث عن سبل تهدّيء الخوف وتسكّنه وتعود به إلى مكمنه من خلال تأمين وسائل مسكّنات الخوف، ولذا أقرب ما يكون الخوف عند الإنسان إلى الفطرة والعقل، على عكس بقية المخلوقات التي يرتبط خوفها بالغريزة، ولذا نقول فطرة الإنسان وغريزة الحيوان، وإن كان للإنسان غرائز حيوانية كالجوع والعطش والنكاح التي يستوي فيها الإنسان والحيوان، إلاّ أنّ الإنسان يفارق الحيوان بالخوف، لأنّها فطرة عند الأوّل وغريزة لدى الثاني، بدليل أنّ الإنسان عند خوفه يلجأ إلى عقله ويحتكم إليه، وبالتالي فإنّ العقل في حالة خوف الإنسان، يدفعه إلى التفكير بما يجلب له المصالح ويدرأ عنه المفاسد، ومن هنا لا يستبعد العقل إمكانية التخلّص من المخاوف التي أثارها الخوف، فالعقل بهذا الاعتبار حال الخوف يستطيع أن يضغط على العاطفة ويسيّرها وفق مشيئته بما يراه مناسباً من حذر المكروه اقتناصاً للمصلحة ودفعاً للمفسدة بما يعود عليه بالمنفعة التي يراها من خلال حجم المخاوف، وإن كان العقل لا يدلّ على حُسن الأشياء وقبحها والأخذ بالأفعال وتركها قبل بيان الشارع لها في الوجوب والمنع والأمر والنهي، إلاّ أنّه يدرك مخاطر الأشياء والأفعال عن طريق الخوف، ومن هنا ارتبط الخوف بالعقل عند الإنسان، وارتبط الخوف بالغريزة عند الحيوان، فالعقل يكون شاهداً على المخاوف، ويكون مقرّاً بخطرها ومؤيداً لوجودها، لا ناقضاً لشهادته ولا رافضاً لها، ويكون موضحاً للأمر، والخوف هو الذي يدفع العقل لاتخاذ القرار فيما يمليه عليه الأذى والضرر من المخاطر الذي دفعها الخوف إلى العقل ليسبر غورها.

ومن هنا نرى أنّ علاقة وطيدة تقوم بين الخوف والعقل؛ بل إنّ الخوف يدفع العقل إلى إعمال إمكاناته إشباعاً لمتطلّبات الخوف، بما يثره الخوف من قضايا ويدفعها إلى العقل من أجل البحث عن حلولها، وهذه المخاوف التي يبثّها الخوف في النفس، يكون للعقل منها النصيب الأوفى لا من حيث الخوف، وإنّما من حيث التعرُّف على حجمها ومقدار ضررها، وإن كان خوفاً عكسياً من أن يفوته خير، فيستطيع أن يقدّر صلاحها ومنفعتها وفائدتها والحكم على الحرص في استحواذها.

ومن خلال المخاوف يحكم العقل باستحالة غير الممكن، وقبح الشرّ والظلم، وضرر المفاسد، ويحكم من خلال الخوف أيضاً على حُسن الخير والحقّ والعدل، وعلى المصالح التي تعود بالمنافع التي تبدّد الخوف.

وعليه ممّا يثيره الخوف لدى العقل، يستطيع العقل أنّ يردّ كلّ حدث خارجي إلى سببه، وكلّ هاجس داخلي . في النفس . إلى علّته، بحيث لا يمكن للنفس التشكيك فيه؛ فتطمئنّ إلى قراراته وما يمليه على الإرادة اندفاعاً من الخوف الذي أرسل الإنذار بالمخاطر، ذلك أنّ الإنسان يتمتّع بأشياء كثيرة من الملكات، ويتمتّع إلى جانب خوفه بالعقل والقدرة، فالعقل يفهم الخطاب الصادر عن الخوف ويميّز به حجم المخاطر ويقارنها بالقدرات، والقدرة تباشر الأسباب التي يكلّفها العقل بمعالجتها استجابة لإنذار الخوف، ولذا وإن كان الخوف يصنّف ضمن العواطف التي تتمتّع بها النفس، إلاّ أنّ هناك علاقة إيجابية متبادلة بين الخوف والعقل في تقدير حجم المخاوف ومخاطرها، ومن ثمّ البحث عن الأسباب العلاجية لها أو الوقاية منها في عملية تشابكية بين الخوف

والعقل والقدرة، إضافة إلى الملكات الأخرى التي تنصاع للعقل في تنفيذ أوامره استجابة لإنذار الخوف.

إنّ خوف الإنسان فطري له علاقة وطيدة بالعقل، بينما خوف الحيوان غريزي عشوائي؛ فالحيوانات الضارية قد تدفعها غريزتها إلى الخوف والهرب والفرار حتى وإن عضّها ألم الجوع أحياناً، وقد تهاجم وتقتل وتبطش دون خوف وإن كانت شبعى أحياناً أخرى، ذلك أنّ الغريزة أملت عليها أشياء لا نستطيع أن نفهمها نحن، ولا هي تستطيع أن تفسّرها لنا، إذ أنّ الحيوانات المفترسة تخاف الإنسان في أحيانٍ كثيرة على الرغم من أنّها لم تجنِ جناية ولم تقترف ذنباً بحق هذا الإنسان، وكثيراً ما تهاجمه وتبطش به مع أنّها ليست جائعة، ولا الإنسان جنى عليها جناية، أو اقترف بحقها ذنباً، فهي تفعل هذا وذاك لصفتها وسطوتها وبطشها، وتفعل ما تفعل ولا تبالي، فإن قتلت وبطشت لم يرقّ قلبها ولم تتألم، وإن تركت فريستها، فهي لم تتركها رحمة بها ولا شفقة عليها، وكلا الحالين لا يقدح في حيوانيتها.

إذن التساؤل المطروح ما الذي يدفعها إلى الخوف أو عدمه؟

إنّ الإجابة على هذا التساؤل هي ظنيّة أكثر منها يقينية، ذلك أنّ الإنسان عندما يتملّكه الخوف، تظهر منه ردود أفعال تجاه ذلك سلباً أو إيجاباً، ويستطيع أن يعبّر عن خوفه لنفسه، وأن يفصح عن خوفه للآخرين، ومن ثمّ يتصرّف تجاه المخاوف بطرق شتى ووسائل عديدة، أمّا هذه الحيوانات ولاسيما الضارية منها، لا نستطيع أن نحكم على خوفها وإن أدبرت أمامنا مسرعة، ولا يمكن أن نحكم على عدم خوفها وإن أقدمت على البطش في ضحيتها، غير أنّ الذي يبدو لنا أنّ مقياس

الخوف الذي أسقطه الإنسان على الحيوان، هو تعبير عن شعورٍ ذاتي للإنسان حال الإقدام والإحجام في الخوف وعدمه، فإن هربت هذه الحيوانات مدبرة أمام الإنسان، ظنّ أنّها خائفة، وإن أقبلت عليه حكم بأنّها غير خائفة.

فمن أين أتى بهذا الحكم؟

نحن لا نشكّ أنّها تخاف، ولكن نشكّ أنّنا نستطيع تقدير لحظة الخوف، لأنّ تعبيرها عن حاجاتها أو ما تشعر به في انفعالاتها وردود أفعالها لا يستقيم القياس عليه بالإقبال والإدبار أو بالهدوء والثوران، لأنّها لا تحتكم في ما يواجهها إلى موجّهٍ عاقل، ولا تفصح عمّا ينتابها، وإنّما هي غريزة تتحكّم بها أو تفرض نفسها عليها؛ فتنصاع لذلك استجابة للغريزة، إذ أنّها لو كانت تعرف الخوف بالمعنى الإنساني، لما أكل الضبع أولاده، فكيف تخاف الضبع على أولادها ثمّ تأكل بعضهم، ولو أنّ ابن الضبع كان يستشعر الخوف من والديه لهرب قبل أن يأكله أحدهما.

ثمّ إنّ كثيراً من الحيوانات العاشبة كالغزلان والظباء والأبقار والجواميس في الغابات، تعيش جنباً إلى جنبٍ مع الحيوانات اللاحمة مثل الأسود والنمور والفهود والضباع، فالحيوانات العاشبة تشكّل مصدر غذاء يكاد يكون وحيداً للحيوانات المفترسة، فلو كانت ترى فيها مصدر خوف لما أقامت معها، نعم تكون المطاردة على أشدّها بين المفترس والطريدة، ويثير ذلك بقية القطيع، إلاّ أنّ النهاية الحتمية للطريدة لا تدفع القطيع إلى مغادرة المكان، وكأن الأمر يعني الضحية ذاتها ولا يعني نوع الضحية، وهذا يعطينا مؤشراً على عدم خوفها، وذلك عندما تهاجم

طريدة واحدة، يبدأ القطيع بالسير على غير هدى، وعندما تقتل الضحية وتُفترس، يعود الأمر على ما كان عليه من المعايشة في الرقعة الجغرافية بين الضحيّة القادمة والقاتل المفترس.

إنّ الخوف عند المخلوقات الأخرى غير الإنسان هو غريزي بحت، قائم على فعل وردّة فعل، وبانتهاء الفعل تنتهي ردود الأفعال المضادة، إذ لو أنّ الحيوانات يسكنها الخوف كما يسكن الإنسان وهو جزء منه لا يفارقه، لاتخذت تلك الحيوانات سبلاً تناسب حيوانيتها باتقاء مخاوفها، والذي نظنّه أنّ خوف الحيوان ليس خوفاً بالمعنى الإنساني، وإنّما هو نوع من استشعار خطر قد يكون أيّ واحدٍ من أفراد القطيع هو الهدف، فإذا تمّ اقتناصه زال بزواله الخطر المستشعَر.

وهكذا نرى علاقة الخوف بين بقية الحيوانات الأخرى من الأكبر والأصغر، والأقوى والأضعف، وتبقى مسألة مهمة في هذا الصدد، وهي أنّ الله تعالى بيّن لنا تصرّف حيوان وإن كان حشرة، ولكن هذا ينسحب على جنس الحيوان، حيث قال تعالى عن النحل: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا}[24].

فعدم العقل يشترك به جميع الحيوان، من الحشرات والطيور والسباع والحيتان وما إلى ذلك، ولما كان النحل من الحيوان، والله سبحانه وتعالى أوحى إليه وأخبر عنه؛ فيمكن القياس أنّ الله تعالى أوحى إلى بقية الحيوان واكتفى بالإخبار عن النحل الذي أوحى له، والوحي هنا أقرب ما يكون إلى نوع من البرمجة التي تعمل بها الحيوانات وفق ما

[24] – النحل 68، 69.

قرّر الله تعالى في خلقها حسب غريزتها الذي يكون الخوف جزءاً منها لحظة الخوف، لأنّ الخوف لا يسكن الحيوان كما يسكن الإنسان؛ فالإنسان خوفه فطري، والحيوان خوفه غريزي، وعليه فالخوف يبقى قائماً في الإنسان لأنّ الفطرة ثابتة، بينما إن كان ثمّة خوف عند الحيوان؛ فهو خوف غريزي يزول بمشبعاته بطريقة يدركها الحيوان نفسه بما قرّر الله تعالى في نفسه من وحي واستشعار لا عن فطرة ولا عن فطنة، وبون كبير بين الفطرة المرتبطة بالعقل والعاطفة، وبين الغريزة في استشعار الخطر وما يقابلها من ردّة فعل تجاه الخطر المستشعر.

إن الخوف لدى الإنسان لم يرتبط بالغريزة، وإنّما ارتبط بالفطرة والعقل المميّز الذي أثقل كاهله بالمخاوف، ولذا فإنّ هذا الأمر يسبب له كثيراً من الهموم والضغوط النفسية، مصدرها التحسّب من المخاوف التي يبحث لها عن حلول، أو دوافع تدفع عنه المخاطر التي تحملها مخاوفه، ولذا يسعى جاهداً في إشغال عقله للتوصّل إلى الموانع التي تقف حائلاً أمام المخاوف ومخاطرها، وعندما لا يحصل على ما كان متوقعاً، يظلّ الخوف قائماً في نفسه، وحتى لو حصل على ما يريد؛ فقد لا يكون راضٍ عنه تمام الرضا، ذلك أنّ الصورة التي كان يتخيّلها قبل تحقيق مصدّات الخوف، كانت في عقله أبهى من الواقع.

ولذا بعد حصوله على ما يريد من درء مخاوفه، يظلّ يعاني من القلق خوفاً من زوال ما حصل عليه، ولذا فالخوف عند الإنسان لا يفارقه بحال من الأحوال.

الخوف صفة فطرية ملازمة

يكمن في نفس الإنسان العديد من الصفات التي يمثل مجموعها تحقّق التمايز الإنساني المتفرّد عن غيره من المخلوقات، لكن هذه الصفات لا تكون ظاهرة دائماً لتطرح نفسها بمناسبة أو بدونها، فهي تعتمد على إثارة خارجية تمنحها ظهوراً متبايناً لا يكون فيه تشابهٌ حاصلٌ، وهذا يطرح التفاوت الإنساني في الكيفيات التعبيرية التي يكون من ورائها، فلا يكون هناك أيّ اتفاق ممّا يطرح أن الكيفية الحاصلة لا تنتمي إلى أيٍّ مرجعية أو إلى أيّ معيار يكون من ورائه وضع ضوابط أو شروط يكون من ورائها وضع حدود واضحة المعالم، وهذا الأمر يتبيّن من خلاله، أنّ الخوف يرتبط بالفعالية الإنسانية ضمن توجيه يتّسم بوجود إدراكات واعية تسيّر الأمور نحو مدارات واضحة المعالم، فيكون الانزواء غير حاضر كونه يتقوقع على نفسه ولا يقرأ الأمور الحاصلة بالكيفية التي يعقبها إيضاح واضح يمنح الحلول ارتماءً في أحضان واضحة المعالم بعد أن تجد ما يمنحها سمة المرور الصحيح ضمن التشكيلات الحياتية الحاصلة، إلّا أنّ من المفارقة أن نجد الكثير ممّن يختلق الأطروحات المختلفة من أجل أن يصل إلى حالة البينية المفترضة التي تغيب فيها الإحالات المقنعة، فتكون بعد ذلك السببية المطلوبة خارج إطار التنظير المرتقب، وهذا يجعل الأمور تتّجه نحو تبعات متعدّدة، يكون من ورائها الاتساع المفاهيمي غير خاضع لحدود واضحة المعالم، رغم أنّه أدخل نفسه في مدارات واضحة منحت نفسها أسلوب التوقّع المنضبط ضمن أصول لا يمكن الانفكاك منها.

والخوف هو أحد هذا الصفات الكامنة في النفس الإنسانية، لا يمكن أن تظهر علاماتها أو دلالتها دون وجود مؤثرات خارجية، ومن العبثية

القول أنّ الخوف دائم الظهور على الإنسان، وذلك لأنَّ هذا القول يطرح التعدّد المماثل لباقي الصفات، وهي بدورها تريد حيزاً في هذا الظهور ممّا يؤدّي الأمر برمّته إلى:

انتفاء وجود استثارات متحقِّقة في وقت واحد، وهذا يلغي التعدّد الافتراضي الذي يدخل الإنسان في إعدادات غير منتمية له، ولا تصلح له.

الفطرة التي خلق عليها الإنسان تحقّق فيها التعدّد في الصفات لكن لم يتحقّق فيها التعدّد في الظهور في آن واحد.

ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم مصداقاً لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[25]، فإذا ما قورن مع غيره ممّا خُلق؛ فهو بدون شكّ لم يخلق على الكمال، ولأنّه كذلك إذن لا بدَّ أن يكون الخوف معطية من معطيات خلقه، وهنا يكون الخوف أحد الامتدادات التي تطرح أساليب البحث المختلفة ضمن تدويرية مقنعة، يكون وجودها حافزاً إلى وجود بقية الصفات التي يكون توقّعها حاصلاً في المستقبل ضمن سياق الادراكات الاستشرافية التي تجعل المستقبل قريب الوقوع من خلال الوقوف على ثنائية الممكن المتوقّع والممكن غير المتوقّع؛ فبهذه الثنائية الافتراضية يمكن تسجيل الكثير ممّا يمكن تسجيله دون الخروج عن الخطّ النّمطي المتعارف عليه، ذلك أنّ كلّ التداخل الحاصل يمثّل إفضائية تراتبية تطرح الاستمرارية، لكن هذا الطرح يكون بوعي واضح يقف على السبب والمسببات، فيمنح الوقوف مديات بعيدة يكتسب من

[25] – التين 4 .

خلالها زخماً من التوقّعات التي يُبنى عليها الكثير ممّا يراد له أن يكون في دائرة التحقُّق.

ولذا كلّ ما خُلق يكون الخوف معطية من معطياته، فيكون التشكيل الخلقي حاصلاً في الكيفية التي عليها الإنسان، سواء أكان على الضعف أم على القوّة، فلا يكون هناك انزياح مفترض، لأنَّ الانزياحات تكون غير حاصلة؛ كون الإنسان يكتنفه تعدّد حاصل يظهر في الأوقات التي يكون ظهوره حالة مطلوبة، تتحقّق من خلالها جوانب مختلفة؛ فيكون من ورائها غايات تمثّل النهاية التي أرادها المستثير الأول، وهذه الإرادة أيضاً تدخل باب التعدّد السلبي والايجابي الذي يفضي دائماً إلى نهاية مفتوحة الوقوع ممّا يصاحبها افتراضات متعدِّدة تكون أكثرها ملبّية لمستثير الخوف.

إنَّ قضية المستثير نجد أنّها تمثل المركزية التي يجب أن تكون في ظهور الصفات المتعدّدة والمتنوعة، بوصفها الإيقونة التي تحرك الظهور المطلوب للخوف، ونعني بالظهور المطلوب أنّ صفة الخوف الكامنة تكون متماثلة للسبب الذي أخرجها إلى حيِّز الظهور، وهنا يكون في الأمر تفاوتاً مرتبطاً بين الصفة ونسبة المثير، فيكون الظهور متباعد الحضور في الحيّز الافتراضي الذي يجب أن يشغله، فيتعدّد شكل الحضور بتفاوت وقوع المثير، وهنا تظهر الصفة التي يفترض أن تحقّق ما يمكن تحقيقه من خلال الظهور التي تكون عليه.

ويمثّل الخوف مفردة من مفردات الإنسان فتكون الإخافة حاصلة ضمن ارتباط واضح بثنائية (الضعف – القوة)، وهذا يفضي بنا إلى أن نقول:

كلّ مُخيف يخاف إلّا المُخيف المطلق يُخيف ولا يخاف، وبما أنّ الخلق كلّ الخلق لم يخلق على الكمال، إذن خُلق والنقص فيه، ولكن إن جدّ بلغ التمام الذي يمكّنه من البقاء على حسن التقويم، وهذه خاصية بالذين يتذكّرون ويتفكّرون ويتدبّرون، وهنا تنبري مجموعة من الانفتاحات النصّية التي يكون من ورائها بلورة الأفكار المرادة؛ فيكون التعالق سمة افتراضية بينيّة تحاول أن تجول في أروقة تكون نهايتها قريبة من التمام المنشود.

إنّ الخوف غريزة لا علاقة لها بأنّ تكتسب؛ فما يكسب هو الذي يتمّ تعليمه أو الذي يتمّ التأهيل به، ولذا فإنّ الخوف لا يحتاج إلى مهارات، فالخوف غريزة فطرية مثله مثل غريزة الظمأ والجوع والجنس، إلّا أنّ الخوف يتعلّق بالمعارف العقلية، أمّا الغرائز الأخرى فهي تتعلّق بما يستوجب اشباعات مادية، فالظمأ مشبعه الماء، والجوع الطعام، والجنس الممارسة.

أمَّا الخوف فلا يحتاج إلى مثل هذه الاشباعات، بل يتطلّب إجراءات وقائية حتى لا يحدث ما هو متوقّع وما هو غير متوقّع.

وهنا يكون الخوف قد سار في طريق تتعدّد فيه الإجراءات المختلفة والمتنوعة، فتظهر بذلك الاختيارية القائمة على رؤية واضحة الملامح، فيكون الاختيار ملبياً لما يجب أن يكون وفق المنظور المطلوب، ممّا يحدث انفراجاً في التقلُّبات الحاصلة والتي تسعى إلى إيجاد أمكنة لها، تكون إيضاحاتها ذات سمة تنويرية، تتّسع بحسب الحاجة التي تملي عليها كي تصل إلى الافتراضات المتعدِّدة، والتي يكون من ورائها إيجاد أنساق حقيقية تختطّ البداية التي يكون من بعدها التحقّق المطلوب.

وتكون الإجراءات باحثة عن أصول تريدها وأصول هي تبتدعها نتيجة القراءة الواعية التي تمنح الخوف أبعاداً جديدة؛ فتكون فيما بعد حالة من الحالات التي يُراد منها تثبيت أماكان واضحة المعالم تعدّ منطلقاً لما يجب أن يكون وفق المنظور الأول الذي تَبنّى البحث عن التحقّق، هذا الأمر يفضي إلى إيجاد ارتباطات بينيّة حلولها قد تكون غير متوافقة كثيراً، إلّا أنّها تصب في قالب واحد يكون من ورائه المراد.

عليه يكون الخوف حالة استباقية يبنى على أساسها الحلول المفترضة، فالاكتناف حاصل، والظهور حاصل، إلّا أنّ الاتساع المطلوب يسمح بإيجاد حركة حرّة تمنح الإحالات المقترحة مديات ايجابية في كثير من الأحيان، وهذا الأمر يجعل الخوف مرتكزاً قوياً وإن كان النظر إليه من باب الفطرة يمنحه خمولاً ارتدادياً يجعله من بين السلبيات التي يمكن أن تحصل، والتي تكون نتائجها خاضعة في كثير من الأحيان إلى افتراضات بالية، وهذا الأمر ينافي الايجابية التي يكون عليها، فالسلبية التي تلوكها الألسن أرادت أن تطمس الملامح الايجابية التي تظهر في الخوف، وذلك من خلال الارتماء في أحضان الفطرية التي يرون فيها أنّها مدعاة للسلب المفترض.

تتعدّد الغرائز وتتعدّد مشبعاتها بطبيعة الحال، وبما أنَّ الغرائز المادية لها مشبعات مثل ما ذهبنا إليه في الظمأ والجوع والجنس، إذن فما هو المشبع لغريزة الخوف؟

ألا تكون السكينة هي المشبعة لغريزة الخوف؟

إن كان الأمر كذلك فما هي محقّقات هذه السكينة؟

ألا تكون السكينة والأمن والطمأنينة مشبعات للخوف؟

إذن الخوف لا تشبعه المادة، ولذا يتماثل مع تلك الغرائز من حيث كونه لا يلتقي معها مادياً، ولهذا فهو لا يتماثل معها في مشبعاتها المادية.

ومع أنَّ السكينة هي المشبع الرئيس للخوف إلّا أنّ هذه السكينة لها من المحقّقات ما هو مادّي وما هو معنوي، فالإيمان جزء من محقّقات السكينة والاطمئنان، والمعاش بالنسبة للعمل، والغذاء بالنسبة للإنتاج، والسكن بالنسبة للإيواء، والدفء بالنسبة للأبوة والأمومة.

هذا الحضور المادّي والمعنوي في المشبعات يطرح التغاير بينها، ممّا يسمح بوجود افتراقات عدّة تكون منتمية لأصول لا يمكن الانفكاك عنها دون تحقيقها، وهذا يوضّح النتائج الظاهرة ضمن صيرورة الوجوب التي يكون من بعدها الانتهاء؛ فتكون النهاية أشبه بسور عظيم تسقط عنده بعد ذلك كلّ الافتراضات التي لا تنتمي في حقيقتها إلى ما يسمح لها بأن تكون منزوية .

عليه: يمكن القول أنّ الاندماج بين الروح والمادة يفضي إلى ما هو مشبع للخوف، ولسائل أن يسأل كيف يمكن للمادة أن تكون مشبعة للخوف؟

نقول:

يتعرّض الإنسان في حياته إلى كثير من المخاطر المتعدّدة والمتنوّعة، فيمكن له أن يقدّر حجم هذه المخاطر، هذا التقدير الذي يصل إليه سيكون على أساسه التصرّف المستقبلي الذي يكمن فيه درء المخاطر أو الابتعاد عنها بشكل يكون هو بعيداً عن كلِّ خطر، هذا التصرّف يكون مبنياً بطبيعة الحال على أسس واضحة المعالم تتّفق مع نوع المخاطر، فالسيول والأعاصير والزلازل المدمّرة على سبيل الافتراض

يكمن فيها الخطر، فتكون النهاية الافتراضية حاصلة حين يكون التقدير مبنياً على قراءة علمية صحيحة، وهنا يكون الخوف مستشرياً لدى الناس ممّا يحملهم على إيجاد حلول يكون من ورائها إسقاط الخوف؛ فالذي ترتّب على القراءة سيتحقّق حين تصل السيول والأعاصير إلى منازل الناس، ففي السيول يكون الحلّ مثلاً محاولة تصريف أكبر قدر من المياه إلى أماكن بعيدة تكون ملبيّة لهذا التصريف، فيقتضي الأمر شقّ كثير من القنوات التي تقوم بهذا الإجراء، وكذلك الأعاصير التي يكون من نتائج القراءات العلمية لها، التفكير في إيجاد كيفية ملبية لبناء جديد يحمي ما يمكن حمايته حين تجتاح الأعاصير المدن، حتى بالنسبة إلى الزلازل نجد في اليابان وغيرها من البلدان التي تحصل فيها الزلازل باستمرار، أنّ أساس البناء يكون خاضعاً لكلّ ما من شأنه أن يكون قادراً على مواجهة الهزات الأرضية، فعند حصول هذه الهزات يبقى البناء كما هو،لأنّ بناءه كان خاضعاً للأسس التي تمنحه المقاومة والاستمرار التي نبّه عليها الخوف.

عليه ألا يكون الجانب المادي هو المشبع لغريزة الخوف؟ فحين يتحقّق ما ذهبنا إليه في مواجهة السيول والأعاصير والزلازل، ألا يكون الخوف قد تلاشى نتيجة الإشباع المادّي الذي أفضى أن تكون النتيجة بهذا الشكل؟ وهنا يكون التشكّل المادّي والروحي متحققاً، بل ويؤسّس إلى إيجاد مشبعات للخوف ضمن تراتبية تنمّ عن وجود ائتلاف حقيقي يشارك في بلورة الكثير من النتائج التي يكون من ورائها تحقّق المشبعات بصرف النظر عن طبيعة التشكيل المراد.

أمّا السكينة مع أنّها روحية (غير مادية) إلّا أنّها لا تتكون على الكمال والتمام إلّا بتداخل الجانب الروحي مع الجانب المادّي أو الجانب العاطفي مع المادّي؛ فعلى سبيل المثال عاطفة الأبوة والأمومة ليست مادّية ولكنّها لا تنتج إلّا من أب وأم (مادة) أي أنَّ الإنسان في ذاته مكوّن مادّي ولكن في عقيدته وإيمانه وسكينته هو مكوّن روحي، ولهذا أنتج الأبوة والأمومة والإخوة والعمومة التي تحقّق سكينة الأبناء جيل بعد جيل.

تتناوب الصفات بالحضور في النفس حين يتحقّق الإشباع، فالسكينة تحلّ محلّ الخوف، والشبع يحلّ محلّ الجوع، والارتواء يحلّ محلّ العطش، ولأنّها تتناوب فهي لا تنتهي، ولكنّها ستظل تتناوب إلى النهاية، هذا التناوب يطرح الاستمرارية التي يتشكّل معها البحث عن المشبعات في كلِّ تنوّعاتها ممّا يخلق صيرورة مكرّرة تفضي إلى وجود ترابطات بينيّة بين كلّ الثنائيات التي يكمن فيها التناوب، فالإنسان نتيجة هذا التناوب سيمتلك نظرات متّسعة تتجدّد دائماً؛ فيكثر عنده الخزين المعرفي الذي يؤدّي به إلى إيجاد بدائل متعدّدة، لكنّها غير متكرّرة؛ لأنَّ المتكرّر لا يعود، وهذا يطرح التحديث الحاصل الذي يكون من ورائه طرح كلّ ما هو جديد بعيد عن الماضي وبدائله.

كيف يكون الخوف طبيعياً حاله كحال الغرائز المادية؟

نقول:

كلّ شيء مؤسس على الفطرة التي خُلق عليها، سواء أكان على أحسن تقويم أم أنّه ما دون ذلك. ولذا فإنّ كلّ مُخيف بين الحين والحين يملؤه الخوف، فالأفعى على سبيل المثال التي تُخيف فإن تمت مواجهتها

بالقوّة سيكون الخوف هو المتحكّم بها أو المسيطر عليها، وإذا نظرنا إلى ملك الغابة كما يقولون (الأسد) فهو الآخر كما يُخيف يخاف، وهكذا الإنسان الذي هو على حسن التقويم؛ فهو من الخائفين إذا ما تعرّض لمواقف تتطلّب منه أن يعدّ العدّة كي يتخلّص من الخوف.

وعليه فإنّ الخوف الذي هو شعور داخلي لا تناوب له إلّا بمعطيات خارج عنه.

ونتساءل:

إذا أجزنا أنّ الخوف هو فطري ألا يعني ذلك أنّنا نجيز أنّه لا علاقة له بالإرادة؟

نقول:

نعم إنّه فطري ولكن له علاقة بالإرادة.

فالإرادة توجّه الخوف نحو إيجاد كلّ ما يمكّنه من تحقيق المشبعات، لأنَّ بقاء الأمر ضمن حدود لا تشير إلّا لوجود الخوف مدعاة للتقوقع الصفاتي الذي يُرى فيه الجانب السلبي دون الايجابي، كما أنّ الأمر المهمّ الذي لا بدّ من الإشارة إليه، أنّ كلّ الصفات ومن بينها صفة الخوف، لا بدّ من تأصيل أمر الإرادة فيها، وذلك كي يتحقّق فيها ثنائية (الإيجاب والسلب)، فهذه الثنائية لا يكون تحقّقها وفق الفطرية التي تنتمي إليها الصفات، بل وفق الإرادة التي يكون من نتائجها السلب والإيجاب.

ولسائل أن يسأل:

بما أنّ الأمر في دائرة الممكن يتحقّق أو يشبع بإرادة الإنسان، ألا يعني ذلك أنَّ علاقة طبيعية تربط الطبيعي بما هو إرادي؛ فالجوع يحتاج إلى إرادة حتى يشبع، والخوف يحتاج إلى إرادة حتى يحقّق الاطمئنان .

ولذا من حيث أنّ الغرائز تخلق خلقاً إلّا أنَّ جميع الغرائز وفقاً لقوانين الطبيعة ونواميس الحياة وشرائعها لا تشبع إلّا عن إرادة، فالعلاقة قويّة بين ذلك الغريزي وبين الإرادة المحقّقة للإشباع.

والإنسان بإرادته قادر على أن يشبع غرائزه بالعمل، وبإرادته إن لم يعمل فلا يشبع غرائزه، ولهذا كلّ شيء على المستوى الإنساني إن تحقّق سلباً أم إيجاباً فلا يتحقّق إلّا بأيدي الإنسان، فإنْ عمل صالحاً كان مصلحاً لا مفسداً، وإنْ عمل طالحاً كان على الفساد لا على الإصلاح؛ فعلى سبيل المثال: الإنسان الذي تقدّم علمياً وتقنياً وغزا الفضاء ولازال يغزو، وأنتج العدّة التي تحقّق السلام والتي تحقّق الفناء له وللآخرين؛ فهو بهذا قد سلك مسلك البحث عن اختيارية تكون مدعاة للوصول الافتراضي الذي كان عند البداية، ممّا يجعل من النهاية الصورة الواضحة التي يظهر فيها الصلاح وعدمه.

إنّ المخلوقات الأخرى غير الإنسان تخاف من غيرها الذي يشكّل خطراً عليها، ولا تخاف من جنسها كما هو حال الإنسان الذي يخاف من جنسه أكثر من خوفه من غيره؛ فأصبح الخوف هو اللغة السائدة بين بني الإنسان (بين أنا وآخر) وكأن الأنا والآخر ثنائية ليست من جنس واحد، ولذا فالإنسان الخائف إذا استمدّ القوّة يصبح مصدراً للخوف أو الإرهاب.

وعليه: فالقاعدة (الخوف المتحقّق يحقّق القوّة) أي لو لم يكن الخوف ما تحقّقت القوّة، ولذا فالخائفون عندما يستقرئون المستقبل ويعدّون العدّة لتفادي ما يملؤهم من مخاطر، يصبحون على القوّة التي بها يتّصفون بعد أن كانوا يتّصفون بغيرها (بالضعف).

أمّا الخوف كون فطريته ملازمة، فإنَّ هذه الملازمة تطرح الخوف بديمومة جبرية إن صح إطلاق مثل هذه التسمية، ذلك أنّ الوقتية غير متحقّقة، لأنّها لو تحقّقت لحدث الآتي:

لسقط الإنسان من الإنسانية التي ينتمي إليها، ذلك أنّ الخوف صفة تنفتح من خلالها تشعبات متعدّدة، ترمي إلى إيجاد حالة ترابطية بين الناس؛ فالخوف يحتّم على الناس جميعاً البحث عن الأسس التي تجعلهم يلتفّون حول مركزية يكمن فيها البقاء ضمن الدائرة الإنسانية، وإن كانت في بعض الأحيان هذه الدائرة مفترضة، إلّا أنّها محاولة للبقاء ضمن تواصل مراد.

يمنح الخوف الإنسان البقاء بعيداً عن المخاطر التي يمكن أن تحدق به، ذلك أنّ الخوف يكون مانعاً للإنسان من خلال التحسّب المستمر الذي يمدّه بوقائية تجعل كلّ ما من شأنه أن يكون خطراً ضمن انزواء في غياهب بعيدة.

يمثل الخوف حالة إدراكية تتّسم بامتدادات بعيدة؛ فيبنى على أساسها تبعات كثيرة، فتنساق الأمور المختلفة نحو هذه الادراكات ليكون البناء بعدها مستوفياً للشروط البنائية التي تكون فيما بعد الأساس الواضح.

إنّ الخوف بفطريّته الملازمة، صفة تمثّل القوّة التي تدفع بالإنسان نحو المضي إلى تحقيق كلّ ما من شأنه أن يثبت إنسانيته أولا، ويدرأ عنه

كلّ ما من شأنه أن يمثّل خطراً عليه ثانياً، وفي كلا الحالتين تكمن الايجابية التي يتمثّل فيها الخوف.

استنهاض الخوف صناعة للمستقبل

يكمن الخوف في النفس الإنسانية، لكن هذا الكمون لا يكون مستديماً أو حالة تكون أشبه بالمكوث الذي لا يرى بزوغه أبداً، ذلك أنَّ المثيرات الخارجية تسعى دائماً إلى يقظته في تشكيلات متعدّدة ومتنوّعة، فيكون ظهور الخوف ضمن حالة متفاوتة بحسب المثير الذي يستفّزه، هذا الأمر يكون تحقّقه ضمن آنيّة مفترضة يكون حصولها بعد امتدادات واضحة المعالم، يُرى فيها كلّ التمركزات المطلوبة، والتي يكون من بعدها التوجّه العلاجي قائم من خلال مثول الخوف وراء كلّ ما يحصل. إنَّ هذا الانفتاح في المعالجة قائم على آنيّة تكون محدّدة الحدود واضحة التفاصيل، ومن الممكن الوقوف على كلِّ ما من شأنه أن يكون الحلّ فيه ظاهراً سواء أكان مادياً أم معنوياً؛ فتكون المعالجة سريعة، لكنّها لا تخلو من أخطاء متفاوتة قد تكون قليلة في بعض الأحيان، إلّا أنَّها قد تتّسع في أحياناً أخرى لتصل الأمور في بعضها إلى وجود خروقات غير منطقية، تجعل الكثير من الحلول في المستقبل في مهبّ الريح، هذه الآنيّة ساهمت بشكل أو بآخر في استنهاض الخوف من خلال رسم حجم المخاطر وتبيان ما فيها من تفصيلات تعينه على إيجاد حلول يكون من خلالها الوصول إلى نقاط التقاء فعلية تكسب الزمن أولاً، وتخرج الوضع الحرج أو الخطر إلى وضع آخر أفضل ثانيا، إلّا أنَّ الوضع الأفضل يكون وفق مقاييس غير ثابتة، إذ تكون

هذه المقاييس تابعة إلى مجمل العوامل التي التفّت حول الخوف، ومنحته هذا الاستنهاض الذي كان سبباً فاعلاً في الوصول إلى النتيجة الحالية التي هي في كلّ الأحوال منقادة للبداية الأولى التي كانت قاعدة الانطلاق.

يسير الخوف باتجاهات واضحة المعالم حين يكون الاستنهاض مبنياً على أسس علمية، تتّسع مراحلها نحو إيجاد توافقات بين الحدود المفتوحة التي لا يُرى فيها في كثير من الأحيان إلاّ ابتعاداً عن المركز المفترض، هذا المركز يكون من خلاله طرح ما يمكن طرحه وإعداد ما يمكن إعداده، ولهذا لا تكون البداية مفتعلة بأيّ حال من الأحوال، لأنَّ الافتعال لا يولِّد في المستقبل إلّا أخطاء جسيمة، ونحن إذ نرى في البداية أنّها يجب أن تكون مبنية على اتساعات علمية مختلفة تلملم المطروح وتدخله في سياقات حقيقية وافتراضية، فتمنحه بذلك مديات متباينة يكون على أساسها الوصول إلى الاتكاءات التي يكون من ورائها الوقوف على الحلّ، والذي يكون من ورائه تفادي المخاطر التي يمكن أن تحدق بالإنسان.

إن السير خلف طروحات ثابتة يجعل من استنهاض الخوف أداة ناقصة الفاعلية، ذلك أن التغيُّر المستمر في الحياة يخلق حالة من التصحيح المستمر لكلِّ ثوابت الحياة، وهذا بطبيعة الحلّ يوجد ارتماءات متعدِّدة تحاول أن تجد لها ما يكفل بقاءها ضمن دائرة الاستنهاض؛ فتكون الأمور ضمن هذه النسقية باطلة وغير قابلة لردع المخاطر؛ فتقلبات الحياة جعلت الكثير من الأمور تكون ضمن انزواءات لم يتوقّع لها أن تكون فيها؛ فكانت وجوداً غير مرغوب فيه في كثير من المواقف، وهنا

تنبري الأمور ضمن استمدادية جديدة؛ فتحاول أن تجد ما يمنحها صيرورة البقاء ضمن دوائر جديدة تسهم من خلالها في إيجاد حلول واضحة، وإن كانت استعراضية، إلّا أنَّها ملبية لبعض الارهاصات الحاصلة التي تبدو غير خطرة.

وتتحدّد الحياة من خلال تقسيم يطرح كلّ ما من شأنه أن يكون سبباً في استنهاض الخوف، ذلك أنَّ المخاطر أصبحت ضمن مدارك الإنسان المختلفة؛ فيلتفَّ حولها استشعارات متباينة تكون حافلة بأسباب البحث عن كلِّ النقاط التي يكون من ورائها الوقوف على الصورة الافتراضية التي ستكون في المستقبل، وهذا يشمل ما يسمى بصناعة المستقبل؛ فالمستقبل في حقيقته غير متحقّق، إلّا أنّه يمكن أن يتحقّق من خلال رسمه بتقنية خاضعة لكلِّ ما يساهم في تحقّقه، وفي هذا المقام يتراءى لنا مصطلح المستحيل الذي يمكن أن يكون باعثاً لتوقفات كبيرة يكون من بعدها تحقّق المخاطر، ومن ثمَّ الانزواء عن إيجاد حلول تكون ناجعة في كلّ المقاييس، ولكي نبدِّد هذا المصطلح ولو آنيّاً علينا أن نلجأ إلى المتوقّع وغير المتوقّع كي نسلب منهما الحلول التي يمكن أن تكون باعثة على إيجاد أرضية صلبة وواضحة المعالم، ويكون من ورائها خلق استنهاض للخوف يكون من ورائه صناعة المستقبل بالكيفية المفترضة والمرادة.

المتوقّع يسير في دائرة المتحقّق الذي يكون وجوده وصداه حاضراً في المنظور وغيره، وهذا بطبيعته يخلق حالة واضحة من وجود ثوابت يكون حضورها ممثّلاً لجانب مهم من جوانب صناعة المستقبل؛ فيكون هذا

الحضور استمراراً لهذه الصناعة حتى يمكن القول أنَّها تدخل حقل البديهيات التي يكون وجودها لا بديل عنه.

أمَّا غير المتوقّع؛ فيكون خاضعاً لنظرة استشرافيه باحثة عن كلّ ما من شأنه أن يكون مؤسّساً بطريقة أو بأخرى لصناعة مستقبل مطلوب وفي المواصفات الافتراضية التي وضعت عند بداية الاستنهاض، ولعلَّ البداية قد تكون مفتعلة في بعض جوانبها نتيجة التحسُّب المبالغ فيه إلّا أنَّه بمرور الزمن قد يكون هذا الافتعال ممثّلاً لكثير من الوقائع التي يمكن أن يكون لها شأنٌ آخر، فلا يكون هناك استبعاد لأيّ استنهاض وإن كان بعيداً عن السمات المتواجدة ضمن الدائرة الظنيّة الحاضرة في كلِّ حركة متّجهة نحو الاستنهاض.

عليه يكون استنهاض الخوف باعثاً لإيجاد قواعد جديدة تكون ملبّية لما يمكن أن يكون بديلاً عن الماضي، ودون الركون إلى كلِّ ما من شأنه أن يلغي التوجّه نحو المستقبل بافتراضات بالية وعقيمة لم تنتج إلّا ما يُعطّل الحياة ويجعلها تمرّ بأزمات متوالية.

إنَّ الحياة في كثير من تفاصيلها هي مبنيّة على استنهاض الخوف لصناعة مستقبل يكمن فيه الأمان المطلوب في كلِّ جوانبه؛ فمن ذلك نجد أنَّ المقررات التعليمية إن لم تكن مصاغة بمنهجية استنهاض الخوف لدى المعلمين والمتعلمين؛ فإنَّها ستفشل في تحقيق الغايات المرجوة لصناعة المستقبل، فإعداد كمّ من المعلومات الملبّية لاستنهاض الخوف، يكون موافقاً لما يمكن أن يكون منجزاً مستقبلياً، فالمقررات إنْ لم يراع في صياغتها استنهاض الخوف في أنفس المتعلمين لا يمكن لهؤلاء المتعلمين صناعة المستقبل المأمول منهم، حتى يكونوا من

المواكبين لحركات التغيّر والتقدّم التي هي دائماً في حالة تطوّر من عصر إلى عصر.

ولذا فإنَّ الخوف من أعظم النعم التي تحفِّز الإنسان وتدفعه إلى كلّ ما من شأنه أن يجنِّبه المخاطر والآلام والمظالم، ويجنِّبه الحاجة والعوز، ويُمكِّنه من بلوغ مشبعاتها والإقدام على تطورها وتطويرها، حتى المناهج التي رأينا فيها أن تكون ملبِّية لاستنهاض الخوف، هي متغيِّرة ومتبدِّلة، لأنَّ الخوف أيضاً متغيّر ومتبدّل، وهنا يكون الناس ضمن اتجاهين:

الاتجاه الأول: يكون منهم متتبِّعا لكلّ ما يسهم في استنهاض الخوف من أجل صناعة المستقبل؛ فتكون حركتهم واعية وتسير في مدارات تلبّي ما يطمحون في الوصول إليه؛ فتكون أدواتهم خاضعة لكلّ ما يصل بهم إلى التحقُّق المراد، حتى ردود أفعالهم تكون منتمية إلى أرضية واقعية التشكيل، فتمنحهم بعد ذلك حلولاً صحيحة كما يريدونها في كثير من الأحيان.

الاتجاه الثاني: المتفرجون الذي يراقبون كلّ ما يجري، فلا يحركون ساكناً وسيظلون يتفرجون ما لم يعرفوا عن يقين أنّ استنهاض الخوف ضرورة للفرد والجماعة والمجتمع، هذه المعرفة لا تأتي من فراغ، بل يكون السعي من أجل معرفتها هو مطلب مهم يمنحهم فيما بعد هذا المطلب نتائج غير متوقعة على كافة الأصعدة التي كان ينظر إليها أنَّها غير مهمة.

إذن من يستنهض الخوف في نفسه يتقدّم ويتطوّر حتى يصل به الأمر إلى أن يغزو الفضاء وهو يصنع المستقبل، وفي المستقبل أيضاً سيغزو ما لم نعرفه الآن في دائرة غير المتوقّع، ولهذا من يعلم بذلك لن يُفاجأ،

أمَّا الذين لا يعلمون فبالضرورة ستكون المفاجأة في أنفسهم عظيمة ويا ليتها تكون موجودة.

ويمكن التوقُّف عند مرتكزات مهمة في الحياة يكون استنهاض الخوف فيها السبيل إلى صناعة المستقبل المطلوب منها:

1 – الإعلام

يمثل الإعلام عصب الحياة الآن في توصيل المعلومة وبمختلف الوسائل، فالفضائيات والانترنيت والجرائد والمجلات والاتصالات بأنواعها، تخلق حالة من الصيرورة المطلوبة في توجيه الناس نحو أفكار مختلفة يكون الالتقاء عندها هاجساً من هواجس البحث المطلوب؛ فالناس مشدودون إلى هذا الإعلام بكيفيات مختلفة؛ فعند توظيفه بالطريقة التي يتمّ فيها استنهاض الخوف، يكون التفاعل متحقِّقاً وملبّياً لما يمكن أن يكون مساهماً في صناعة المستقبل.

إنَّ الحياة تسير نحو الأمام بطرق مختلفة؛ فتكون الارتباطات المختلفة مدعاة لبناء ركائز يكون من ورائها تحقيق الكثير من التوجهات التي تكون أكثرها قائمة على اختزالية واضحة، فالإعلام في هذه المواقف يستنهض الناس نحو المتحقِّق وما سيتحقّق؛ فيكون الترابط الحاصل منتمياً لكلّ ما يكون باعثاً لامتدادات تكون موافقة للبداية التي يتمثّل فيها الانطلاق الأوّل، والإعلام يسمح بوجود فسحات كبيرة يكون من خلالها الوصول إلى المبتغى المراد، حتى أنَّ الناس جميعاً يختلفون في استقبال المعلومة، ممّا يسمح بوجود تفاوت، لذا تكون المعلومة محصورة بين أمرين:

الأمر الأول:

مصدر المعلومة الذي تكون عنده نقطة البداية، إذ يعرض معلومته بطريقة تنمّ عن وجود امتدادات مستقبلية مرتبطة بالمعلومة، فكلّ الوجود الخارجي القابل لاستلام المعلومة هو يرتبط بها بطريقة أو بأخرى، ممّا يحمّل نقطة البداية تبعات الصحة التي يجب أن تكون، لأنَّ ما سيحصل في المستقبل بكلّ ثوابته ومتغيّراته وتداعياته مرتبط بالبداية التي يُنظر لها دائماً أنَّها الأساس الذي لا بديل عنه.

الأمر الثاني:

مستقبل المعلومة المرتبط باستنهاض الخوف لا بدَّ أن يمتلك نوعاً من التكيّف مع هذه المعلومة، وهذا الأمر لا يكون وفق امتداد واضح عند كلِّ الناس، بل يكون التفاوت حاضراً ممّا يطرح وجود نهايات متفاوتة أيضاً؛ فالمستقبل المطلوب قد لا يبدو متحقّقاً حين يكون التفاوت حاصلاً.

والإعلام يمكن أن يكون له دور فاعل حين يضع المستقبل أمام الناس جميعاً بالطريقة الافتراضية التي تجعل منه واقعاً أمام العين، وذلك من خلال إيجاد تشكيلات شاخصة تطرح المستقبل كأنّه حقيقة ماثلة، وهذا الأمر نراه في كثير من الأحيان حين نشاهد نماذج من المشاريع الضخمة أو المجمعات السكنية أو التجمعات السياحية قبل أن يتمّ تنفيذها، فمجرد أن نرى شكلها الافتراضي على طاولة العرض، نستشعر أنّ الخوف كان حاضراً منذ البداية من أجل أن يكون هناك حلاً لمشكلة السكن أو لمشكلة العاطلين عن العمل.

2 – المراكز الدينية

تتمثل المراكز الدينيّة بمنابر المساجد والكنائس التي يكون الالتفاف حولها طواعية، فيكون استنهاض الخوف ذو فاعلية واضحة؛ فحضور الناس بهذه الطواعية يساهم بشكل أو بآخر في صناعة المستقبل، لأنَّ استنهاض الخوف الذي يصدر من هذه الأماكن الدينية، يكون استقباله غير قابل للمعارضة الذاتية أو حتى للمعارضة الظنيّة؛ فيحصل بذلك استنهاض الخوف المطلوب الذي يفضي إلى صناعة المستقبل المراد.

والمنبر الديني يمثّل في جميع البلدان مركزيّة واضحة يلتفّ حولها الناس، فصوته لا يُعلى عليه وإن تكاثرت المراكز التي تظنّ أنَّها تمثّل صوتاً مسموعاً؛ فيكون الطرح الديني منتمياً إلى تفريعات عدّة أهمها:

الجانب الدنيوي:

يمثّل الجانب الديني حالة مهمة لأنّه ينظّم حياة الناس ويمنحهم ترابطات متنوّعة تكون سبباً في كثير من التنظيمات التي تمنحهم أبعاداً واضحة في الحياة، والناس يتوسّلون بالجانب الديني من أجل أن يكون حصنهم المنيع في هذه الدنيا، ذلك أنَّ الحقوق والواجبات والمسؤوليات لا تصل إلى درجة التحقيق إلّا من خلال الدين، لأنَّ بقاء الأمور وفق اجتهادات وآراء خاصة تثير الفوضى ويخلط الحابل بالنابل، وتسير الأمور في متاهات لا يُعرف لها بداية أو نهاية.

هذا الجانب تكمن فيه الحلول الدنيوية، لكن هذه الحلول هي غير منقطعة عن الآخرة؛ فهي تمثّل امتداداً لها، ولهذا سنجد في الجانب

الآخر في المرحلة الثانية التي لا تنفكّ عن الجانب الدنيوي ما يوازي هذه الحلول بدافع الخوف من الآخرة.

الجانب الأخروي:

يمثّل الجانب الأخروي امتداداً للجانب الدنيوي، لأنّ كلّ الأوامر والنواهي التي كانت مفروضة في الدنيا، كانت تتضمن ما تكون عليه النهاية حين يكون الخروج عنها حاصلاً؛ فالدعوة إلى الصدق مثلاً، لا ترتبط بالدنيا فقط، بل إنَّ نتائجها تكون في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا يكون الصدق معياراً لتوجيه الناس نحو ما يحقّق لهم السلامة والآمان، ويكفل لهم البقاء عند الحدود الصحيحة التي يكون من ورائها النجاة، أمّا الكذب والافتراء؛ فلا يكون مصيره إلّا الخذلان في الدنيا والآخرة؛ فيكون استنهاض هذه المعايير مثلاً باعثاً إلى إيجاد حالة من التصحيح تكون نتائجها في الدنيا والآخرة، هذه الاستمرارية الحاصلة في استنهاض الخوف من قِبل هذه المنابر لا تنقطع أبداً حتى تصل الحياة الدنيا إلى نهايتها، وذلك لأنّ الناس أخطاؤهم لا تنقطع؛ فيكون الارتباط حاصلاً ضمن هذه التناوبية المستمرة.

إنّ استنهاض الخوف هنا قائم على إيجاد مستقبل قائم على الأوامر والنواهي فمن خلالهما يتحدّد المستقبل المطلوب؛ فتكون صناعة المستقبل قائمة على هذا الاستنهاض المستمر الذي يكون من خلاله وجود رؤية واضحة المعالم، قد يكون الخروج عنها حاصلاً، إلّا أنَّه في البداية لا بدَّ أن تكون الرؤية خاضعة للتصحيح المطلوب الذي يكون مطلوباً كي يحقِّق صناعة المستقبل.

لذا نجد أنَّ التفاف الناس حول المراكز الدينية فيه رؤية مستقبلية يرونها دائماً في عقولهم وعواطفهم، فيلتفّون حولها من أجل إظهار التعلُّق الذي يمنحهم ترابطاً قوياً، يمثّل لهم دفعة تجديدية في مواصلة مشوارهم في هذه الحياة؛ فالناس يبحثون عن أسس تضفي عليهم امتداداً جديداً يسمح لهم بتملّك أمل جديد يكون من ورائه استمرارية تدفّقية تصل بهم إلى نهاية معاكسة لأفعالهم الخارجة عن كلّ الدوائر الإيمانية، والتقاطع في هذه المراحل غير وارد، كونه يشير إلى توقّف غير مرغوب فيه أو غير مطلوب حقيقة، لأنّ التوقّف يجعل من هذه المراحل آنيّة وهذا مخالف للبداية المرادة وحتى للنهاية، لأنّ كلّ الأسس في البداية مبنيّة على وجود مغايرات متحقّقة، وتحقّق هذه المغايرات يحتّم على هذه المنابر البحث المستمر عن استنهاض واعٍ يمتلك كلّ الأدوات التي يكون من شأنها أن تصنع المستقبل المطلوب، ولهذا نحن نجد أنَّ هذه المنابر بتنوّعها لم تكن في يوم من الأيام بعيدة عن الساحة الإنسانية في كلِّ تفاصيلها.

وصناعة المستقبل تمثّل حالة تتويجية لاستنهاض الخوف، هذه الصناعة تستند إلى مجموعة من الافتراضات التي تساهم بشكل أو بآخر في وجودها، لكن هذه الافتراضات ليست بمجملها منتمية إلى فضاءات غير حقيقية، بل إنَّ الكثير منها ينتمي إلى الواقع المعاش الذي يكوّن لها أحد السبل في صناعة المستقبل، ولعلّ التكرار الحاصل في النسق الإنساني يشير إلى هذه السبل التي تكون كفيلة في إيجاد ما يحقّق الصناعة المطلوبة؛ فالتكرار الحاصل يشير إلى أنَّ الحياة فيها

من المتماثل ما يستمر وبدون إزاحات داخلية أو خارجية، ومنها ما يظهر فيكون باعثاً إلى إيجاد ما يمنحه مكانة في هذا العالم الكبير.

إنَّ استمرارية استنهاض الخوف من أجل صناعة المستقبل تمرّ بتعاقبات متباينة؛ فتثير ما يمكن إثارته في سبيل خلق ديمومة لهذا الاستنهاض، ذلك أنَّ الاستمرارية التي نقصدها، هي استمرارية تتابعيه، لا تنفكّ أبداً عن المتابعة بكلِّ أشكالها، وذلك في سبيل أن لا تصل نقطة الافتراق بعد ذلك إلى طريق مسدود، وهنا يكون الامتداد مطلوباً، لأنّ السعة المعرفية تحتاج إلى أمكنة مختلفة يكون فيها الظهور أحد الأسس المطلوبة.

إنَّ استنهاض الخوف يمثّل رسالة واضحة المعالم للناس جميعاً، ذلك أنَّ حصول استنهاض الخوف يجعل إحساس الناس بالمخاطر عالياً، وهنا لفظة (عالياً) توحي بتدفّق الكثير من الصفات التي يكون من ورائها حصول الاستنهاض، فمن خلال ذلك يكون التحسُّب والحيطة والحذر وغير ذلك من الألفاظ التي تشير صراحة إلى تحقّق استنهاض الخوف.

يطرح هذا التعدّد الصفاتي وجود استقبال حقيقي من الناس لهذا الاستنهاض، حتى أنَّ وسائل الاستنهاض المختلفة ظهرت وتظهر فعالياتها في هذا التحقّق، ممّا يعني وجود ارتباط حاصل بين هذه الامتدادات الاستنهاضية؛ فيتشكّل بعد ذلك مستقبل قائم على صناعة موافقة للاستنهاض الذي قام به الخوف، فتكتمل الدائرة ضمن هذه التتابعية، ممّا يجعل الحضور الكلي موافقاً للعملية الاستنهاضية كونها ملتّفة حول هدف واحد تسعى جميع الأطراف إلى تحقُّقه.

ومع أنّ الحياة تتشكّل من مجموعة من التناقضات التي يكون حضورها حاصلاً، لكن ليس بكيفية طوعية من تلك الشدائد التي يتعرّض لها الإنسان، ما يجعل حصولها خارج الإرادة البشرية، وهنا تتعاظم الأمور وتصل في كثير من الأحيان إلى درجة الهلاك التي تكون من بعدها الأمور في غياهب لم تكن بالحسبان؛ فيكون دور الاستنهاض حاضراً في مجابهة هذه الشدائد، والنظرة إلى الشدائد ليس من باب كونها حاصلة في هذه الآنيّة، بل من باب أنَّ امتداداتها وتبعيتها المختلفة، ستكون في المستقبل حاضرة أيضاً، ولهذا يكون استنهاض الخوف ملبّياً في كثير من الأحيان لهذه المعالجة المطلوبة كون وقوعها يشير إلى نهايات غير مطلوبة أبداً، فيكون استنهاض الخوف هو البداية المطلوبة التي يكون من بعدها إحداث صناعة للمستقبل، فتمكّن هذه الصناعة من إيجاد حلول وبدائل لتلك الحلول، وهنا تكون الأمور في غاية الصعوبة، لأنَّ وجود البدائل يعني أنَّ الحلول الموجودة والمقترحة غير كافية، وهذا يطرح وجود مفاجأة لم تكن بالحسبان.

إنّ الشدائد التي يتعرَّض لها الإنسان تخرج في كثير من الأحيان عن طاقته الاستيعابية التي تكون من خلالها مواجهة ما يحصل، وهنا يكون الاستنهاض مبنياً على هذه الاستيعابية، فيؤسّس من خلالها لكلِّ المراحل المستقبلية التي يكون الحلّ بها، ولعل البدايات الأولى لهذا الاستنهاض تكون غير موفّقة، إذ يكتنفها تعثُّر واضح نتيجة حصول فهم خاطئ أو إدراك غير واعٍ، فتكون النتيجة موافقة لهذه البداية.

عليه يجب أن تكون البداية متماشية مع المستقبل المراد في حركة أشبه ما تكون بالتحفيزية التي تفتح الطريق أمام كلّ الحلول الناجعة، فالتبعثر

غير مطلوب، لأنّه يؤسّس لحلحلة غير موفّقة، فتكون النتائج المتوخاة ضعيفة؛ فتُسلب كلّ الحلول وحتى البدائل التي تظهر ممّا يطرح وجود خرق وراء كلّ ما يحصل.

وعليه: تمثّل صناعة المستقبل هاجساً للإنسان الواعي، فرؤيته للمستقبل تكون وفق دراسة علمية قائمة على استنتاجات وافتراضات تقوده نحو البحث عن هذا المستقبل، إلّا أنّ الدافع الرئيس لهذا الهاجس المستمر هو وجود خوف دائم من كلّ ما يحيط به، وبخاصة من المنافسين له في المجالات التي تُعدّ من مرتكزات الحياة المهمة، هذه المرتكزات بامتلاكها يستطيع الإنسان أن يكون من الذي يمتلكون زمام قيادة هذا العالم، فالدول المتقدّمة لديهم من المرتكزات ما تَحقّق قبل وقته نتيجة التفكير المسبق به وحتى تحقيقه، أمّا تفكيرهم في اليوم نفسه؛ فهو منصبّ على المستقبل وما يجب أن يكون وفق رؤيتهم إليه، وهذا الأمر يدعونا إلى إعادة النظر من أجل البحث ومواصلة الوقوف في أماكن جديدة، نكون فيها عند مرحلة جديدة، نستطيع من خلالها المواصلة والديمومة وإن كان الحضور في كثير من الأحيان بعيداً عن الطموحات المرجوة.

إنَّ استنهاض الخوف يسهم في جعل صناعة المستقبل متوافقة مع الماضي، لأنَّ الماضي هو المؤسس للمستقبل، والمستقبل هو الحلّ لكلّ منغصات الماضي، لذا نجد أنَّ هذه العملية مرتبطة بعضها مع بعض في حالة مستمرّة، ممّا يطرح وجود ارتباط لا بدّ من أن يكون دائماً بالحسبان، لأنَّ التشكيل العام للحياة ينذر دائماً بوجود هذا الارتباط، ممّا يكفل بوجود نهاية ملبِّية للبداية التي كانت سبباً في صناعتها.

الخوف ومنبّهاته على المخاطر

يحيط بالإنسان مخاطر متعدّدة يكتنفها حالة من البعثرة المتضادّة التي تحاول أن تجد لها مكاناً يمنحها ثباتاً دائماً، لكن هذا الثبات لا يمكن له أن يتحقّق، ذلك أنَّ الانفتاح الظنّي يخلق حالة من البحث المستمرّ في سبيل أن يصل إلى مديات متعدّدة ومتنوِّعة تكوّن بمجملها حالة من الانبعاث المتواصل الذي يحاول أن يقف على تبعات الأشياء المختلفة، فيكون لها قارئاً متفحّصاً يحاول أن يفسِّر ويحلل كلّما يصل إلى المرحلة التي يستطيع أن يضع البدائل لكلِّ من أخفق في تحقيق المراد منه، وهنا تكون الإدراكات فاعلة في اقتناص ما يمكن اقتناصه في سبيل خلق سور متين يكون ملبياً لكلّ القراءات التي كان الخوف مصدرها، وتظهر الاستجابة الكليّة التي تصدر عن الفرد في المواقف المختلفة، وهذا يدل على أنَّ السلوك المتحقّق يطرح استجابات متعدِّدة ومتنوِّعة تابعة للمنبّهات التي كانت سبباً في هذه الاستجابات، فتكون الاستجابات هنا ردّاً على المنبّهات، ذلك أنَّ كلّ الأفعال التي يمكن أن نقوم بها قائمة على منبهات؛ فالمنبهات وإن كانت تحتاج إلى استجابة كي تتحقّق، إلّا أنَّها كما نعتقد تثير الفضول للوصول إلى الغاية التي يكون فيها المجهول حاضراً، فطرق الباب مثلاً صحيح أنّه منبّه إلّا أنّ الفضول يكتنفه في معرفة من خلف يكون الباب، ولو كانت الاستجابة كافية، لكان فتح الباب غير ملزم في بعض الأحيان.

تتعدّد المنبّهات ضمن تفريعات تجد صداها واضحاً في التشكيل العام للحياة، فيكون الاختزال الذي يحصل منكفياً على شروط افتراضية ناتجة

عن تأويلات تتّسع وتضيق بحسب القراءة الحاصلة، وهنا يكون الارتماء باعثاً على إيجاد منحة جديدة تتكاثف من أجل أن تشكّل صور جديدة منتمية إلى الجذور الأولى، وهذا الأمر برمّته يسعى إلى الوصول إلى الحدّ الذي يكون فيه المنبّه متحقّقاً بالكيفية التي يجب أن يكون عليها.

ويطرح الخوف منبّهاته بأساليب وأشكال وتصورات مختلفة، فيخلق بذلك حالة من اليقظة المرتكزة على أسس واضحة المعالم، والأمر الذي يكون هنا هو الانفتاح المتعدّد، ذلك أنَّ تعدّد المنبّهات يوحي بالفعالية التي يكنّها الخوف في مواجهة المخاطر، فتسقط السلبية المزعومة للخوف التي يرى فيها البعض تحقّقها ممّا يؤدّي إلى خلق بعثرة في الأفكار التي من الممكن أن تؤدّي إلى اتخاذ موقف ثابت لا يمكن زحزحته،لأنّه سيمثّل بمرور الزمن تراكماً ينقاد له الكثيرون بدون وعي أو بدون إدراك علمي.

إنَّ تعدّد المنبّهات الحاصل يثبت وجود تجديد مستمرٍّ بالحياة؛ فالمخاطر تتعدّد وتتنوّع دائماً ضمن سمة تطوّرية، لأنَّ الحياة بمجملها لا تكون دائماً على وتيرة واحدة، إذ يظهر فيها المُحدَث الذي يحمل من بين ما يحمل الخطر، وهنا يكون الخوف مواكباً لأيّ جديد يظهر، فتكون فاعليته منقادة نحو استحصال استدعاءات متكررة يُبنى على أساسها إصدار المنبّهات التي تكون في كثير من الأحيان كفيلة في إيجاد أرضية متينة لدرء ما يمكن درءه من هذه المخاطر، ولعلّ التحديث المستمرّ لا يكون نابعاً من كيفية عشوائية ملبّية لآراء شخصية تقود هذا التحديث، بل إنَّ هذا التحديث يستند على قراءات علمية تقف على السبب والمسبب، ثمَّ بعد ذلك يكون رأيها ملبّياً ومستوعباً لكلّ ما

يحصل؛ فيكون التنبّيه الصادر باعثاً على الاستدراكات التي من شأنها أن تنظر لوجود المخاطر بالكيفية التي تعطي الأبعاد الواضحة، فتكون الصورة المستقبلية حاضرة بجميع أبعادها، وهذا يمكن أن نعدّه من النظرات الاستشرافية العلميّة الصحيحة المبنيّة على أسس صحيحة.

الخوف حالة إدراكية وإن كان منبثقاً من العاطفة الإنسانية، لكنّه يحفّز على التحسُّب للمخاطر من خلال تنبيه العقل الذي ينظر إلى امتدادات المخاطر التي يبنى عليها أساسات وتبعات كثيرة تحسّبية ووقائية، وهنا نجد أنَّ الارتباط الحاصل بين الخوف والعقل هو حالة إفضائية يكون على أساسها حصول استمرارية لدرء المخاطر عن الإنسان ، إنَّ هذا الافضاء يوحي بوجود مراحل باعثة في مواجهة المخاطر، فإدراكية الخوف تكون غير فاعلة في حالة التوقّف على الإدراك والبقاء عنده، بل لا بدّ من إيجاد مرحلة أو انتقالة جديدة يكون على أساسها الوصول إلى التشكيل الصحيح الذي يكون من ورائه استظهار المنبّه الذي بدأه الإدراك الأول وهو الخوف.

وتساهم التحسّبية والوقائية في استنهاض القدرات، ذلك أنَّ القدرات كامنة في جوانب الحياة المختلفة، والذي يُرى في الحياة وجود قدرات ظاهرة وباطنة، هذه القدرات تظهر فاعليتها في معالجة ما يحصل من كلِّ طارئ؛ فتكون المعالجة منقادة إلى التنبيه الذي منحها الاستيقاظ، ففي التنبيه كلّ التفصيلات التي سيكون من خلالها تأسيس المعالجة الافتراضية، لأنَّنا نجد في التنبيه القراءة المستقبلية التي كان البناء فيها خاضعاً لادراكات الخوف، وهذا يطرح الشمولية التي يجب أنّ تكون عليها لأنَّ الخوف في كلّ تحفيزاته على التحسُّب، يرسم المنظور

المستقبلي العلاجي الذي يسيّر الحياة وفق آليات تعمل على تجاوز كلّ ما من شأنه أن يكون باعثاً على المخاطر، وهنا تكون البداية ناتجة عن إرهاصات حاصلة منحتها حركة فجائية، لكن هذه الحركة ستكون منطلقاً للوصول إلى التنبيه الذي يمنحها استجابةً لا مفرّ منها، وهذا ينقل الأمور انتقالات متعدِّدة تفضي إلى إيجاد الدرء المطلوب.

وتشكّل الحياة بطبيعتها حالات متعدِّدة من الافتراضات التي تكون معظمها مبنية على إحالات حاصلة، وأخرى من باب التوقّع الذي يمكن أن يجد صداه في بعض الأحيان، ولعلَّ جانب الخوف يمرُّ بهذه الثنائية التي يكون فيها وجوده متحقِّقاً، ذلك أنّ كلّ الاستدراكات التي يمكن أن تحصل، تنساب من تبعية قصديّة وغير قصديّة، وهذا يخلق حالة من التفاوت التي يتناوب معها الكثير من الإحالات التي تشكِّل فيما بعد قراءات واضحة المعالم.

إنَّ البحث عن انساق متعدِّدة لكلّ ما يجري، يلبي إدراكات الخوف في إنتاج تنبيهات مواكبة أو عاكسة للخوف؛ فالخوف يتبنّى هذه التنبيهات كي يصل إلى المبتغى الذي يرمي إليه، وهنا يمكن أن نقول أن لدينا ثلاث مراحل تتابعية، هي:

1 – الخوف.

2– التنبيهات.

3– المخاطر.

الخوف من خلال إدراكاته يحاول أن يصل إلى بلورة تنبيهات واضحة المعالم فيها يكمن الدرء، ذلك أنَّ الانتقال إلى المرحلة الثانية لا يمكن أن يكون وفق اعتباطية مرادة، بل إنَّ المراد هو استظهار واستبطان كلّ

ما هو ملبياً للانتقال أولاً، ولخلق مرحلة أخرى جديدة ثانياً، وهنا يكون الانتقال موسوماً بتفريعات متعدِّدة تحاول أن تصل إلى كلِّ الجذور التي يكون من ورائها استمداد الأصول الصحيحة التي تعين في استيعاب الواقع بكلِّ تفصيلاته، ومن ثمَّ بناء التنبيهات المرادة.

إنَّ التنبيهات تمثّل المرحلة الثانية التي يكون التأسيس لها مرحلة مهمة، ذلك أنَّ كلّ ما سيأتي بعدها سيكون مبنيّاً عليها، فاتّساع دائرتها بالشكل الذي يمنحها توافقاً كلياً مع البداية المفترضة يفضي إلى طرد كلّ التكهنات التي يكون من ورائها إحلال التنبيهات منزلة بعيدة عن البداية الأولى.

عليه: تكون التنبيهات حالة استيعابية للخوف من جانب إدراكي، وهنا نرى أنَّ الفاعلية المتاحة لهذا الإدراك تفضي إلى إرساء ثوابت قابلة للتناوب، ممّا يسمح بوجود مطاولة في الوصول إلى المرحلة الثالثة التي نرى فيها تتويجاً لكلِّ الانتقالات الحاصلة؛ فالوقوف على الكيفيّة يجعل المخاطر في غياهب الماضي وهذه هي النهاية المرادة.

إنَّ الانتقالات التي أجزناها كما نعتقد هي ممثِّلة لحاجة واقعية، فالذي يحدث في الحياة مراراً وتكراراً يوجّه الخوف بحالته الإدراكية إلى اتخاذ مواقف عقلية وعلمية لكلّ ما يحدث في الحياة؛ فالكوارث الطبيعية التي نرى حدوثها دائماً بالعين المجردة أو بالعدسات المختلفة، توجب على الإنسان إيجاد حلول أو بدائل لكلّ ما يساهم في تفادي هذه الكوارث، هذا الواقع يسمح بإعادة إنتاج نفسه بفاعلية جديدة من خلال الاتكاء على الخوف كعنصر باحث عن حلّ لكلّ ما يحصل، وهنا يظهر

الخوف المؤدّي إلى حلّ فاعلاً يستطيع أن يحسم الكثير من طموحات الفرد والجماعة التي تبحث عن حلّ لِما يحيط بها من مخاطر.

إذن تشكّل الطموحات الإنسانية الواعية بأنواعها المختلفة حافز لإيجاد الحلول التي يكون مكمنها واقعاً في تنبيهات الخوف؛ فالخوف رغم تحقّقه في النفس الإنسانية، إلّا أنَّه يتّسم بالتناوب، فلا يكون بالكيفية المتساوية التي يكون فيها اتفاق واضح في الإجراءات التي يمكن أن تكون هي نقطة الشروع في البحث عن حلّ، هذا الأمر يُظهر التفاوت الذي يمكن أن يكون عارضاً وقتياً ويزول بزوال الضبابية التي يمكن أن تنشأ نتيجة عدم الوعي بما سيكون في المستقبل، إلّا أنَّ النظرة العامة تشير إلى أنَّ المنبّهات تكون منطلقة بشكل واضح وجليٍّ من البداية التي تتعاظم فيها الأمور، فتصل بذلك إلى درجة لا يمكن الانزواء عنها أبداً.

الخوف شعور استطلاعي

يقف الخوف أمام اتساع كبير من المخاطر، والمخاطر بطبيعتها تتفاوت في الظهور، وهذا يملي على الطرف الآخر المتمثّل فيه الخوف إيجاد وسائل متعدّدة ومتنوّعة في سبيل الوقوف على الحقائق العامة والتي بظهورها يتّضح الكثير من الافتراضات والتأويلات والتوقّعات؛ فتكون مهمة الخوف من خلال هذا التشعُّب استطلاعية، ونحن إذ نشير إلى الاستطلاعية؛ فهذا من باب الاتساع الواجب تحقُّقه كما نعتقد، لأنَّ الاستطلاع يسبق وقوع الفعل المحقِّق للألم؛ فيؤدّي إلى تجنُّب المحذور، والشعور هو ما ينتاب النفس من أخيلة قد تصدق على الواقع أحياناً وقد

لا تصدق عليه، ومردّ هذا الاستطلاع إلى الخوف الذي أثار الشعور بما يمكن أن يترتّب عليه من مكاره تلحق الأذى بالإنسان، لذلك كان هذا الشعور بمثابة استباق للحدث والتنبيه على ما يمكن أن يحدث ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع للتحصين ضد المكاره التي يمكن أن تحدث.

ولذا فالاستطلاع يولّد ثباتاً في الأفكار التي يمكن أن تدخل دائرة البحث، وذلك من خلال التعرُّف عليها، ومحاولة إيجاد الحلول لها من مصادر متعدِّدة؛ فيكون بذلك الأمر قد خرج من التقليدية التي يمكن أن ينزوي تحتها ودخل معترك جديد يجد نفسه فيه بتنظيرات جديدة وبإحالات جديدة؛ فيتولّد عنده استشعار دائم بوجود الاستطلاع، ومعرفة المجهول الذي يلتفَّ حولنا وحول كلِّ مصادر الألم التي تتناوب علينا.

عليه يكون الاستطلاع حالة إدراكية نابعة من الخوف في سبيل الوصول إلى استشرافات جديدة غير التي نعتقدها سابقاً أو نفترضها ضمن حدود الافتراض الذي نجد من خلاله الحلّ؛ فيكون لدينا الاتساع العام الذي يربطنا بتقنيات جديدة تتعالق مع الاستطلاع؛ فيصبح الترابط حاصلاً بينهما لإيجاد توافقات تمنح التنبيهات روافد جديدة تعينها على اكتمال فاعليتها، فيكون التنبيه في مثل هذه المواقف المكتملة التي نراها بحسب نظرتنا واقياً من أيِّ مصدر من مصادر الألم.

ونتيجة لاتساع مهمة الاستطلاع؛ فإنّه يحتاج إلى أدوات متعدِّدة ومتنوِّعة كي يقوم بالمهمة على أحسن وجه، وهذا بطبيعة الحال يحتاج إلى تشعبات معرفية تجد صداها حاصلاً في البدايات التي كانت منطلقاً لها؛ فتكون الأمور في هذه الحالة مرتمية في أحضان مواكبة لكلِّ

العمليات المطلوبة، فيحصل لدينا نتيجة هذا التشعب، مصادر متعدِّدة نرى فيها الشمولية التي يجب أن تكون، ذلك لأنَّ الحياة مخاطرها تتكاثر يوماً بعد يوم، وربما تضاف مخاطر جديدة غير التي كنّا نعدّ العُدّة لها، وهذا يحتِّم علينا أن نجدِّد تفكيرنا ومعارفنا في محاولات دائمة للوقوف على ما يمكن أن يحدث وفق أية دائرة من الدوائر التي نتوقّعها، فسياق الحياة يطرح الكثير من الاختلافات والاتفاقات التي تتكرر، ممّا يولّد حالات نلمح فيها التمايز الحاصل، فنسارع إلى البحث عن معالجات فورية تكون هي المنقذ الأوّل أو ربّما تكون نقطة البداية للتعرّف على مصدر الألم وعلاجه.

ولأنَّ الخوف يدفع المخاطر إلى العقل فينبّهه إلى ما يجب كي لا تقع إلاّ أنَّ هذا التنبيه هو تنبيه إرادي، فما تفعله الإرادة لأن يختار العقل أفضل البدائل، غير الذي تدفعه الإرادة إلى أسوئها، فمن يتخذ أفضلها يأخذ بأسباب النجاة ويحقّق غاية الخوف بإحلال السكينة محلّه.

عليه يكون هذا الإحلال باعثاً للإنسان على عدّة أمور منها :

- يمكّن الإنسان من استشعار المخاطر.
- يدفعه إلى البحث عن الحلول.
- يمكِّنه من اتخاذ القرار بوعي.
- يمكِّنه من الإقدام وتحمّل ما يترتّب عليه من أعباء.

لذا يكون الخوف منبِّهاً على المخاطر قبل أن تقع ممّا يجعل العلاقة وثيقة بين ناقوس الخطر والاستشعار به خوفاً وقبل وقوعه.

ولذا (فمن خاف سلم كما يقولون) أي من لا يحسب لا يسلم.

هذه المقولة التي تداولتها الألسن تطرح وجود ثوابت في الوعي الإنساني قائمة على إيجاد بُعد في النظر لما يجب أن يكون، وذلك وفقاً لقراءات تحصل نتيجة الاستمرارية التي تسير مع الإنسانية؛ فالخوف بحالته الاستدراكية يطرح تنبيهات متعدِّدة تتَّبع ما يمكن أن يحدث ضمن امتدادات إنسانية متشكِّلة على كلِّ التبعات التي يمكن أن تحدث، ولعلَّ الاستمرارية التي نراها، ما هي إلّا وجود ترابطية حاصلة بين جميع البشر رغم التفاوت الذي يمكن أن يكون بينهم أحياناً، ذلك أنَّ النسق الإنساني بتنوُّعه يحتّم هذه الاستمرارية كي يخلق حالة من التآلف الإنساني تكون مفضية إلى وجود تتابعيّه تمنحها مديات متباينة.

إنَّ الاستمرارية التي نؤسّس لها، هي استمرارية توافقية تحاول أن تلملم كلّ ما تجده أمامها في سبيل أن تمنحه ارتباطات واضحة المعالم، وهذا يلبّي التفاعل الحاصل بين أطراف عدّة، ترى نفسها ملبِّية لكثير من النظرات التي يكون الوقوف عندها مدعاة لبناء تنبيه واع من المخاطر التي يمكن أن تحصل.

أمّا تعدّد الحلول وتحقُّقها في كثير من المواطن؛ ففيها إشارة إلى وجود استبدالات استطاعت أن تتناوب بما يناسب المخاطر التي كان يُرى لها حلّ أمثل أو الحلّ الذي لا بديل له، هذه العملية تفضي إلى وجود مرونة في الكيفية التي يتمّ بها الوصول إلى الحلّ المرتقب، ممّا يمنح التفكير وقفات آنية تكون عند أعتابها البدائل المنتظرة التي يكون حضورها ملبِّيا للتشكيل الأوّل الذي افترقت عنده الحلول في لحظة قد تكون صفرية، إلّا أنّها تجاوزية استمرارية.

عليه يكون تعدّد الحلول باعث على وجود ارتباطات متعدِّدة ومتنوِّعة تستطيع أن تخلق منبّهات قادرة على تفادي الخطر، ومن ثمّ إزالته باتساع عملي وتنظيري يفتّت الحواجز ويخلق صيرورة مستمرّة تتناغم مع المراد؛ فتكون الأمور بعد ذلك سائرة نحو توافقية بينية تجد الحلول، ومن ثمّ تجد لكلّ خطر حلّ وفق الزمان والمكان ممّا يفضي إلى وجود نظرة استشرافية قائمة على:

- قراءة صحيحة.
- فرز صحيح.
- ربط صحيح.
-إحالة صحيحة.

هذا التشكيل يتَّسم بديمومة باعثة على إيجاد تباينات ظاهرة، يكون من ورائها طرح البدائل المناسبة؛ فوجود البدائل يحيل إلى وجود خلخلة وقتيّة لم تستطع أن تأخذ دور الحلّ الشمولي الذي يكون من بعده الإزاحة الكاملة للبداية المفترضة، فالإزاحة ما هي إلاّ تأصيل للحلول التي يجب أن تنتهج، لكن ليس بشكل واحد يأخذ دور الثبات الدائم، بل بأشكال مختلفة تكون ملبّية لكلِّ المغايرات التي يمكن أن تحصل، وهذا الأمر يثمّن دور القراءة الواعية التي تكون على مستوى عالٍ من الإنتاجية الفكرية التي تطرح في الوقت نفسه الحلّ حلّاً.

والوعي الذي يرافق اتخاذ القرار لا بدّ أن تكون الشمولية الافتراضية حاصلة فيه، لأنَّ الشمولية بمدياتها المختلفة تطرح التراتبية المطلوبة ضمن خطوط متوالية، كلّ واحدة تفضي إلى الأخرى، لتخلق بعد ذلك تبعات تحفيزية تساهم بشكل أو بآخر في استدراج كلّ ما يخلق وعياً

حقيقياً بالمخاطر التي يمكن أن تتحقّق على مستوى المتوقّع وغير المتوقّع، وهنا يكون التنبيه الحاصل مبنياً على وعي كلّي يستطيع أن يجد مكانه الافتراضي في المستقبل المفتوح دون أيِّ عائق يحيده عن أداء مهمّته المرتقبة.

ويستمرّ ظهور المنبّهات المتعدِّدة والمتنوِّعة على المخاطر وبكيفيات مختلفة، وهذا يطرح بطبيعة الحال، التفاعل الإنساني مع المستقبل وما يتحقّق منه وما لم يتحقّق؛ فيكون هذا الطرح مدعاة لتحقّق استجابات متفرِّعة تحمل معها المظانّ التي تكون دائمة متبصّرة بالماضي والحاضر والمستقبل، فيستحيل المستقبل دائماً إلى واقع افتراضي يكون حدوثه واقعاً بلا محالة، وهذا يخلق تداخلاً حقيقياً بين الماضي والمستقبل نتيجة التماثل التحسُّبي الذي جمع بينهما، فيكونان ضمن نمط واحد وتشكيل واحد، ولذا فما حصل وسيحصل من مخاطر على جميع المستويات، هو بعيد كلّ البعد عن الوصول إلى تسميته بالكارثة المحدقة بالناس، وذلك لأنَّ منبّهات الخوف غلّفت كلّ هذه المخاطر بأحزمة متعدّدة من الآمان كانت كفيلة بإيجاد الاستيعاب الصحيح الذي يلبّي كلّ الامتدادات التي ستحصل، والتي ستكون كفيلة بخلق توازنات حقيقية تستند إلى إشارات البداية التي وقف عندها الخوف، ومن ثمّ طرح منبّهاته التي يكمن فيها درء المخاطر باتساع واع يلبّي كلّ طروحات المراحل المختلفة التي يكون من بعدها الوصول إلى المبتغى المراد.

عليه يكون الخوف ومنبّهاته على المخاطر حالة من الامتدادات الإنسانية في معالجة مخاطر المستقبل؛ فيسقط بذلك المجهول المفترض

للمستقبل ويحلَّ بدلاً عنه المعلوم الذي وصل إلى درجة المشاهدة التي يمكن تحقّقها وفق المنظور التخيلي. أمّا ما يتعلّق بالاستجابة المطلوبة، فلا بدّ أن تكون الاستجابة تتّصف بالمرونة، ذلك أنَّ كلّ الأحداث الحاصلة تطرح مغايرات كثيرة تكون في أكثرها منتمية إلى التناوب الذي يمكن أن يحصل، وهنا يكون دور الاستجابة حاضراً ضمن امتدادات تكشف التعامل الافتراضي الذي يجب أن يحدث.

إنَّ حصول الاستجابة يدلِّل على وجود تعالقات واضحة بين جميع الأطراف، وهذا يفصح عن ديمومة يُرى فيها أنَّها لملمت كلّ ما يمكن أن يؤدّي إلى تحقيق التنبيه المراد على المخاطر، وبذلك تكتمل العملية المطلوبة؛ فتصبح المخاطر بعد ذلك خارج دائرة الخوف التي كانت تمثّل البداية المؤسّسة للتنبيه على المخاطر.

عليه يكون الخوف ومنبّهاته رادعاً مهمّاً في الوقوف بوجه المخاطر التي يمكن أن تظهر، أو حتى أن تلوح في الأفق، وهنا يكون النظر الحاصل ملبِّياً لكلّ الافتراضات التي تنشأ من أجل الوصول إلى نقطة تكون فيها الأمور خارج أيِّ خطر يمكن أن يحدث، كما أنَّ التجديد مطلوب الحدوث في كلّ الامتدادات المقترحة، لأنَّ ذلك يعزّز كلّ الأساليب التي يكون من ورائها إزالة كلّ العوائق والمشاكل التي تكون سبباً في حدوث خلل أو تباطؤ، لأنّ ذلك ينعكس بطبيعة الحال سلباً على الخطوات التي ستكون سبباً في الوصول إلى النهاية المفترضة والمطلوبة.

إنّ كلّ التشكيلات التي ذهبنا إليها في هذا الجانب كانت ضمن نظرة استدراكية حالها كحال الخوف، فالتنبيه على المخاطر يمثّل سمة تنويرية يُراد منها إيجاد مديات واضحة المعالم، يكون الوقوف عليها باعثاً

لحلول تكون ملبّية لكلّ ما يمكن أن يكون ممثّلاً للخطر الذي يمكن أن يحدث، كما أنَّ تعدّد المخاطر يحتاج إلى تعدّد في الرؤية المعرفية التي تكون متابعة لهذا التعدّد؛ فتحاول أن تجد الحلول المناسبة، وتمنحها أبعاداً متعدّدة تستطيع في كلّ الأوقات وفي كلّ التغيرات أن تلبّي ما يسهم في درء المخاطر، وتؤسّس لحياة أفضل، يكون الأمان هو المتحقّق بأيٍّ صيغة وبأيٍّ شكل، وهذا لا يكون إلّا بالتّوجه الصحيح منذ البداية الأولى التي تبنَّت هذا الأمان ومنحته اهتماماً واضحاً.

الخوف مُنبّه لما يؤلم ولما يطمئن

ما من شكٍّ أنّ الإنسان يحاول أن يعدّد النعم التي أنعم الله تعالى بها عليه من قبيل التذكّر لا من قبيل الإحصاء، لأنّه يعلم عدم قدرته على إحصائها؛ فيتبادر إلى الذهن في التعداد نِعَمٌ كثيرة من المال والبنين والعافية والأمن وما إلى ذلك من النعم التي يعيشها، غير أنّ نعمة الخوف التي تسكن في نفس كلّ إنسان، لا يكاد أحد ينتبه إلى أنّها نعمة عظيمة؛ فالخوف إن لم يوفّر نِعَمٌ كثيرة؛ فإنّه يحافظ على ما هو متوفّر من النعم لدى الإنسان على الأقلّ.

إنّ الخوف من جملة العواطف التي يمتلكها الإنسان، وهي تستثار بمخاطر خارجية تؤدّي إلى بلوغ الموجب إن تمّ حُسْن التصرّف فيها والتعامل معها، ولذا يؤدّي الخوف إلى تغيير المواقف من حالة السلب إلى حالة الإيجاب، وهو يربط العلاقة الآنيّة مع المستقبل، إذ أنّه في اللحظة الآنيّة يُعدُّ شعوراً سالباً تجاه المستقبل، ومن هنا يكون للخوف علاقة مباشرة باليقظة والفطنة والحذر؛ فهو ناقوس يدقّ في عقل الإنسان كلّما كان هناك استقراء للمستقبل؛ فهو استطلاع مستقبلي

للمخاطر التي ينبّه عليها الخوف قبل أن تأتي، ممّا يجعل الإنسان يفكّر في إيجاد موانع وحواجز تدفع المخاطر المستقبلية وتمنع وقوعها، وبهذا تكون عاطفة الخوف قد دفعت بالعقل إلى البحث عن الأسباب التي يمكن أن تحقِّق ما يُمكّنه من التطلّع إلى الأفضل.

إنّ عاطفة الخوف مثل بقيّة العواطف تبقى قائمة في النفس إلى حين استحضار ما يهدّئها ويعيدها إلى مكمنها عن طرق العقل، ولذا يكون اضطراب النفس مصاحباً لمجاراة العواطف والانفعالات الإنسانية التي لا مناص منها في الأزمات، ومهما جاشت لن تدوم، بل ستخفت وتهدأ بعودتها إلى مكمنها، والذي يدوم هو الحقائق التي تتكّشف للعقل عن طريق تنبيه الخوف له، فيستلم العقل هذه الحقائق ويعيد على أساسها البناء النفسي في عملية تهيؤ واستعداد لمواجهة الحدث والتعامل معه، وكون الخوف نقطة صفرية في النفس الإنسانية، فهو لا ينبّه على المكروهات والمخاطر فقط، وإنّما ينبّه على المحبوبات والموجبات، وبهذا ينبّه الخوفُ الإنسانَ على ما يمكن أن يدركه من مخاطر فيلحق به الأذى، وينبّه على ما يمكن أن يفوته ممّا يحمل له فائدة ومنفعة، ولذا فالخوف لا يقتصر تحذيره على المساويء، وإنّما يتعدّى ذلك إلى المحامد والمحاسن خوف فواتها، ولهذا يثير الخوف العواطف التي تتعلّق بالمكروهات والمحبوبات من المخاطر والمطمئنات، وكلّ عاطفة عبارة عن مجموعة انفعالات.

فعندما يستشعر الخوف المطمئنّات، يستثير مجموعة انفعالات سارة نحو الحدث خوف فواتها ورغبة في الاستحواذ أو الإعجاب أو الشهوة، أو السرور أو الراحة أو الامتنان، فيجيّش عاطفة المحبّة رغبة في ذلك.

وعندما يستشعر المساويء، يؤجج مجموعة انفعالات غير سارّة تجاه الحدث كالخطر أو الضيق، أو الاشمئزاز أو البغض أو الحقد؛ فيدفع بعاطفة الكراهية تجاه هذه الأشياء.

ولذا فالخوف تهيؤ وجداني واستعداد فطري يجعل صاحبه قابلاً للانفعال، ولاتخاذ موقف معين في السلوك تجاه الموضوع أو الحدث الخارجي الذي نبّه عليه الخوف ضماناً وأمناً للمستقبل.

إنّ الخوف المؤسّس على استقراء المستقبل في اللحظة الآنيّة، يستوجب مترتّبات دفع المخاطر التي نبّه عليها الخوف، لأنّ الخوف في الزمن الآن هو استشعار ما يأتي من الخطر في المستقبل، وهو في زمنه (اللحظة الآنيّة) يكون شعوراً سالباً، لأنّه يؤدّي إلى نوع من الاضطراب مصحوباً بالقلق على الرغم من محاولات البحث الجارية التي تؤمّن الاطمئنان المستقبلي.

وهذا الاطمئنان الذي يجدّ العقل في البحث عن مستلزماته، يكون ناتجاً عن تلقي المعلومات الواقية التي يستنبطها العقل إمّا من تجربة يمتلكها سابقاً، وإمّا أنّه يستنتجها من تداخل العمليات العقلية في معالجة تجارب متعدّدة ويدفعها للإرادة التي تعود بالنفس إلى حالة التوازن والاستقرار، ممّا يسمح باستنهاض بقية الملكات العقلية من الذاكرة عن طريق التذكّر في الموازنة واستنتاج جديد كلّما جاءت معلومة جديدة، وكذلك الملكات النفسية القائمة على التهيؤ والاستعداد والإعداد والتأهّب، وبهذا يكون الخوف قد دفع قوى الإنسان العقلية والنفسية والروحية في الاتجاه الموجب الذي يحقّق التوازن مع العامل الخارجي الذي نبّه الخوف على مخاطره.

إنّ الخوف جزء من العاطفة عند البشر، وهو شعور متحقّق لدى الإنسان لا نقول إنّه ينتابه عند استشعار المخاطر، وإنّما عند استشعار المخاطر يخرج من مكمنه في النفس الإنسانية كجزء من العاطفة، ولذا يترتّب على الخوف بالنسبة للعقلاء أخذ الحيطة والحذر إلاّ من غفل عن ذلك، وهنا ليس الذنب ذنب الخوف كما يظن البعض، وإنّما مردّ ذلك إلى أمرين:

الأول: ضعف الشعور الذي لم يصل بصاحبه إلى مرحلة الاستفزاز.

الثاني: قلّة خبرة العقل وضعف تجربته التي لم تسعفه تلك التجربة أو الخبرة التي يحتفظ بها في الذاكرة لأن يرتقي إلى مستوى الحدث الذي يشكّل الخطر.

ذلك أنّ الخوف الذي يكمن في العاطفة والتجربة التي يحملها العقل هما المسؤولان عن تحديد حجم المخاطر التي يثيرها الخوف داخلياً بما حفّزه العقل بداية بمثيرات خارجية من معلومات استنهضت الخوف من النفس، ومن ثمّ تنعكس على النفس وما تحمل من عواطف بحيث تكون هذه العواطف منبّهات للعقل في اتخاذ الإجراء المناسب بما يحمل من معلومات تتمثّل في الخبرة والتجربة التي يضعها في تصرّف الإرادة وإن كانت الإرادة أحد ملكاته، إلاّ أنّه جانب تخصّصي من مهام الإرادة.

إنّ تجربة العقل وخبرته هي صاحبة القول الفصل في اتخاذ القرارات للتغلب على المخاطر أو إيجاد أسباب تلافيها، وهذا لا يعني عدم الخوف بحال من الأحوال، وإنّما تعاظم التجارب المخيفة وكثرتها أدّى إلى زيادة الخبرة العقلية، ومن ثمّ الاحتفاظ بهذه الخبرات في الذاكرة، بحيث يستدعيها من الحافظة عن طريق التذكّر واستحضارها لاختيار ما

يناسب منها في مواجهة المخاطر المطروحة من قبل الخوف، وإن استنتج العقل أنّ أيّ تجربة من التجارب التي يحتفظ بها لا تقوم في مواجهة الأخطار المتوقّعة؛ فإنّه يلجأ إلى استنتاج آخر يكون نتيجة تجربتين أو أكثر يقدّر أنّها قادرة على مواجهة الخطر المتوقّع.

ومن بواعث الخوف الموجبة المقدّرة للمخاطر، عندما نادى الله تعالى موسى صلى الله عليه وسلّم بقوله تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}[26].

إنَّ طلب موسى من ربّه أن يزودّه بما يكون له عوناً على أداء رسالته إلى فرعون وملئه، كان بدافع الخوف المشروع الموجب من أجل تحقيق الغاية مستقبلاً، حيث أنّ خوف موسى صلى الله عليه وسلّم أبدى له المخاطر المحتملة عندما قارن إمكاناته مع المهمة التي أمره الله بها، وهذا الخوف نبّهه على أشياء ضرورية للوصول إلى الهدف وتحقيق الغاية، ولذا طلب من ربّه أن يشرح له صدره، وييسّر له أمره، ويحلل عقدة من لسانه، وأن يجعل له وزيراً من أهله، وهو هارون عليه الصلاة والسلام، ولا يمكن لقائل أن يقول إنّ الخوف يقدح في تمام التوكّل عند موسى صلى الله عليه وسلّم، لأنّ الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكّل، ولا يكون قادحاً فيه بحال، كما أنّ الخوف من المخاطر لا يعني عدم مواجهتها، وإنّما يعني التهيؤ والاستعداد للمواجهة، والخوف ممّا تحمله المخاطر لا يقدح في شجاعة المرء، أو أنّه يُعدّ نقيصة في حقه، بل هو

---

[26] – الشعراء 10– 14.

فطنة وإدراك وأخذ بالأسباب الموجبة التي توصل إلى الغاية المرادة، وبهذا الخوف يكون قد استكمل عدّة المواجهة في تأدية الموجب، وهذا يدلّ على أنّ الخوف يستلزم فعل الموجب.

الخوف واقٍ من الألم

ليس هناك أحد إلاّ وللألم فيه نصيب على التنوّع والتفاوت في هذا الألم، سواء أكان هذا الألم حسيّاً أم شعورياً أم إدراكياً، بمعنى جميع أنواع الألم التي لها علاقة بالجسد أو النفس أو العقل، غير أنّ أحداً لا يستطيع أن يحدّد معرفة مركز الألم أو أين يمكن أن يكون؟

الإنسان يتألّم حسيّاً في منطقة من الجلد أو في أيٍّ منطقة ما من الجسد، ويتألم نفسياً دون وجع عضوي، فمن أين يأتي هذا الألم؟

ويتألّم ذهنياً إمّا بضعف الذاكرة وعدم التذكُّر، وإمّا لعدم الإدراك أو عدم الاستيعاب على التفاوت النسبي بما يُحدث له ألماً نسميه عقلياً، فهذه الآلام المتنوّعة، نحسّ بعضاً منها إحساساً عضوياً مادّياً لما لها علاقة بالجسد، وبعضاً منها نشعر به شعوراً داخلياً لا نستطيع أن نعبّر عنه إلاّ بالألم النفسي، والبعض الآخر ما يؤلم في العقل حقيقة على أنّه إدراك للألم بسبب نقص في العقل باتجاه معين، ولكن أين يوجد مركز الألم؟

هل هو في الدماغ؟

هل هو في الجملة العصبيّة؟

أم أنّه في جهة عصبيّة؟

أم أنّه في النفس التي لا نعلم مركزها؟

إلى الآن لم يتوصّل العلم مع تقدم التجارب العلمية والمختبريّة وما جرى من أبحاث في هذا المجال إلى تحديد مركز الألم أو معرفة مكانه من هذا الجسم الإنساني، وهل هناك مركز للألم أم لا؟

والألم من حيث المركز والمكان الذي يكمن فيه يتساوى مع الخوف وإن علمنا مكان التألّم وعلمنا ممّاذا نخاف.

الشيء المعروف عن الألم أنّ الإنسان يتألّم، وأنّه يمكننا التعرّف على التألّم من خلال صداع يصيب الإنسان، أو كسر في أحد أطرافه، أو جرح في أحد أعضائه، أو وخز إبرة في موضع من جلده، وكلّ ما ذُكر هو من المؤلمات، أمّا الألم لا يمكن معرفته بشكل مباشر، وكذلك لا يمكن قياسه بشكل كمّي أو نسبي لا بالحجم ولا بالشكل ولا بالوحدات القياسية، غير أنّ الخوف المنبّه على الألم حال حدوثه أو قبل وقوعه يعطي صاحبه نسبة على قدر تحمّله هو، ولذا فكلّ إنسان ألمه على قدر طاقته وخوفه مثل ذلك.

تعاقب الخوف والألم

إنّ الحياة لا نقول إنّها لا تخلو من المخاوف، وإنّما هي مليئة بها، وهذه المخاوف التي تحمل المخاطر وما يمكن أن يصيب الإنسان من الشرور، تسبِّب آلاماً كثيرة، متنوّعة من حيث الحجم، ومتعدّدة من حيث الكم، ومختلفة من حيث الإدراك إمّا حسيّاً وإمّا شعورياً؛ فما كان منه حسيّاً يقع على الجسد، وما كان منه شعورياً يقع على النفس، وما كان منه ذهنياً يقع على العقل الذي يحمل الأفكار؛ فتتألّم الذاكرة إمّا بالنسيان، وإمّا بعدم الاستيعاب، وإمّا بقلّة الإدراك، فقد يصيب الإنسان ألم حسي، أو ألم معنوي شعوري، وقد يجتمع الألم الحسي والشعوري

المعنوي في أحيانٍ كثيرة لدى الفرد الواحد ممّا يترتّب عليه ألم مضاعف ومتنوّع، ومن نعمة الله تعالى على الإنسان، أنّ الألم نفسه عندما يداهم أحداً يحمل معه علاج التخلّص منه وإجراءات وقائية لآلام هي أعظم من الألم القائم، ويتمثّل العلاج والإجراء الوقائي بما يحمل الألم من خوف، أو بعبارة أدقّ أنّه يستنهض الخوف دفعاً للألم الأعظم، لأنّ الخوف الذي ينبّه العقل على مخاطر الألم، يكون قد وضع أولى الحواجز وأقواها في التصدّي للألم إن كان موجوداً، أو منع حصوله عندما يستشعر الخوف حضوره، وعلى هذا لا يكون الخوف واقٍ من الألم فحسب، وإنّما يحمل علاجاً للألم القائم أيضاً، ذلك أنّ دافع الخوف يتعاظم بوجود الألم، وهذا التعاظم يكون أكثر تأثيراً على العقل حال وجود الألم، أكثر من حال استشعاره، ومن هنا تكون حسابات العقل منصبّة على التخلّص من الألم القائم من خلال تجارب وطرق وأساليب بما يحتفظ به من أفكار في الذاكرة لتجربة مشابهة كان قد مرّ بها أو تجارب متعدّدة، يسعى إلى التخلّص من الألم بما يوعز إلى الإرادة من اتخاذ إجراءات تناسب الحالة القائمة على مقتضى الوجوب، بينما يكون التعامل في الألم الذي ينبّه الخوف على وقوعه، بطرق وأساليب وبدائل تختلف عن التعامل مع الألم القائم، ذلك أنّ الألم الحاصل الذي نبّه عليه الخوف تكون إجراءاته علاجية، بينما تنبيه الخوف على ألم يمكن أن يحصل، تكون إجراءات العقل معه وقائية.

وبهذا يخاطب الخوف الجانب الشعوري من هذه المشكلة في الشعور بالألم، لأنّه يدفع العقل إلى استنتاج السبل العلاجية للألم القائم، والوقائية للألم المتوقّع، وفي كلتا الحالتين يكتسب الإنسان عن طريق

الخوف نوعاً من الاستقرار في التعامل مع الألم القائم، وطرفاً من الطمأنينة للألم المتوقّع.

إنّ الخوف الذي هو واقٍ من الألم لا بدّ أنّه سابق عليه، ولذا يكون هناك إجراءات احترازية يتخذها العقل بدافع الخوف بإصدار تعليمات إلى الإرادة تكون مصدّات في وجه الألم لمنع وقوعه، والخوف الذي هو مسبوق من الألم؛ فإنّ الخوف هو علاج لهذا الألم بسبب عِظَم الخوف من العلّة القائمة، ومن هنا تكون توجّهات العقل توجّهات علاجية، لأنّه يستطيع أن يسيطر على الألم الواقع ضمن حيّزه بما يمتلك من معطيات داخلية يستطيع من خلالها التأثير بشكل مباشر بنوعية الأوامر والإعازات الصادرة عنه للإرادة في حسن التعامل مع الواقع الداخلي، وإن كان شطرا الألم القائم في الذات من جهة والممكن المتوقّع من جهة أخرى، وكلاهما ينبّه عليهما الخوف والمتعامل معهما العقل والمتصرّف معهما الإرادة، والشطران يسبِّبان أذى وشراً حالياً ومستقبلاً؛ فاختلف بينهما الزمان وتوحّدت الأدوات في التعامل معهما؛ فكان اختلاف الزمان مدعاة لاختلاف السبل والوسائل في مقاومتهما، ولذا كان أحدهما علاجي والآخر وقائي، وإن كان الخوف والعقل والإرادة هم المتعاملون معهما.

التلازم والتناوب بين الخوف والألم

وعلاوة على ذلك لا يمكن قياس درجة الإحساس بالألم بصورة كميّة, وفي واقع الأمر تختلف التفاعلات المشاهدة من فرد لآخر، كما أنّها قد تختلف في الفرد نفسه بتأثير منبّه معين من يوم إلى آخر, ومن الصعب أيضاً التفريق بين مظاهر الألم من شخص لآخر، مع علمنا أنّ الألم قد

يصهر معدن الإنسان، فتصفو به روحه، ويزكو خلقه، وتطهر به نفسه؛ كألم الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، وذلك لارتفاع مستوى الخوف، ذلك أنّ الخوف كما هو واقٍ من الألم لدى الإنسان عامة، إلاّ أنّ الألم نفسه يرفع مستوى الخوف أيضاً، وفي تناسب طردي لدى بعض الأفراد خاصة، وهذا النوع من الألم المتناسب طرداً مع الخوف، لا يكون إلاّ في الجانب النفسي من مدخل روحي له علاقة مباشرة بالإيمان، كألم أيوب وخوفه صلّى الله عليه وسلّم؛ فاطّراد الخوف والألم بأيوب صلّى الله عليه وسلّم حتى ارتقى به في الدنيا كما يرتقي به في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}[27].

فهذا النوع من الألم هو ألم ابتلاء مشوب بالخوف الملازم، وهو سبيل إلى لذّة في التقوى ونعيم التقرُّب خوفاً من الله تعالى؛ فكان ألماً ملازماً للخوف، وخوف مشوب بالألم من أجل الوصول إلى الهدف وإدراك الغاية عن طريق الخوف نفسه وإن صحبه ألم.

ونعتقد أنّ الخوف والألم على شيء من التلازم بالتناوب على النفس الإنسانية؛ فهي تخاف وتتألّم، وتتألّم وتخاف؛ فيدفعها ألمها إلى الخوف من المخاطر، ومن ثمّ يدفعها خوفها إلى التخلُّص من الألم عن طريق إيجاد السبل الواقية لهذا الألم، وهكذا بالتناوب على الإحساس والشعور، إحساس بالألم وشعور بالخوف؛ فالخوف قرين الشعور كما أنّ الألم قرين الإحساس، والإحساس آية الحياة التي تشكّل المخاوف الشعورية،

---

[27] – الأنبياء 83، 84.

ولا يمكن أن نتصوّر حياة خالية من الإحساس؛ فالذي يتألّم إذن موجود؛ فمن أراد أن يعيش بلا ألم ومعاناة فقد اختار لنفسه الموت على الحياة؛ وبما أنّ الحياة لا تخلو من الألم؛ فهي لا تخلو من المخاوف التي تؤدّي إلى التخلّص من الألم، والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في كبد ونصب يستنهضان مخاوفه كي يتخلّص من ألمه الحسي والمعنوي، ويتّقي بهذا الخوف ألم الآخرة والأولى قال تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}[28].

هناك علاقة قوية بين الإحساس بالألم والشعور بالخوف، وخوف من الشعور بالإحساس بالألم، فيتنامى الخوف برفع درجة الإحساس داخلياً على مستوى الذات، وخارجياً على مستوى الآخرين، إذ أنّ الشعور بالخوف المنبّه على الإحساس بالألم، ينمّي في الإنسان نعمة الإحساس بالآخرين، لأنّ ما يمكن أن يصيب إنساناً، فضمن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع أن يصيب أيّ إنسان، وبدافع الخوف يتولّد الشعور الإنساني المفطور على الخير لدى السواد الأعظم من الناس، ومن منطلق الخوف على الآخر بدافع إنساني يقدّم للآخر يد العون والمساعدة؛ فيتحقّق التكافل الاجتماعي والرعاية الاجتماعية بدافع الخوف على الآخر وليس بدافع الخوف منه؛ فالغني يتألم للفقير خوفاً من ألم الفقر، والمقتدر يتألّم للمعوزين والمحتاجين خوف ألم العازة والحاجة، والقوي يتألّم للضعيف خوف القهر والمذلّة؛ فيكون منه النصرة والمساعدة، والعالِم المبدع والمخترع يتألّم لمأساة مجتمعه وأمّته؛ فتكون إبداعاته واختراعاته واكتشافاته العلمية مأمناً من ألم الفقر والمرض

---

[28] – البلد 1– 4.

والجهل، وهكذا يكون الخوف محفِّزاً وباعثاً قوياً للتطلّع إلى الخير مطلقاً، والتطلّع لا يكون إلاّ مستقبلياً، ولذا فيكون الخوف منبّهاً على مخاطر المستقبل من أجل اتخاذ ما يجب تلافياً لوقوع المحذور، أو بما يفترض عليه أن يكون عليه الحال مستقبلاً خالٍ من المآسي قدر الاستطاعة بأسباب خوفية منبّهات على ما يمكن أن يحصل ضمن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع من خلال الإحساس بالآلام التي يُشعر بها الخوف.

إنّ الآلام تقوّي العزيمة وتستنفر الإرادة بسبب خوف استمرار تلك الآلام، ثمّ تثبّت دعائم التصميم على التخلّص منها، فيكتسب الإنسان حصانة من آلام الحياة بسبب خوفه لما قد تحدثه الآلام من شرّ وضرر، ويستمدّ من خوفه قوّة مقاومتها بما يمنحه الخوف من صلابة يستطيع بها مواجهة صعوبات الحياة وظروفها القاسية، لأنّ الحوافز الخوفية تدفع العقل للبحث عن منافذ الخروج من الألم؛ فخوف ألم الإخفاق يبصّر صاحبه بطريق النجاح، وخوف ألم القهر والتّسلّط، يدفع صاحبه إلى البحث عن طريق الحرّيّة، وخوف ألم الندم، يقود إلى الحلم وعدم التسرّع في اتخاذ القرار، وخوف ألم الاعتذار، يدفع إلى التأنّي وعدم الوقوع في ما يعتذر منه، وخوف ألم الفقر يخطو بصاحبه صوب الغنى والثراء.

وخوف الألم كذلك يسهم في صنع مستقبل الشعوب وقيام حضاراتها؛ فكثير من الأمم عانت آلام التخلُّف والفوضى ردحاً من الزمان، فكان الخوف دافعاً إلى تحسُّس الخُطى نحو العلم والحضارة، مثل أوروبا التي كانت تعيش في ظلام دامس في العصور الوسطى والذي نتج عنه ألم

شديد لممارسات الكنيسة والصراعات بين الكنيسة والسياسة، ثم ما لبث أن دفعها خوفها من المستقبل إلى عزل الدين عن السياسة بصرف النظر عن صحة ذلك من عدمه، ومن ثمّ قيام الثورة الصناعية الكبرى التي قامت عليها الحضارة الغربية التي يزهو العالم بها اليوم.

وكثير من الدول عانت آلام الذلّ والاستعمار، فكان الألم محفزاً لاستنهاض الخوف في نفوس أبنائها ودافعاً للبحث عن المنجيات من الألم؛ ولذا فالخوف كان سبباً في سعيها لاسترداد حرّيتها ونيل استقلالها والتخلّص من الألم عن طريق الخوف.

وعندما تعاني أمّة من الأمم أو شعب من الشعوب ويلات الحروب والنزاعات والصدامات التي لا بدّ أن ينتج عنها آلاماً كثيرة، يكون خوف استمرار هذه الآلام أو تعاظمها، هو المحرّك باتجاه البحث عن مزيلات الألم ومسبباته؛ فيكون الخوف باعثاً على السعي للإحلال السلام والوئام وفضّ النزاعات والخصومات التي يتولّد عنها الألم بوازع من الخوف؛ فإذا كان الألم مشتركاً بين طرفي النزاع، كان خوفهما رغبة مشتركة بينهما في إيجاد بدائل الألم بدافع الخوف، أمّا إذا كان الألم لأحد طرفي النزاع دون الآخر ويدفعه ذلك إلى السلام مع الطرف الآخر وفق ما يمليه عليه من شروط؛ فإنّ ذلك انصياعاً إلى الاستسلام والإذعان بدافع الجبن وليس بسبب الخوف المحفّز على الأفضل.

علاقة الخوف بالألم

قال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[29].

[29] – النساء 140 .

إنّ الله تعالى قد أثبت الألم في هذه الآية للمؤمنين ولغيرهم من الذين يظاهرون عليهم، وأمر سبحانه وتعالى المؤمنين بعدم الضعف عن المواجهة والجهاد مع وجود الألم الذي ينتج عنه خوف، ذلك أنّ الألم متكافيء لدى الطرفين ليس بالضرورة أن يكون على التساوي، وإنّما هو تكافؤ في حصوله عند المؤمنين وعند غيرهم، وطالما أنّ الألم قائم، فلا بدّ أنّ خوف الألم مصاحب له، وعلى الرغم من وجود الخوف المصاحب للألم؛ فوجب أن يكون هذا الخوف مدعاة للطمأنينة، ومن هنا كانت الدعوة إلى عدم التهاون أو الضعف أو التواني، لأنّ خوف المؤمن في هذا الموقف هو خوف رجاء، وخوف غيره هو خوف بقاء، ولا بقاء لأحد، ولذا كان الاستنهاض بالخوف من باب الرجاء الذي يترتّب عليه أجر عظيم (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) فحصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم، وباب الرجاء في الخوف مفتوح لكم ومنقطع عنهم، فلما لم يصبح خوف الألم مانعاً لهم عن قتالكم، فمن باب أولى أن لا يصبح هذا الخوف من الألم مانعاً لكم عن قتالهم، ثمّ زاد في تقرير الحجّة وبين أنّ المؤمنين أولى بالمصابرة على الخوف من الألم، ذلك أنّ خوف الألم القائم عند المؤمنين مقرون بالرجاء، وهنا يكون الخوف مشروعاً، والخوف من الألم مسألة عقدية حيث يرتبط خوف الألم بالثواب والعقاب والحشر والنشر والخلود إمّا في الجنة وإمّا في النار، ولمّا كان المشركون لا يقرّون بذلك، فإنّ خوفهم والألم الناتج عن خوفهم مفارق لألم المؤمنين وخوفهم، وذلك للاختلاف الثقافة النابعة من العقيدة، لأنّ خوف القتل في المواجهة الذي ينظر إليه المشركون على أنّه مسبب للألم، يكون عند

المؤمنين خوف عدم القتل هو المسبّب لنسبة ذلك الألم من فوت الشهادة، وهذا يعني أنّ المنطلقات الثقافية تحدّد إيجابية الخوف والألم وسلبيتهما على التناقض بين العقائد والثقافات، فعلى سبيل المثال يكون ألم خوف الفرار من الزحف عند المؤمن خوفاً لا نظير له، لأنّه يترتّب عليه ألم عظيم، مصداقاً لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[30].

فإن كان ألم المواجهة مؤلم خوفاً من القتل،؛ فإن خوف ألم الفرار وتولية الأدبار أشدّ ألماً وأعظم؛ فكان ألم المواجهة بالنسبة للمؤمن يترتّب عليه خوف الفرار الذي ينتج عنه ألم عظيم، ومن هنا كان خوف فوت القتل وإن كان ألماً؛ أهم من خوف الإدراك وإن كان نجاة من القتل، وبمعادلة أخرى نقول:

. خوف يترتّب عليه ألم (المواجهة).

. ألم يترتّب عليه خوف (القاتل).

. ألم بدافع الخوف من الفرار (الثبات).

. خوف بدافع الألم (تحمل القتل).

. قتل بدافع الخوف (الغاية)

فالخوف والألم يتعاقبان على النفس في الحضّ على المواجهة والقتال في الحفاظ على الثبات وتحمّل القتل وصولاً إلى الشهادة وخوفاً من فواتها.

---

[30] – الأنفال 15، 16.

في هذا الموضع يمكن القول أنّه تساوى الإحساس بالألم واختلف الخوف بالشعور، ذلك أن تَألّم الفريقين تألّم واحد من حيث الإحساس بالألم، لا من حيث اتجاه الألم الذي حدّده شعور الخوف، ولكن من جانب آخر كلّ فريق يخاف ألم بأس الآخر، ولكنَّ الشعور بالخوف مختلف، فخوف المؤمنين دفعهم إلى الرجاء، وذلك رجاء الشهادة إن قتلوا، ورجاء ظهور دين الله على أيديهم إذا انتصروا، ورجاء الثواب في الأحوال كلّها بدافع الخوف وتحمّل الألم، فالصبر على الخوف وتحمّل الألم له ثواب عظيم، وفي عدم الصبر على الخوف وترك تحمّل الألم خوف من عقاب شديد.

أمّا ألم المشركين لا يرقى إلى ألم المؤمنين، وخوفهم مغاير في الاتجاه؛ فهو على النقيض من ذلك، كونهم يعبدون الأصنام وهم يعلمون أنّهم لا يرجون منها ثواباً ولا يخافون منها عقاباً، فلا يصحّ أن يتساوى خوفهم وألمهم مع خوف المؤمنين وألمهم لاختلاف الغرض والهدف والغاية.

الخوف والألم والحزن

إنّ الخوف ينبّه الحقيقة الشعورية التي يدركها الإنسان في نفسه، وهو على هذا المفهوم علاقته مباشرة بالإدراك والوعي، وأمّا الألم؛ فيتوزّع على الشعور والإحساس، فالألم الناتج عن الحزن يكون قد سبقه ألم آخر أدّى إلى الحزن الذي يدركه الإنسان بالشعور، وقد يكون الحزن أصلاً ناتج عن ألم عضوي، والألم الذي يسبّبه الوجع هو ألم عضوي يقف عليه الإنسان بالإحساس، ولا يأتي حزن إلاّ وقد سبقه ألم نبّه عليه الخوف، قال تعالى: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي

مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}[31].

إنّ مريم عليها السلام قبل أنّ يأتيها المخاض لا بدّ أنّه انتابها خوف عظيم، لأنّها ستضع مولوداً ولم يمسسها بشر، وكان قولها (ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) هو تعبير عمّا يداخلها من خوف سبّب لها ألماً نفسيّاً أدركته بشعورها لما سيقوله بحقها الناس، فانكفأت حزينة على نفسها بدافع الألم، وهذا الحزن سينتقل بها إلى ألم آخر لا بدّ منه، هو ألم ما بعد الحزن، ذلك أنّ الإنسان طالما يسكنه الحزن فإنّه يتألّم، ولذا فالله تعالى خاطبها بأن لا تحزن، فنفى عنها النتيجة، وبنفي النتيجة تنتفي الأسباب التي أدّت إليها؛ فإزالة الحزن تعني إزالة الألم والخوف، وعليه فإنّ العلاقة بين الخوف والألم والحزن علاقة جدلية مترتّب أحدها على الآخر.

وقد يرد الحزن بعد الخوف دون ذكر الألم، وهذا لا يعني عدم وجود الألم، وإنّما اكتفى بوجود ما دلّ عليه دليل لوجوده، كقوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}[32].

وربّ قائل يقول: كيف يكون ألمها قائم في نفسها ولم يذكر هنا؟

نقول:

إنَّ الحزن نتيجة وليس سبباً، وهو ليس نتيجة للخوف، وإن كان الخوف سبباً غير مباشر فيه، إذ من المعلوم أنّ الخوف يسبّب الرعب والذعر،

---

[31] – مريم 23، 24.

[32] – القصص 7.

وينبّه على التوجّس والحذر والخشية، ويدعو إلى الحيطة والاحتراز، ولكن عندما لا تحسن الإرادة التعامل مع منبّهات الخوف على المخاطر، أو تكون قاصرة عن إيجاد الحلول والبدائل تصل النفس إلى مرحلة الألم، فإذا استقرّ ألمها واستسلمت له، بدا الحزن يأخذ منها مأخذاً بقدر الألم الذي أصابها، ومن هنا لا يمكن أن يصل الإنسان إلى مرحلة الحزن ما لم يمرّ بمرحلة أليمة، وعلى ذلك فإنّ الألم بين الخوف والحزن بديهي سواء ذكر أم لم يُذكر، وعدم ذكره أوجب لبداهته، وقد ذكر الحزن دون أن يذكر معه الخوف والألم مع وجودهما بداهة، لأنّه دلّ عليهما دليل مصداقاً لقوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا}[33]

فقوله: لا تحزن دليل على وجود الخوف الألم، لأنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول لصاحبه لا تحزن، فخاطبه بالنتيجة التي أوصله إليها خوفه وألمه على النبي صلّى الله عليه وسلّم، وجاء دليل وجود الخوف والألم بقوله: فأنزل الله سكينته عليه؛ فالسكينة لا تكون إلاّ بعد خوف لما ينتاب الخائف من اضطراب هو أشدّ حاجة إلى الهدوء والاطمئنان اللذين توفّرهما السكينة مصداقاً لقوله تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}[34].

ولذا نجد في آيات كثيرة يُذكر الحزن تالياً للخوف دون ذكر الألم مع أنّه لا بدّ قائم لوجود نتيجته من الحزن، ومعلوم أنّ الحزن لا يكون نتيجة

---

[33] – التوبة 40.

[34] – التوبة 25، 26.

للخوف، وإنّما هو مسَببٌ عن ألم، وإن جاء معظم الآيات بالنفي للخوف والحزن معاً، فإن نفيهما قد نفى ما كان نتيجة عنهما أو ما كانا سبباً لوجوده:

. قال تعالى: {فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[35].

. وقال تعالى: {وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[36].

. وقال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[37].

. وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[38].

ففي جميع هذه الآيات التي نفت وقوع الخوف والحزن عمّن تعلق بهم الأمر، ولم تذكر الألم الذي واقع بين مسبّبه من الخوف ونتيجته من الحزن.

إنّ الخوف شعور منبّه على المخاطر التي تسبّب الألم إحساساً مادياً وشعوراً معنوياً يترتّب على استمراره حزن، وعليه فلا ألم دون خوف ولا حزن دون ألم، والعلاقة بين هذه المفردات هي علاقة سبب ومسبّب ونتيجة.

---

[35] – البقرة 38.

[36] – آل عمران 170.

[37] – يونس 62.

[38] – الأحقاف 13.

موجّهات الخوف

يحتاج الخوف إلى موجهات يكمن من ورائها إيجاد اتكاءات يستطيع من خلالها الوصول إلى الغاية التي يكون من بعدها ملبياً لكلّ ما من شأنه

أن يساهم في البناء العام للحياة بزمنها الحاضر والمستقبل، وهنا يكون الانفتاح المطلوب الذي يستطيع أن يتجاوز الكثير من العقبات التي تعترض أيّ حركة يكون من ورائها الوصول إلى المراد، فينبري أمامنا موجّهات الخوف التي تساهم بشكل فاعل في إرساء عدة تشكيلات فكرية يكون لها حضوراً كبيراً وإن كان متفاوتاً في التحقيق.

لذا نجد أنَّ هذه الموجّهات تقف عند مكامن الأمور التي يكون من ورائها خلق ثوابت واستدراكات يكون على أساسها وضع اللبنات المهمة التي يستند عليها البناء العام المفترض؛ فيكون هناك توافق مطلوب ضمن أسلبة واضحة المعالم، تنحاز للجانب الذي تجده ملبِّياً ومساهماً في كلّ ما هو مطلوب.

عليه تكون موجّهات الخوف حاضنة للفاعلية المطلوبة في كافة توجّهاتها، فتخلق بذلك حالة من التبعيضية التي تكون آنية الحصول، ممّا يسمح ذلك بتوارد تشكيلات جديدة تنظر إلى الخوف نظرة المسبّب أو هو الذي يقف في كلّ استظهار يمكن أن يحدث، وموجّهات الخوف هي:

أ – التذكّر

يمثل الماضي خزيناً معرفياً متعدّداً ومتنوّعاً، فهو حافل بالكثير من التجارب المختلفة التي كان لها حضوراً واضحاً ومؤثّراً سواء أكان ذلك على مستوى السلب أم الإيجاب، ولهذا فإنّ الوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفاً على إرث إنساني مثل حقبة من حقب الماضي، والتاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانية سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات،

وهنا يكون النظر الحاصل منطوياً على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلباً من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فيكون هذا الطلب فيما بعد حاجةً ملحةً تكون حاضرة بشكلّ أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّياً للبداية الافتراضية التي كانت السبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الماضي فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانية تسير وفق نسق واحد رغم العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدائم متحقِّقاً في كلّ زوايا الماضي، ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنية والمستقبلية حلولاً مهمة إلاّ أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في كثير القضايا متحققاً بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت، ولذا تكون الصورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة.

ويدخل الماضي حقل التراث لكن ليس من باب الجمود كأيِّ إيقونة ممكن أن تكون، ولكن من باب التبصّر والتمعّن والإيضاح، فالإنسان يمر بظروف تكاد تتشابه كثيراً على مر العصور؛ فينتج من ذلك نهايات تكون مختلفة ممّا يطرح هذا الاختلاف وجود آراء مختلفة شكلّت هذه النهايات ممر تجر الأمور بعد ذلك إلى منعطفات لم تكن في كثير من الأحيان بالحسبان، ولعلّ تحقّق الأحداث العظام في الماضي يمثّل أحد

هذه الاختلافات؛ فالإنسان يختلف تصرّفه كثيراً حتى في القضية الواحدة، إذ تحكمه الكثير من الظروف التي تتنوّع فلا تقف عن حدٍ معين؛ فيكون الارتماء ممثّلاً بتداعيات مختلفة تطرح من خلالها الحدود المفترضة التي تكون النهاية عند أعتابها؛ فتنساق الأمور إلى امتدادات وإن كانت في بعض الأحيان واهية إلاّ أنّها ممثّلة لاتجاهات فكرية كانت وراءها، ولهذا لا يمكن أن تكون هناك قطعية في الحلول، فالماضي حمل الكثير من الحلول المختلفة ممّا يحيل إلى انتفاء القطعية التي يمكن أن تطرح على أيٍّ صعيد، فلم يكن هناك حلّاً واحداً لكثير من القضايا وإن تشابهت هذه القضايا إلى درجة التطابق.

ويكتنف الماضي الكثير من التشكيلات التي يكون الوصول إليها يمثّل قراءة واعية بما أسبغ الماضي من طروحات، ولهذا نجد يوماً بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي وقد تكون متناقضة لكن هذا يدلل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي ويقف عند محطاته الشاخصة التي تكون فيما بعد دروساً يستفيد منها من يبحث عن حلّ لما يمرّ به الإنسان.

ويطرح التاريخ مغايرات مهمّة تكون عند أعتابها نهايات قد تتكرّر، وهذا يُسيّر عجلة الزمن نحو إيجاد تعالقات متشابهة تكون أكثرها منتمية لبداية سعت دائماً إلى حلحلت ما يمكن حلحلته في سبيل الوقوف على حدود واضحة المعالم، وهنا يكون السير في هذا الرواق منكفياً على تجارب حاضرة وملبّية في الوقت نفسه للتساؤلات التي يمكن أن تُطرح، فتكون التبعات متحقّقة كونها تمثّل امتداداً مطلوباً، والتاريخ فيه من السعة ما يجعل الكثير من المقولات شاخصة في كلّ زمان ومكان،

فمقولة (التاريخ يعيد نفسه) تتكرّر على كثير من الألسنة لكنّها كما نعتقد أنّها لا تمثّل تشكيلاً عاماً في هذا النسق الإنساني، فالتكرار قد يحصل لكنَّه هل يحصل كما حصل في الماضي؟

هذا التساؤل يفضي بنا إلى أن نقول:

إنَّ التاريخ يمكن أن يعيد نفسه، لكن هذه الإعادة لا تكون بالتطابق التام، لأنّ هذا الأمر يكون من الصعوبة بمكان أن يتحقّق، ومع ذلك فالتجارب الإنسانية متشابهة ويمكن تكرارها، فيكون النظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يساهم بشكلّ أو بآخر في الوصول إلى حلّ حتى وإن كان افتراضياً، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها، فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وكلّ التشكيل الذي ذهبنا إليه يكون الخوف حاضراً فيه، كونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة، فالبحث عن حلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّزه ويرشده بطريقة أو بأخرى إلى البحث عن حلّ يكون من بعده سقوط أو تبدّد كلّ المخاوف القائمة، ولذا يكون الاستشعار في هذا التوجه قائماً على درجة عالية من الحذر كي تكون النهاية ملبّية للخوف الأول الذي كان محفّزاً بدرجة جعل من آليات البحث عن حلّ خاضعة لهذا الخوف بشكل كبير.

ب – التدبر

يحدث في الحياة في الزمن الآني الكثير من الأحداث التي يكون وقوعها ممثّلاً لكارثة أو لأمر غير متوقّع؛ فتكون المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة أو حلّها من جذورها، فالتدبُّر حلّ للمفاجآت التي يمكن أن تحصل، ولهذا لا يكون الحلّ نهائياً، بل وقتيّاً من أجل تجاوز المرحلة المهمة، ومن الشواهد التي رأينا فيها التدبّر حاصلاً بالكيفية الآنية ما حصل في تشيلي لعمال المناجم بتاريخ 14 أكتوبر 2010، فبعد أن أصبحوا في غياهب الظلمات في مسافة تزيد عن ستمائة متر تحت الأرض، فما كان من السلطات التشيليّة إلّا بحثت عن حلّ سريع يكون به النجاة لهؤلاء العمال، وفي كلّ تفاصيل الإنقاذ كان الخوف حاضراً بدرجة كبيرة، فأدوات النجاة وطرقها كان يرافقها الخوف ممّا أفضى ذلك بأن يكون النجاح حليف عملية الإنقاذ، واستعملت في عملية الإنقاذ كبسولة أطلق عليها اسم (فينكس) نسبة إلى طائر (الفينيق) الأسطوري، وبلغ قطرها 53 سم. وخضعت هذه الكبسولة للتجريب حيث عمد عمال الإنقاذ إلى إنزالها مرّتين في باطن الأرض قبل بدء عمليات إنقاذ العمال. فما كان من الخوف إلّا أن يكون حاضراً في جميع تفاصيل مهمة الإنقاذ؛ فالبداية كانت باحثة عن كلّ الأساليب التي تجعل من العمال يبقون على قيد الحياة كالغذاء والاتصال وغير ذلك، أمّا المهمة الثانية؛ فكانت في تفاصيل وسائل الإنقاذ بداية من الحفر عن أقرب مكان يصل إليهم إلى الكبسولة التي تقلهم إلى سطح الأرض؛ فالخوف كان في كلّ شيء يساهم في الإنقاذ؛ فالكبسولة لم تكن واحدة كانت أكثر من واحدة، ووسائل الحماية المتوفّرة فيها كانت خاضعة لمقاييس الخوف من أجل

أن يصل العامل إلى سطح الأرض بكلّ سلامة، ولم يكن الخوف قابعاً تحت الأرض فقط، بل كان حاضراً عند سطح الأرض في توفير كلّ المستلزمات الصحية التي تحافظ على صحة العمال بدأ من النظارة الشمسية الخاصة التي كانت البداية متمثّلة فيها.

ويتّسع التدبّر ليكون حضوره ملبّياً أو محتوياً للأحداث الحاصلة إلاّ أنّه لا يكون حلّاً نهائياً أو أن يتكرّر الحدث بتكرر الحل نفسه، ولذا أنَّ كلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولاً دائمية، لكنها في وقتها تمثّل الحلّ الأمثل في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيا إلّا أنَّه يفتح مدارك الإنسان في البحث عن حلول تكمن فيها النهاية المرجوة، وهو بهذا يسير نحو إيجاد حلول منفتحة ومكتسية بثوابت افتراضية ممّا يكون مستقبلها حاصلاً ومنتمياً لهذه الافتراضات.

ويسهم الحلّ الآني في خلق فروض متعدِّدة منتمية إلى مخاوف مفترضة، وهنا يظهر الخوف كمؤسّس حقيقي لفرضيات تسهم بشكلّ كبير في إيجاد مساحات جديدة فيها من المتناوبات المختلفة التي تشير بشكلّ أو بآخر إلى وجود افتراقات في المنجز الافتراضي، وهذا يبعث في الرؤى العامة المتحقّقة روح الامتداد المستفيض الذي يخلق تبعات واضحة تجد صداها عند كلّ فرضية موجودة سواء أكانت متحقِّقة أم كانت في طور الانتماء العام لفرضيات الخوف.

لذا تكون المخاوف المتعاقبة في هذا المنجز الافتراضي أداة فاعلة في بناء استمرارية حقيقية تكون رافدة للعملية المطلوبة، فالانكفاء غير حاصل كونه يخلق انزواءات غير فاعلة تسهم بشكلٍ كبيرٍ في انضواء

أنساق عديدة يكون لها دور مهم في الإيضاح والتفاعل والخلق والمبادرة، فتستحيل كلّ ملاحظاتها إلى برامج تتابعية ترشد وترسم ما سيكون وفق عملية نجد فيها تشاكل واضح ينضح بكلّ السياقات التي يكون حضورها فاعلاً ومؤثّراً.

عليه تكون المساحة المطلوبة لهذه الفرضيات منتمية إلى الاتساع الذي يجب أن يكون، وهنا تظهر المدارات بأنواعها كي تشغل حيزاً واضحاً في هذه المساحة التي تتّسع لكلّ الأطراف، أمّا حدود هذه المساحة فهي مفتوحة كونها تريد أن تكون نهايتها مفتوحة كي تتّسع لكلّ المفاجآت التي يمكن أن تحدث، لأنَّ الواقع يفيض بالمفاجآت؛ فتكون معالجتها غير منضوية تحت أي إدراج، وبغض النظر عن الوسائل التي تُستخدم، ممّا يسمح لها باستقطاب الحلول التي تنقلها من واقعها التي هي فيه إلى واقعٍ جديدٍ يكمن فيه الانتشال المطلوب.

هذه المفاجآت جعلت من التدبير يدور في المعاجم التي تنتمي إليها الحلول الآنية التي لا يمكن معاودتها مرّة ثانية، لأنّها لم تنمي إلى دائرة الثبات التحقّقي؛ فهي تزاول نشاطها ضمن مساحات محدودة يدفعها الخوف باتجاهات ترتبط به وبدون أن يمنحها حقّ التراجع، لأنّها في حقيقة الأمر لا تمتلكه كونها تابعة للخوف بوصفه المانح لكلّ الرسوم التي تُسيّر الحلول.

يباشر الخوف وجوده من خلال الارتماء في حضن الواقع الذي يكون فيه المُشكلّ حاصلاً بكيفية متوقّعة وغير متوقّعة، وهنا تنبري الحلول المستدعاة بتقنيات مختلفة، إذ تدور كلّها حول إيجاد حلّ سريع وملبّي للواقع، وهنا يكون الزمن مفتوحاً ضمن مدى يقصر وقد يطول بحسب

الاحتياج المطلوب، فتتعالق عوامل متعدّدة ومتنوّعة تسهم بأشكال مختلفة من أجل الوصول إلى الحلّ المنشود.

إنّ الإنسان بطبعه يبحث عن سبل كثيرة يريد من خلالها الوصول إلى مبتغاه، هذا البحث يكتنفه تبعات في حالة الحصول على المبتغى؛ فالخوف الحاصل من هذا المبتغى يكون موجّهاً له ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، فالمتوقّع يكون حافزه ليس بالكبير كونه حاصلاً وحدوده يمكن تبيانها ووضع علامات لها، وتكون مدعاة للتقييم، ومن ثمَّ تكون قابلة للرصدّ والتحليل وللتمثّل إلّا أنَّ غير المتوقّع تكون حدوده غير واضحة المعالم؛ فيكون الاستغراق الفكري حاضراً في إيجاد افتراضات مستمرّة تحاول أن تجيب عن كلّ ما يُطرح، وهذا بدوره يخلق حالة من الارتدادات المعرفية التي يكون فيها التسابق حاصلاً للوصول إلى كنف جديد يكون ملبّياً للمراحل المرادة، فالانزواءت غير مطلوبة، والعبثية غير مطلوبة، والتوقّف غير مطلوب، والتسليم بما هو موجود غير مطلوب، ذلك أنَّ الخوف يمرّ دائماً بحالة من الحضور المغاير ممّا يحمله على البحث عن كلّ ما يمكن أن يكون فيه الحلّ المرجو.

ج- التفكر

يمثل المستقبل الامتداد الطبيعي للحياة من ماضيها وحاضرها، فله أهمية كبيرة في البناء المرتقب الذي يكون من ورائه امتدادات مختلفة تتّجه بحسب الستراتيجية التي وضعت له اللبنات الأولى، فالمستقبل أصبح الأرضية الجديدة التي يُؤسّس من خلالها كلّ ما هو مطلوب ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، وبذلك يكون التفكّر عنصراً مهماً في خلق مستقبل موافق لكلّ التوجهات التي تسعى إلى المضي قدماً نحو

التفاضل والوصول إلى الدرجة التي تكون إخافتها حاصلة، ودون وجود مخيف يمكن أن يماثلها أو أن يكون ندّاً لها.

ولا يكون التفكّر منزوياً عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة للتأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في المستقبل؛ فالمستقبل لا يمكن بناءه دون النظر إلى امتداداته الحاصلة التي يكون الانطلاق منها حاصلاً في كلّ التوجهات، لذا تكون التوجهات المختلفة منتمية إلى جذور تمدها بما يسمح لها بالسعي إلى إيجاد حلول واضحة المعالم، فلا يكون هنا أيّ انكفاء، بل تكون الأمور عامة سائرة نحو تشابك منظم يكون من ورائه وجود تبعات تبحث لها عن رؤى تفاعلية تثري التفكّر وتمنحه أبعاداً مختلفة ومهمة، وهنا يكون الإيضاح سمة مطلوبة كي يكون الاتساع المرافق ملبّياً للادراكات الحاصلة، فيحصل بذلك شمولية مطلوبة تطرح التواصل الذي يكون من ورائه تحقّق التفكر.

إن المستقبل يكتنفه في بعض الأحيان غموضاً معيّناً يسير في مدارات قد تبدو للوهلة الأولى غير منضبطة وفق الرؤيا المطروحة، وهنا يكون الاستشراف حالة ملبّية للكثير من الطموحات وحتى التداعيات التي تخلف انفراجاً وإن كان وقتياً إلّا أنّه قد يكون سبباً في حلّ الكثير من المتعلقات المفترضة، كما أنّ التشكيل العام لهذه الرؤى يكون مطوياً خلف إزاحات دائمة تريد أن تجد لها مكاناً بين الحضور الحاصل إلّا أنّ مكمنها قد لا يبدو واضحاً نتيجة البعثرة التي تحصل في بعض الأحيان، وهنا تنبري لنا مسألة مهمة ألا وهي التنظيم المطلوب ضمن هذه الصيرورة، إذ يحتّم المكوث عند هذا التنظيم وجعله منهجاً يكمن

فيه التحقّق المطلوب، لذا يكون الخوف حاضراً في هذا التنظيم بطرق متباينة؛ فالخوف يقف عند كلّ النقاط المهمة التي يكون من ورائها الوصول إلى الامتدادات المستقبلية المطلوبة، وهنا تكون الآليات المطروحة تسير وفق اتجاه يكتنفه الخوف وفق كلّ التفصيلات المتاحة، وهذا الأمر يسهم بشكلّ أو بآخر في إيجاد نتائج واضحة المعالم يُرى فيها معالم الخوف في كافة جوانبها؛ فيكون الظهور المتحقّق وفق هذا التفكّر ملبياً للبداية التي طرحت كلّ ما من شأنه كي يصل التفكّر إلى هذه المرحلة.

وينفتح الخوف على كلّ الأزمنة، وهذا من باب الاتساع المطلوب كي تكون الصورة المطلوبة واضحة وملبّية لكلّ التغايرات التي يمكن أن تحصل، فالارتباط المطلوب يغرس في كلّ خطوة من الخطوات اتكاءات جديدة يكون مبعثها متزامناً مع التفصيلات التي يكمن فيها الخوف، وهذا يسير بوتيرة إفضائية تتحكّم بشكلّ ينمّ عن وجود ارتباط فعلي بين هذه الامتدادات الثلاث، و لأنَّ النهاية مفتوحة سيبقى الخوف مفتوحاً ولا يتقيد بأيّ قيد يمكن أن يكفّه عن تحقيق فاعليته؛ فالنهاية المفتوحة تكون حافزاً على خلق استمرارية في البحث تتّجه دائماً نحو شمولية يتّسع مداها كي تكون متجاوزة لكلّ الأساليب التقليدية التي تكتفي بالبقاء عند عتبات تجد أنّها تمثّل النهاية التي يجب أن تكون، وهذا الأمر بطبيعته مخالفاً للحياة التي نعيشها؛ فهي قائمة على استنهاض مستمر، وبحث مستمر، فالتوقّف أو الانكفاء سمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير، لأنَّ البقاء ضمن هذه الأطر يخلق ارتباكاً وفوضى معرفية لا تكون نتائجها محمودة أبداً.

ونحن إذ نشير إلى هذا التعالق فهو من باب أن التفكّر لا يمكن له أن يكون سائراً بالاتجاه الصحيح دون أن تكون له قاعدة يتكأ عليها، تمدّه بكلّ ما يمنحه من امتدادات مختلفة سواء أكانت نظرية أم عملية؛ فتوجه الخوف يكون متماشياً مع هذه الامتدادات كونها تتوافق معه فيسمح لها بالمثول عند أيّ ارتكاز تريده.

عليه يكون التفكّر واقعاً ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له، فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه، وإن كان الأمر ضمن دفعات تتابعية إلاّ أنّه لا يخلو من إرهاصات قد تكون متواجدة بشكلّ لا يكون من ورائها انزياحات كبيرة، وهنا يكون الخوف متغلغلاً في كلّ الجوانب التي تريد أن تقف عند أعتاب كلّ التشكيلات التي يكون من ورائها البناء المطلوب، لأنّ هذه الصفة بلزوميتها تواكب الحاصل الذي لا يسير معها، بل هي تسير معه، وهنا تكون عظمة المرافقة التي تمنح التفكّر أبعاداً مهمة تساهم بفاعلية كبيرة في خلق تقدم غير مسبوق، لأنّ السابق متحقّق بكلّ ما فيه أمام المستقبل الذي يسعى نحو التفاضل والتمايز، فتتحقّق بذلك الافتراقات التي تخلق بناءاً مغايراً مبنياً على تشعبات استبطانية وجدت في الماضي والحاضر البداية التي لا يمكن أن تكون ثابتة، بل هي موجه نحو إيجاد البدائل أو إيجاد الجديد الذي يكمن فيه التغاير والتباعد عن نقاط الالتقاء التي تكون ملبّية للتساوي الذي يجب ألاّ يكون.

إنَّ التفكّر يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل يكمن فيها النهوض الحقيقي الذي يمنح الناس جميعاً حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع كونه يرتبط بالخوف؛ فالمخاوف بسمتها الايجابية المفقودة يكون

الركون إليها متفاوتاً، وهذا ناتج عن الإدراك غير الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبياً على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزاً مهما في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائماً إلى وجود خروقات طبيعية وغير طبيعة، تخرج عن نطاق المتعارف أو الطبيعي الذي يجب أن يكون؛ فهو بذلك منبّه من الدرجة التي يكون استشعاره باعثاً على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمراً يمنح الإنسان وعياً مستمراً أيضاً، ذلك أنَّ تكرار المنبهات يحيل إلى زيادة في الوعي المتحقّق؛ فيكون الخزين العام منساقاً نحو هذه الزيادة التي يُرى فيها إضافات جديدة على المساحة الفكرية المطروحة؛ فيكون الاغتناء الفكري قد وجد له تمويلاً مستمراً يمنحه ما يشاء، وبتفصيلات تلهمه المتابعة التي يجد فيها كلّ ما هو جديد وكلّ ما هو بديل للحاصل.

الخوف مستدعٍ للإستراتيجيات

تستخدم اليوم في حياتنا السياسية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية مجموعة من المفردات والمصطلحات الوافدة بسبب التقارب بين الشعوب من ناحية اختصار الزمن، ممّا أدّى إلى الاحتكاك القريب ونتج عنه التأثير والتأثّر بالطعام والشراب والأزياء والعادات والتقاليد التي مثّلت نوعاً من التداخل الثقافي والفكري، الأمر الذي جعل شيوع بعض المفردات واضحة المفهوم وإن استعصت على الترجمة، ومن هذه

المفردات مصطلح (الإستراتيجية) التي تضاف إلى التخطيط والبعد والقوى والنظرة وكثير غير هذه المفردات التي تضاف إلى كلمة إستراتيجية، وإن كانت في أصل وضعها (فنّ قيادة المعركة) أو: "فنّ التخطيط لحملة ما وتوجيهها، وهي الأسلوب الذي يسعى إليه القائد لجرّ عدوّه إلى المعركة، أو فن وعلم استخدام القوات المسلحة للدولة لغرض تحقيق أهداف السياسة العامة عن طريق استخدام القوة أو التهديد باستخدامها"[39].

وبالابتعاد عن النزاعات والصراعات والحروب؛ فقد أصبحت الإستراتيجية مصطلحاً ينسحب من ميدان القتال إلى ميدان الحياة الذي هو أكثر رحابة وأوسع مجالاً وأخصب عطاءً وأشد أثراً، ولاسيما في ميادين الفكر والثقافة والمعرفة.

غير أنّ المصطلح في أساسه كمصطلح عسكري يعبّر عن مخاوف دفعت إلى اتخاذه والعمل به، وفي تطوّر مفهومه ودلالته وانسحابه على الحياة العامة لا زال يخطط لمنع مخاطر ما ينبّه عليه الخوف، وبهذا تكون الإستراتيجية في نتاجها المادي، هي تجسيد للشعور الذي يحذّر من مخاطر المستقبل، ومن هنا يكون الخوف صانعاً للإستراتيجية بآثار نفسيّة جعلت النفس غير مطمئنّة ما لم يتخذ العقل إجراءات علاجية شافية لما هو قائم خوفاً من تفاقم الضرر، أو إجراءات وقائية مانعة لما يمكن أن يحدث من ضرر، وكلاهما نبّه عليهما الخوف.

إنّ الخوف شعور عاطفي ينبّه النفس على المخاطر، والنفس تنبّه العقل، والعقل يتصرّف مع ملكاته وفق معطياته في علاج ضرر

[39] - مجلة البيان، العدد 223، ص24.

المخيفات القائمة، أو الوقاية من المخيفات الاحتمالية التي يمكن أن تحدث مستقبلاً، ولذا لا يمكن أن يخاف أحد من الماضي مهما مرّ به من المخيفات، إلاّ أنّه من خلال الخوف الآني يمكن استذكار مخيفات الماضي خدمة لمنع ما ينبّه عليه الخوف من مخاطر قادمة، ومن هنا يدخل الخوف في بناء مستقبل آمن، وفي صناعة السياسة والاقتصاد والتاريخ بدوافع الخوف التي تسهم في التخطيط الاستراتيجي، وهذا التخطيط بعيد المدى, يضع الخائف فيه مجموع ما نبّه عليه الخوف مستقبلاً من الزراعة والصناعة وبناء السدود والخدمات والتعليم، وكذلك الحرب والسلم والاتفاقات والمعاهدات، والعلاقات الاجتماعية داخل رقعته الجغرافية، والعلاقات الإقليمية والدولية، حيث يضع الخائف خططه الإستراتيجية خوفاً من فقدان ما تمنحه هذه المعطيات من النفع مستقبلاً؛ أو خوف ما يمكن فقدان ما يمتلكه ممّا يعود عليه بالنفع آنيّاً؛ فتكون أهداف هذه الإستراتيجية تحمل تطلّعات الإنجاز التي يحدّدها الخائف وفق رؤية الواقع والاحتمالات المستقبلية، وتقدير المشكلات التي يمكن أن تعوق تحقيقها، ووضع البدائل للاستمرار في إنجاز ما تمّ التخطيط له، والتخطيط الإستراتيجي الذي لا يحفّز عليه إلاّ الخوف، له مراحل وأهداف وغايات مختلفة باختلاف المستوى والطموح والتوجّه بما نبّه عليه الخوف من مخاطر حضارية أو دينية أو ثقافية أو عسكرية أو اقتصادية، والحركة الإستراتيجية التي يمكن أن تمنع وقوع الخطر الذي كان الخوف منبّهاً عليه ومحفزاً للتهيؤ والاستعداد في مواجهته، لا بدّ أنّه انطلق ممن هو أشدّ خوفاً، وبالتالي فمن يكون أشدّ خوفاً من الآخرين . أي من يحفّزه خوفه على مواجهة المخاطر . فهو أعظم وعياً من

الآخرين، لأنّ المنطلقات الخوفية التي ترسم استراتيجيات المستقبل لدفع مخاطره، تشكّل نهضة مستقبلية لا تنطلق إلاّ من نقطة مضيئة تسكن في نفس إنسان يحفّها الخوف، الأمر الذي جعله مفكّراً بوضع تصوّرات الحلّ الخاص بهذه القضية أو تلك، ويبدأ التخطيط لواقع محدّد وظرف محدّد وفق رؤية أملاها عليه خوف المخاطر والأضرار التي تقع ضمن دائرة الممكن المتوّقع وغير المتوّقع.

هذا المستوى من التخطيط القائم على احتمال الخطر المستقبلي بدافع الخوف، يُطلق عليه التخطيط الاستراتيجي؛ فيضع تصوّرات وأفكاراً وحلولاً في مديات زمنية منظورة للخائف وفق المخاطر التي وقف عليها من خلال خوفه، لكنّه تخطيط ينظر إلى الظرف والزمان والمكان والبيئة والاتجاه بتحديد ودقّة قدر المستطاع، وهذا التخطيط الاستراتيجي يكون قائماً لدى الخائف في عالم التصوّرات والأفكار قبل الدخول في عالم التنفيذ، لأنّه يدرك من خلال خوفه أنّ لكلّ قضيّة ظروفها ومعطياتها وسبل التعامل معها والأسباب التي يمكن الأخذ بها، والمسببات التي يمكن أن يمنعها إمّا بالسيطرة عليها احتمالاً قائماً، وإمّا بمنع حدوثها احتمالاً افتراضياً وفق الإستراتيجية بما تحمل من خطط بديلة.

وبهذا يكون الخوف قد أعطى الإستراتجية أبعاداً واسعة ومديات رحبة من حيث:

أوّلاً: الخوف يدفع إلى التفكير العقلاني المنظّم الذي يصنع القرارات ويؤدّي إلى وضع حلول مستقبلية لمشكلات ومخاطر قائمة في دائرة الممكن .

ثانياً: يؤدّي الخوف إلى الجمع بين الخبرة والمعرفة والمهارة، مع البحث عن توفير الأدوات الملائمة للعلاج أو الوقاية.

ثالثاً: الخوف يحفّز استراتيجياً على رسم الصورة المستقبلية لنوعيّة المخاطر والمشاكل من حيث الحجم والزمان والمكان؛ فيبدأ بالعمل على تأمين مستلزمات كلّ نوع لدفع خطره في الوقت المناسب قبل حدوثه أو حال مواجهته.

رابعاً: يدفع الخوف إلى معرفة فرص النجاح من حيث التقدير والاحتمال من خلال افتراضات مصادر الخطر وحجمها.

خامساً: الإستراتيجية التي يحفّز عليها الخوف، تؤدّي بالخائف ضرورة إلى الوصول محطات بعض المحطّات الآمنة على أقلّ تقدير.

سادساً: إنّ الخوف يفرض على الخائف أنّ يفكّر في المستقبل بلغة الحقائق والوقائع والبراهين التي مبعثها تجارب خوفية سابقة.

سابعاً: إنّ الخوف يفرض إستراتجية تسعى إلى التحكّم بالمستقبل بشكل قوي قدر المستطاع، كي لا يفرض المستقبل عليه المفاجآت.

ثامناً: الإستراتجية التي يصنعها الخوف، تعطي الخائف الأمن والطمأنينة على المستقبل وتُأمّنه ضدّ مخاطره.

إنّ الخوف عندما نحسن التعامل معه، ويكون هذا التعامل بالنظرة إلى الخوف على أنّه نعمة عظيمة في حياة الإنسان، ويكون الخائف متفتّح الذهن وخائفاً من مستقبله وخائفاً عليه في آنٍ معاً، ويتعامل مع الخوف بواقعية على أنّه غريزة فطرية إيجابية، سوف يدفعه خوفه أبداً إلى وضع الإستراتجيات الموجّهة ضدّ المخاطر، وبالتالي سيكون الخائف حريصاً على التغيير الإيجابي بشكل مستمر، لأنّ خوفه يعطيه انطباعاً لا نقول

أنّه كاملاً عن الصورة المستقبلية، وإنّما صورة خوفية تجعله لا يأمن مخاطر المستقبل.

إنّ الخوف يولّد الإستراتجية التي تعمل على التخطيط المستقبلي، وتوقّع الأحداث المستقبلية والاستعداد لها خيرها وشرّها ونفعها وضرّها.

الخائف الواعي يصنع الإستراتيجية

ليس كلّ خائف له القدرة أن يستخدم خوفه في صنع الإستراتيجية، وإن كانت مهمة الخوف أنّ صناعة الإستراتجيات من أوّلوياته، لأنّ الخوف هو أولى بها من أيّ عامل أو سبب آخر، غير أنّ الخوف الذي يصنع الإستراتجية يجب أن يكون صاحبه على قدر من التوازن بين العاطفة والعقل والنفس، بحيث لا يحدو به خوفه إلى طغيان عاطفته؛ فيسطر الخوف على العقل بتهؤاءت النفس، ولا يكون العقل منعزلاً عن خوفه و يهمل ما رفده به الخوف من مخاطر، ولا تكون النفس خاضعة لتهؤاءت غير واقعية تدفع بالذات إلى التقهقر؛ فإذا توازنت الذات بالعقل والنفس والعاطفة، كان الخوف مصدراً من مصادر تأمين السعادة، لأنّ الذات تستطيع حينذاك من خلال الخوف وضع الإستراتجية انطلاقاً من أوّليات:

1 . قدرة الذات أولاً على إحداث التغيّرات السلوكيّة تهيؤاً للمخاطر،

2 . الاستكمال التتابعي للإستراتجية، وهو الانطلاق من حيث توقف الآخرون، أو الإفادة من تجاربهم، أو الجمع بين التوقّف والإفادة.

3 . العقلية التحليلية التي تتمتع بقدرة الجمع بين المتناقضات والجمع بينها بعد المواءمة بينها، واختيار خطط احتمالية، ووضع خطط بديلة تكون من خلالها مُسيطرة على الحلّ.

بهذا يصبح الخائف من خلال إستراتجية الخوف، مركزاً من مراكز المعلومات، ورافداً مهمّاً من روافد الحلول، ويكون جزءاً لا يتجزأ من منتجي الحضارة ولوازمها، ويصبح وسيلة فاعلة في إدارة الصراع مع المستقبل والحوار مع الحضارة، ذلك أنّ الإستراتجية التي دفع الخوف إلى بنائها وخطّط لها الخائف، أصبح هذا الخائف جزءاً من البيئة العقلية للمجتمع إن لم يكن هو الأهم، ومنظّراً استراتجياً ارتقى به الخوف، ومفتاحاً من مفاتيح النظام الحضاري، ومرتكزاً من مرتكزات النظام المعرفي الاستقرائي، وحاسة متقدّمة من حواس أصاحب القرارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فإذا وصل الخوف بالذات الإنسانية إلى هذه المرحلة في وضع الإستراتجيات، يكون الخوف قد جعل من الذات مختبراً للفحص والتحليل والاختبار، تضع خططاً وترسم صوراً مستقبلية لأجل تلافي المخاطر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية التي تمكّن من صناعة القرار الاستراتجي تخطيطاً للمستقبل.

وعليه يكون الخوف مدعاة في المبادرة إلى إنشاء مراكز للدراسات الإستراتيجية التي تعنى باستشراف المستقبل بطريقة علمية، ممّا يساهم في التخطيط الجاد وإعداد مستلزمات الطموح في دفع خطر أو كسب نفع، وكذلك تحديد متطلبات المرحلة المتوقّع مخاطرها، ممّا يدفع إلى اختيار الأسلوب الأمثل لاستثمار الإمكانات المتاحة أو الحصول على إمكانات غير متاحة في الآن يمكن للخوف أن يدفع إلى الحصول عليها بطرق مختلفة وبأسباب عديدة، يكون الهدف منها التهيؤ والاستعداد من أجل المواجهة مع المخاطر التي نبّه عليها الخوف، وإستراتجية الخوف تقوم على بناء قاعدة منطقية تتناسب مع خوف المخاطر في دائرة

الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فيدفع الخوف إلى إرساء أسس علمية لقضايا افتراضية انطلاقاً من حقائق ثابتة بعيداً عن الاستعجال والارتجال حتى لا تتحقّق نبوءات الخوف التي نبّه عليها.

ومن هنا يكون الخوف قد صنع إستراتجية تأخذ في بعدها الشمولي الجانب الاجتماعي من حيث التنبيه على المخاطر المستقبلية، ومن ثَمّ تأخذ الإستراتجية بالحسان تربية المجتمع تربية جادة، تتجاوز فيها حياة اللهو والعبث، ويستشعر الخائف مسؤوليته من خلال مخاوفه ومن خلال مصادر هذه المخاوف، وبهذا يكون المجتمع متطلّع إلى مستقبل يأمل من خلال الخوف أنّه قد سدّ بعض الثغرات التي يمكن أن يداهمه منها الخطر، فالخوف الاجتماعي في إستراتجيته واجب عليه أوّل ما ينتبه إلى إنشاء المؤسسات التي تعنى بالأجيال مستقبلاً مثل تأمين المدارس والجامعات ومراكز التعليم والأبحاث التي تتناسب مع مخاوفه ومتطلبات ردعها؛ فإذا تمّ تأمين الجوانب الخوفية الاجتماعية؛ فإنّ ذلك سيكون أسس منطلقات تأمين المخاوف الأخرى، لأنّه أمّن مخاوف الإنسان.

ثمّ إنّ نجاح الإستراتيجية نتيجة الخوف، تتطلّب فهم الظرف والمرحلة والواقع الذي يعيشه الإنسان فهماً جيداً؛ وكذلك استحضار التجارب الماضية سواء على مستوى الذات أم المجتمع أم الإفادة من تجارب مجتمعات أخرى، لأنّ التعامل مع المخاوف في التطلّع من خلالها إلى الطموح، لا يحقّق أهدافه ما لم يعتدّ بالرؤية الواقعية من جانب والاحتمالات المستقبلية من جانب آخر آخذاً بالحسبان الإمكانات المتاحة، ولذا إن لم يقرأ الخائف خارطة الإستراتيجية التي وضعها بكلّ ما يمكن أن تواجهه من تداخلات وتناقضات واحتمالات وأشكال وألوان؛

فإنّ عدم ذلك يؤدّي إلى الفشل إن لم يؤدِّ إلى الكوارث، وإنّ من أعظم القوى التي يمكن أن تضع استراتجيات مخاطر الخوف، هي قوّة العقل والنظر بالبصيرة وليس بالبصر؛ فإن تمَّ ذلك فقد وصل الخائف الي الرؤية الإستراتيجية، ذلك أنّ أكثر الإشكالات المستقبلية التي قد تؤدّي إلى الفشل أو عدم النجاح في دفع المخاطر، تأتي من جهة:

. اختلاف الرؤية للواقع كما هو.

. عدم تمثّله بشكل صحيح.

. النظر إليه من زاوية واحدة.

. عدم الاكتراث بمنبهات الخوف.

إنّ الخائف الذي تتحقّق فيه مرتكزات النظام المعرفي الاستقرائي، والحاسة المتقدّمة لاستشعار مخاطر الخوف عن وعيٍ، هو الخائف الحقيقي الذي يصنع الإستراتيجية ويضع خططها وخطوطها وخيوطها متفرّعة من الكلّي إلى الجزئي إلى المتجزّء.

إنّ صناعة المستقبل يكون بدافع الخوف الذي يدفع إلى وضع الإستراتجيات، لأنّه المحفّز عليها والدافع لها؛ فالتعويل على صناعة المستقبل أو دفع مخاطره، لا تكفيها منبّهات الخوف، وإنّما يضاف إلى ذلك اعتداد بالحاضر وإدراك لصعوباته، وتطلّع إلى المستقبل أملاً في تحقيقه مع وضع فرضياته، وهذا أمر يعزّ إدراكه على الكثيرين، ولذا فإنّ البناء الإستراتيجي يحفّز عليه الخوف، ومن أجل تحقيقه يحتاج إلى رؤية جماعية ذات معايشة وفهم، ودراية ودربة، وتعقل وتجربة، ولذا فإنّ الخوف يصنع الإستراتيجيات، والإستراتيجيات تصنع التاريخ، والتاريخ لا تصنعه الأماني ولا سوء التقدير, وإنّما تصنعه الهمم الصادقة والعقول

الناضـجة والنظـرات البعيـدة والانطـلاق مـن الواقـع فـي التعامـل مـع المستقبل.

الخوف وصناعة التاريخ

إنّ النظرة إلى التاريخ باعتباره مجرد حوادث تتعاقب دون ما ربط جدلي بينها وبين أسبابها ومسبباتها والدوافع التي دعت إلى إيجاد تلك الحوادث بالصورة التي وصلت إليها من جانب تاريخي يعبّر عن مرحلته دون ربطه بالخوف الذي عبّر عنه العقل بعبقريته نظرة تظلّ قاصرة. ذلك أنّ النظرة التجريدية تؤدّي إلى تغييب العلّة التي قام عليها المعلول وظهر بها على أنّه نتيجة تلك الحوادث بأسبابها. غير أنّ تلك النتائج التي تجسّدت تحت مسمّى التاريخ من خلال حوادث سارت سيراً مضطرداً ترتّبت فيه التوالي على الأوّليات ترتيباً منطقياً مطابقاً لترتّب الأسباب على مسبباتها بما أدّى إلى قيام حضارة واندثار أخرى، مطابقاً لتقدم مجتمع وتقهقر آخر.

ولذا فإنَّ منبهات المخاطر تدعو العقل إلى توجيه الإرادة، وتحفّز النفس على النشاط، وبقدر ما يكشف الخوف من أسرار المخاطر، بقدر ما يكون دافعاً للسيطرة عليها إمّا بمواجهتها أو العمل على عدم وقوعها، وذلك عن طريق مصدّات آنية تدفع إليها مخاطر الخوف في حينها، ومن ثمّ تصبح فيما بعد أعمدة قام عليها التاريخ بعد انقضاء الأحداث؛ فالتاريخ هو صناعة لا نقول إنّها بشرية، وإنّما هي صناعة إنسانية بدافع الخوف الذي ارتقى بالإنسان إلى مستوى الحدث، لأنّ كثيراً من البشر يداهمهم الخطر ولا يذكرهم التاريخ.

إنّ عوامل الصراع التي واجهها الإنسان في مسيرة الحياة البشرية من قوّة التحدّي المضادّة المتمثّلة في العوامل الخارجية خاصة، كانت تحسم دائماً لصالح الإنسان؛ لأنّه قادر على مواجهة التحدّيات، وبالتالي كان يتغلّب عليها بأسباب منها:

. أنّه مخلوق قادر على التفكير باستحضار البدائل في مواجهة التحدّيات الخارجية وإيجاد الحلول لها.

. أنّه مخلوق يمتلك من العواطف ما لا يمتلكه مخلوق آخر، تكون هذه العواطف منبّهات له على مواقف من المصالح والمفاسد والمآمن والمخاطر يُحسن التعامل معها من خلال عقله.

. أنّ تلك المواقف . خيرها وشرّها . كانت تصدر عبر التاريخ البشري عن قوى كونية طبيعيّة أو بشرية جماعية أعظم من الفرد، وبالتالي يكون خائفاً أمامها.

إنّ قضيّة استمرار الإنسان في الوجود لها علاقة وطيدة بقضيّة التاريخ وصناعته، وإنّ صناعة التاريخ تقتضى وجود صانع فعّال ومحرّك رئيس للأحداث، وهذا الصانع للأحداث والمحرّك لها هو الإنسان الذي يختلف حضوره الاجتماعي من مجتمع إلى مجتمع، ومن بيئة إلى بيئة حسب تكوينه الثقافي، وحسب التوجيه الذي يخضع له، بما يملي عليه هذا التوجيه في الرغبة والطموح والطمع والقناعة أو أمر بمعروف ونهي عن منكر وما إلى ذلك من أفعال الخير والشرّ والجمال والقبح والفضائل والرذائل، إلاّ أنّه لا يختلف في تركيبه الفكري من ناحية العقل، ولا في بنيته النفسية من جانب العواطف، ولا في خلقه المادي من حيث الجسد، مهما اختلف المكان والزمان والبيئة والمجتمع؛ فالفرد لا يختلف

عن بقية أفراد الأسرة الإنسانية، ومن هنا فالإنسان لا يختلف من حيث الأفراد لأنّه:

. ما يفكّر به إنسان، يمكن أن يفكر به أيّ إنسان في دائرة الممكن.

. ما يفعله إنسان ما، يمكن أن يفعله أيّ إنسان.

. ما يخاف منه إنسان، يمكن أن يخاف منه أيّ إنسان.

فالإنسان باعتباره صانعاً للتاريخ أو باعتباره معطّلاً له، هو العنصر المقوّم الحضاري الأوّل، وهو الهادم له، وكان ذلك من قبيل خوفه من المستقبل؛ فالفلسفات المادية قديماً وحديثاً لا يكاد تنظيرها يفارق المخاطر التي يحملها الخوف، وانطلاقاً من الأفكار والتنظيرات الفلسفية التي يتركّز جلّ اهتمامها على درء المخاطر، فإنّ خوف الإنسان يدفع أفكاره إلى إيجاد نظريات تكون أسساً في التعامل مع مفهوم التاريخ بمعناه الذي يعبّر عن دورة الحياة وما يطرأ عليها من تغيّرات وتبدّلات، نموّاً وازدهاراً وصولاً إلى بناء الحضارات، أو هدماً وتقتيلاً من أجل القضاء على حضارة، وبذلك يكون خوف الإنسان هو المؤثّر الحقيقي في سير المدنيات، وخوفه من الحضارات الأخرى يدفعه أيضاً إلى هدمها والقضاء عليها، وعلى هذا يكون الخوف صانعاً لعوامل التاريخ بداية، ومن ثمّ محرّكاً لها؛ فكما أنّه يسعى إلى بناء حضارة من خلال العوامل التاريخية ومن خلال العوامل التي تؤثّر فيه؛ فإنّه بذات المعطيات وبدوافع الخوف يكون الإنسان السبب الرئيس في جميع المشكلات التي تواجه التاريخ والحضارة والمدنية.

إنَّ مشكلة التاريخ وصناعته والعوامل المحرِّكة له، هي في جوهرها مشكلة الإنسان بالدرجة الأولى، وليس مشكلته مع الآخر، ولأنّ كلّ أنا

تفكّر وتخاف وتعمل، مثل ما تفكّر وتخاف وتعمل أي أنا أخرى، وكلّ آخر كونه إنساناً يفكّر ويخاف ويعمل، كما يفكّر ويخاف ويعمل أيّ آخرٍ آخر؛ فكان الإنسان هو المشكلة في محاولته السيطرة على حركة التاريخ والعوامل المحرِّكة له بدافع خوفه.

ولذا لا يمكن للمنطلقات الفكرية أو التنظيرات الفلسفية أن تفهم حقيقة صناعة التاريخ والعوامل المحرّكة له على الرغم من عزوِ ذلك إلى عوامل اجتماعية وقومية ودينية، أو إلى الأسباب الجدلية المادية وعواملها أو أن رأس المال وحده قادر على أن يدير عجلة التاريخ، وأسباب أخرى مساعدة لِما ذكرته تلك التنظيرات والفلسفات.

غير أنّنا إذا أخرجنا الماديات من الوعي وعدم الإدراك، لم يبقَ إلاّ الإنسان الذي يُخضع جميع ما ذكر من العوامل لإرادته ويجعلها تحت تصرّفه بدافع من مخاوفه ما لم تعلم أنّ الخوف هو العامل الذي يعمل فيما ذكرت التنظيرات والفلسفات من عوامل محرّكة للتاريخ، وبهذا تجعل تلك التنظيرات فرداً واحداً يحكم سيطرته على العوامل المحرّكة للتاريخ، ومن هنا نتبيّن أن تلك المنطلقات النظرية والمذاهب الفكرية والفلسفات الوضعية قد عقّدت القضية أكثر ممّا قدّمت لها حلولاً أو إجابات عليها، ذلك أنّ الفرد الذي يحكم سيطرته على العوامل المحرّكة للتاريخ، إنّما ينتمي إلى وعي جمعي تحفّه المخاوف، وهذا الوعي استوعب المخاوف بوعي جمعي وإن كان التعبير عنه من خلال فرد صاغ أفكاره عن تلك المخاوف وعبّر عنها وتصدّى لها بالحلّ التاريخي، حيث ارتقت به مخاوفه وارتفعت به أفكاره إلى مستوى الأحداث الإنسانية، وبنظرة متعمّقة من التبصّر في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها،

دفعت به الأحداث إلى اتخاذ القرار باستخدام العوامل المحرّكة للتاريخ التي دفع الخوف إلى استخدامها؛ فكانت صناعة التاريخ بعد مرور الحدث من مجريات الخوف مكونة للحضارة أو قاضية على حضارة، وما الحضارات المعاصرة، والحضارات الضاربة في غابر الأزمان، والحضارات المستقبليّة التي ستظهر للوجود، إلاّ نتاج صناعة من التاريخ بما يشعر به الخوف من مخاطر، ولذا فعناصر الملحمة الإنسانية التي صدرت عنها الحضارات منذ فجر التاريخ وما سوف يتلوها إنْ هي إلاّ حلقات لسلسلة ارتقت إلى المدنية بعد أن أصبحت حضارة بفعل تاريخي تمّ السيطرة على العوامل المحرّكة له بالدوافع التي يكشف الخوف عن مخاطرها للإنسان، ورجل التاريخ وصانعه من يحمل مخاوفه على محمل الجدّ ليرتقي بصناعته إلى الحضارة التي تخدم الإنسانية من خلال خوفه عليها.

المستويات القيمية للخوف

هناك خمسة مستويات قيميّة للخوف هي:

1 . الخوف الذاتي.

2 . الخوف الإنسحابي.

3 . الخوف الأناني.

4 . الخوف التطلّعي.

5 . الخوف الموضوعي.

المستوى القيمي للخوف الذاتي

الخوف في النفس الإنسانية فطريّ المنبت، فلا يمكن اصطناعه كما هو حال الجبن الذي يمكن اصطناعه في كثيرٍ من المواقف، ومع أنَّ الخوف واحد إلّا أنَّه على مستويات من القيم التي يمتدّ في كلّ واحدٍ منها حسب المعطيات والظروف والقدرة والاستعداد ودرجة الثقة في النفس وفي الآخرين.

ولذا فالمستوى القيمي الذاتي للخوف لا يخرج عن كونه درجة عالية من الحرص على المكوّن الاجتماعي (الذات العامة للأمّة) التي من أجلها يسعى الفرد ويعمل ويُصلح ويشهد الحقّ ويقوله ويعمل من أجل إحقاقه، ولكن بمقارنة ما يجب تجاه الأمّة مع ما يجب تجاه الآخرين لا مقارنة. حيث ظهور الانحياز لأبناء الأمّة أو بعض منهم ضد الآخرين وإنْ مال الحقّ إليهم.

ولهذا فالمواطن الحرّ يشتدّ خوفه بالمكوّن الذاتي تجاه وطنه؛ فيضحي من أجله، ويحرص على تقدّمه، ويعدّ العُدّة ليرهب بها من أعدّ له عُدّة، ويقبل الموت في سبيل تحريره إنْ تعرّض إلى احتلال من عدوٍ.

وعليه: فالذي يخاف على وطنه ينال التقدير والاحترام، ومن خاف على وطنه سلم، وسلم وطنه، ومن لم يخف عليه، لا يستغرب إن أحتُلّ ممّن يمتلك القوّة ولا يمتلك الأخلاق.

ولكن من الذي يخاف على وطنه؟

الذي يتشرّب قيم المواطنة وأخلاق المجتمع وفضائل الأمّة حتى يبلغ شعوره تجاهها وكأنّه الأمّة بأسرها؛ فيتألم لآلامها، ويأمل في تحقيق آمالها.

ومع أنَّ مثل هذا المواطن له من الرقي القيمي والأخلاقي، إلّا أنّ خوفه على وطنه لا يرتقي شعوراً متساوياً تجاه أوطان الآخرين، ممّا يجعله على غير موضوعيّة فيما يقوله ويفعله تجاه الغير.

وهنا يتّضح المستوى القيمي للخوف بأنّه لم يتجاوز المستوى القيمي للذات (المتكونة من قيم المجتمع وأعرافه وأماله وآلامه).

ومع أنَّ الذات ترتبط بالمفرد المؤنث؛ فهي تحتوي على المختزل المذكر والمؤنث، كما تختزل الحُجرة كمؤنث على الجدران المذكرة المتكوِّنة منها، التي أعطتها صورتها الكاملة، وكما يحتوي جسد الإنسان المذكّر على أعضاء مؤنثة، كالعينين والأذنين، واليدين والرقبة، وهكذا جسد الإنسان المؤنث، يحتوي على أعضاء مذكّرة، كالرأس، الساقين، الذراعين، القدمين، القلب، وغيرها.

إذن الذاتيّة مستوى معرفي إدراكي؛ فالذات المدركة هي التي تعرف أنّها تعرف أنَّ التمركز على معرفة الذات لذاتها يؤدّي إلى تمركز المعرفة على ما يجب وما لا يجب اجتماعياً، ولكن ليس دائماً كلّ ما يجب على المستوى الاجتماعي هو ما يجب على المستوى الأخلاقي والإنساني؛ فللعصبيّة دورها الانحيازي في بعض الأحيان خاصة عندما تخاف الآخر.

وبالتالي فالمكوّن الذاتي بالنسبة للمجتمع الذي تنتمي إليه الذات لا يتعارض مع ما ترغبه العصبيّة أو تُفضّله.

وعليه: تتكون ذات الإنسان من قيم المجتمع، من أوامره ونواهيه، ممّا يحب وممّا يكره، ولذلك تتوحّد آمال وآلام المجتمع ودينه في الفرد إلى درجة تتساوى عنده كفتا الحياة والموت من أجل مجتمعه أو وطنه أو أمّته؛ فيكون الفرد وكأنّه مجتمعاً بأسره، أو أمّة بكاملها نتيجة بناء شخصيّته على ما تشرّبته من قيم وأخلاق ونظم وأعراف وعادات وفضائل وتشريعات اجتماعيّة؛ فيصبح لسانه لسان حالها وسلوكه سلوكها، وفعله من الأفعال التي ترتضيها. ولذا فإنَّ الذات مكوّناً قيمياً اجتماعياً على مستوى الخصوصية وليس مكوناً فردياً، فعندما تتجسّد

الذات في السلوك، لن تجد الأنانية (الشخصانية) مكاناً لها بين الناس، وعندما تتكوّن في الإنسان بأماني المجتمع، تزيل عنه الأنانية وتغرس فيه الأمّة بقيمها، أو الوطن بكامله، ولهذا يكون الفرد وكأنّه أمّة بحالها، وتكون الأمّة وكأنّها الفرد بحاله، وليس بشخصانيّته.

ولسائلٍ أن يسأل:

وما هو الشيء الذي يجعل من أفراد وحدة وعصبيّة؟

نقول:

الخوف من المحيط البشري ومن المستقبل غير المأمون الجانب.

ولذا فإنَّ تمسّك الفرد بالدين والعرف والقيم التي تُميِّز شخصيّته عن غيره لا يُعدّ تمسّكاً شخصانياً، بل يعدّ فعلاً ذاتياً وليس خاصاً، ولذلك عندما تتمسّك الذات بقيمها الاجتماعيّة وتمارسها بوعي، فإنَّ هذا التمسُّك والسلوك يُعدّ سلوكاً اجتماعياً عاماً، تقابله ردود أفعال اجتماعية مُرضية، وهذه ردود الأفعال المرضية محفِّزة لمشاعر الاعتراف والتقدير التي تحقّق الاعتبار الاجتماعي للذات سواء أكانت ذات فرد أم ذات جماعة أم ذات مجتمع بأسره.

إذن الذات مكوّن قيمي اجتماعي فيها تنمو المخاوف على الأقارب كما تنمو عاطفة الأمومة والأخوة والعمومة والجيرة التي بها يتمّ تجنب الوقوع في المخاطر، ولذا فالخوف قوّة تدفع الإنسان إلى البحث عمّا يجنّبه ويجنّب مجتمعه المخاطر؛ فلا منقذ من الخوف إلا باستشعار الخوف ذاته وما يترتّب عليه من مخاطر إن لم تؤخذ الحيطة والحذر؛ ولهذا فالذات مكوّن اجتماعي يتحسّس أهمية القيم ويعمل على تقديرها والالتزام بأوامرها ونواهيها، في حدود ما يُرضي الأخلاق والعقل الاجتماعي.

إذن عندما يمارس الفرد السلوك الاجتماعي وفقاً لمرضيات العقل الجمعي، ينال التقدير والاعتراف والاحترام من قبل أفراد المجتمع، ما يجعل الاتصاف بالذاتية على المستوى الاجتماعي لا يُعدُّ عيباً كما يعتقد البعض من الباحثين، بل إنّه دالة على أهمية التفاعل الاجتماعي في خلق الشخصية المعتدلة بيئياً.

الذاتية المعتدلة نقطة ارتكاز اجتماعي حيث ارتباطها بالموضوع القيمي الذي لا تنفصل عنه اجتماعياً. إنّها المفردة التي تدلُّ على (نحن الجمع)؛ فالباحث عندما يجري بحثاً ينبغي ألّا ينسلخ عن هويّته (الذات الواعية)، بل ينبغي عليه أن يتمسّك بما يُميّز هويّته عن هويات الآخرين التي تميّزت هويّاتهم هي الأخرى بما تمتاز به من قيم وفضائل.

ولسائلٍ أن يسأل:

. ما هو العيب في أن يتمسّك الفرد بقيمه ودينه؟

لا عيب في ذلك، بل العيب إنْ كان فيهما عيباً أن يتّخذهما قيماً ويرتضيهما ديناً.

إذن لا يمكن أن يكون الإنسان ذاتياً ما لم تتجسّد قيم المجتمع في أفعاله وسلوكه، ولذا فإنَّ الذاتية يمكن أن تكون على مستوى الفرد، ويمكن أن تكون على مستوى الجماعة، ويمكن أن تكون على مستوى المجتمع بأسره.

وعليه فإنَّ الذاتية تحتوى عناصر القوّة والضعف، وقد يتمّ التمسّك بها كما هي لا كما ينبغي أن تكون عليه، وقد يتمّ تجاوزها إلى ما هو أفضل، وفي هذه الحالة يحدث التغيّر إلى ما هو أفضل على المستوى الإنساني، وتصبح الحالة التي كانت عليها حالة الفرد أو الجماعة أو

المجتمع تميل إلى ما هو أفضل (التطلّعيّة) التي تحتكم بكلّ ما هو منطقياً. وفي مقابل ذلك قد يلاحظ أنَّ البعض غير قادر على المحافظة على الذاتية، وفي ذات الوقت غير قادر على الميل إلى الموضوعية (التطلّعيّة)، ولكنّه قادر على فعل جديد هو الميل إلى الفعل الإنسحابي. إذن الذاتية هي نقطة الاعتدال والاتزان الاجتماعي والانفعالي والنفسي، وهي مجال وعي الإنسان بإمكانياته في ضوء إمكانيات الآخرين والتصرّف وفقاً لهذا الوعي في حدود ما يجب وما لا يجب، ولذا فالذات هي مجال لامتداد الشعور الاجتماعي تملؤه المخاوف حرصاً على وحدة المجتمع وقوّته؛ فترتبط بقدرات واستعدادات الشخصية ودرجة التزامها بالقيم المفضّلة عند المجتمع. وعندما تلتزم الشخصية بأوامر المجتمع ونواهيه تصبح شخصية متّسقة، حيث تتّسق فيها الأنا مع نظم المجتمع ومعاييره وقيمه المعتمدة بإرادة، وعندما تشكّل قيم المجتمع الإطار المرجعي للإنسان، تسلك الشخصية سلوكاً ذاتياً؛ فتوصف بالذاتية، وعندما لا تلتزم بهذا السلوك وتبتعد عنه بسلوك انسحابي، تُقيّم الشخصية في هذه الحالة على أنّها حالة إنسحابيّة، وإذا لم تتوقّف عند نقطة معينة، لابدَّ أن تصل إلى مستوى أقل أو حالة أقل توصف بأنّها حالة أنانية.

ولهذا فالأنانية لا تكون إلّا بأسباب الجبن الذي يؤدّي إلى قبول أمر الواقع وإن كانت نتائجه سلبية، ولا خروج من الأنانية إلّا باستشعار الأنا للخوف من مخاطر الآخرين؛ فعندما تسود معايير الأنانية تسود الشخصانيّة، وعندما تسود معايير الذات تسود الذاتية، وهكذا عندما تسود المعايير الإنسحابية والمعايير المنطقية والموضوعية تسود

بالضرورة الشخصيات المماثلة لها. ولهذا تعدّ الذاتية شعرة توازن كفتي الميزان الاجتماعي، فعندما يكون الضمير هو المعيار العام لأفراد المجتمع، يصبح الإطار المرجعي لهم هو الموروث المشترك بينهم بإرادة، وتصبح الذاتية هي نقطة تمركز الفكرة، وعندما تميل عن نقطة التمركز هذه لابدَّ أن تميل إلى ما هو سالب في حالة تغلّب النفس الإنسحابية، أو تميل إلى الموجب في حالة الاعتماد على الأحكام المنطقية التي يتمّ فيها الاستماع للآخر وأخذ رأيه فيما يتعلّق بالأمر المشترك.

ولهذا فالذاتية بما يملؤها من خوف تستطيع أن تجسّد سلوكاً للموروث الاجتماعي الفكري والثقافي، وكلّ شيء بالنسبة لها على المستوى الذاتي قابل للنقاش والحوار والموافقة وعدم الموافقة، شريطة أن لا يتعارض مع الإطار المرجعي للمجتمع المحقّق للاعتبار الفردي والجماعي والجمعي.

وننسى العلاقة الوثيقة بين الذاتية والحاجة إلى التقدير والاعتراف؛ فالذي تتوحّد فيه قيم الأمّة ومعانيها يصبح حاله حالها ولسانه لسانها ما يجعله وكأنَّه أمّة بحالها، كما هو حال سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان أمّة قانتاً لله.

وعليه: فالاعتراف والتقدير منزلة للهويّة الاجتماعية ومطلب نفسي للذات، يحقّق بأسباب الخوف الذاتي الرضاء على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي، ولذا فالخوف من التهميش والتغييب هو الذي يدفع الأفراد والجماعات إلى عمل كلّ ما من شأنه أن يُمكّنهم من نيل المنزلة والرضا من الآخرين أقارب وأباعد.

ونظراً لأهمية ذلك للذات جاء الخوف المولود الأول للاعتراف والتقدير، وإلّا لماذا الخوف؟

الخوف من أجل نيل الاعتراف ونيل التقدير؛ فالعبد على سبيل المثال يسعى لينال الاعتراف والتقدير من سيده، ولهذا يكدّ ويجدّ في الإخلاص والعمل، كما جدّ عنترة بن شداد حتى انتزع من سيده ورجال قبيلته الاعتراف والتقدير بالذود والتفاني في حماية شرف الذات الاجتماعية، خاصة على مستوى القبيلة (المكوّن الذاتي لأفرادها).

الذات مكوّن علائقي بين الأنا وغاياته وأماله وبين المجتمع وأعرافه ومعتقداته وأنساقه القيمية، ولهذا لا تعدّ الذات من مواليد الطبيعة، فهي مجال الحركة والامتداد السلوكي لكلِّ خصوصية اجتماعية. فأنا (i) كفرد وأنا كوطن وأنا كدين وعرف تجعل لي ضمير المتكلم (me)، ولا قيم لأنا إلّا بالمعنى المصاحب الذي يميّزني عن أنت ويميّزنا عن الآخر (هم) فعندما يتوحّد الموضوع في (أنا وأنت وهم)، يصبح حال الجميع على الضمير (نحن) اللسان واحد والقضية واحدة والعرف والتقاليد (هي هي) ممّا يجعل الكلّ من حقّه أن يقول في الوقت الواحد (أنا) ويقول (نحن)، نحن الشركاء، وأنا الشريك، وأنت شريكي. إنّها المكونات الذاتية التي جعلت بين الجميع الضمير الاعترافي (نحن) بإرادة، وعندما يحيد أحدٌ عن (نحن) الضمير المشترك بإرادة يحدث الانحياز والميل السالب أو الميل الموجب، وذلك حسب الموضوع المنحرف عنه والموضوع المنحرف إليه؛ فإذا كان الميل من موضوع موجب إلى موضوع آخر موجب يعدّ الميل أو الانحراف موجباً وفقاً لدرجة الخوف ومستواه القيمي (ميلاً منطقياً) وتعدُّ الحالة (متطلّعة)،

وإذا كان الميل من موضوع موجب إلى موضوع أكثر إيجابية يكون الميل والانحراف موجباً وتوصف الحالة (بالموضوعية) التي تمّ بلوغ مستواها القيمي بأسباب شدّة الخوف. أمَّا إذا حدث الميل من موضوع موجب إلى آخر سالبٍ؛ فإنَّ هذا الميل يُعدُّ سالباً وتوصف الحالة بالإنسحابية (ذاتية تميل إلى الأنانية) حيث قلّة الخوف، وإذا كان الميل أو الانحراف من الحالة الإنسحابية إلى الحالة الشخصانية؛ فإنَّ هذا السلوك يجعل الحالة أو الشخصية في المستوى الأدنى (مستوى الأنانية) التي لو كان لها من الخوف قوّة، لكانت في غير ما هي عليه من شخصانية.

وهنا تُعدّ الذاتية نقطة التمركز باعتبارها مكمن الحقائق، والحقائق هي التي تُظهر الحالات والمواقف والمواضيع على ما هي عليه، ليس كما يجب أن تكون بمنطق القيم الاجتماعية (الخصوصية)؛ فهي التي تتماثل مع الفعل أو السلوك سواء أكانت هذه الحقائق موجبة أم سالبة، ولهذا يكمن في الذات كلّ من الموجب والسالب، ولكن ما يظهر منها قد لا يكون مطابقاً لما هو كامن؛ فالحقيقة الكامنة في الصدور عندما تتماثل مع السلوك أو الفعل تؤدّي إلى معرفة، وكذلك الحقيقية الكامنة في الصدور عندما لا تتماثل مع السلوك تؤدّي هي الأخرى إلى معرفة.

وعليه: لكلّ حقيقة سلوك، ولكلّ معرفة سلوك، ولكن ليس بالضرورة أن يتماثل السلوك والفعل الظاهر مع الكامن المعرفي؛ فالذي يتشرّب المعرفة التي تجعل من الآخر طرفاً سالباً أو معادياً، لابدّ أن تكون له ذات منحازة، والذي تتكون عنده الذات المعترفة بالآخر لابدّ أن تكون له ذات استيعابية، وهكذا حال الذي يتشرّب معلومات متناقضة تكون ذاته

متناقضة فيسلك أفعالاً غير متّزنة (تميل أحياناً إلى ما هو موجب وحيناً آخر تميل إلى ما هو سالب)؛ فإذا اعتبرنا إعطاء الضريبة واجب على القادر، فبالضرورة نعتبرها حقّ لمن يستحق؛ فعندما تُعطيها الذات بإرادة للمستحق، تصبح الذات في حالة ميل إلى الموضوعية، وعندما تمتنع عن إعطائها تصبح الذات في حالة ميل إلى الأنانية.

ولهذا فالذات التزام رقابي بضمير (نحن) على المستوى الاجتماعي متساوون فيما يجب، وعلى مستوى غيره نفترق، وهنا تكون الذات بلا موضوعيّة، وذلك لميلها وانحيازها ضدّ الآخر وإن كان له من الحقّ ما يجب إعطاؤه؛ أي أنَّ شدّة الخوف الفردي على العشيرة أو القبيلة أو المجتمع أو الوطن أو الأمّة لا يتساوى شدّةً مع الخوف على الآخرين، وذلك بأسباب العاطفة التي تميل كلّما سنحت الفرصة إليها.

ولمعرفة درجات الاعتدال من عدمه ينبغي أن نتعرّف على مكامن الخوف من خلال كشف العلاقة المترابطة بين الذاتية وبين مثلث التوازن القيمي (مثلث ممارسة الديمقراطية) المتساوي الأضلاع Equilateral الذي فيه:

. الضلع (أ ب) مجسّد للحقوق.

. الضلع (أ ج) مجسّد للواجبات.

. الضلع (ب ج) مجسّد للمسؤوليات.

وتُجسّد كل زاوية من زوايا المثلث (ا ب ج) المتساوي الأضلاع العلاقات بين كلِّ ضلعين من أضلاع المثلث.

ولأنَّ المثلث متساوي الأضلاع؛ فإنَّ تساوي زواياه يعني تساوي العلاقات بين أضلاعه الثلاثة: الحقوق، والواجبات، والمسؤوليات كما هو مبين من الشكل رقم (1).

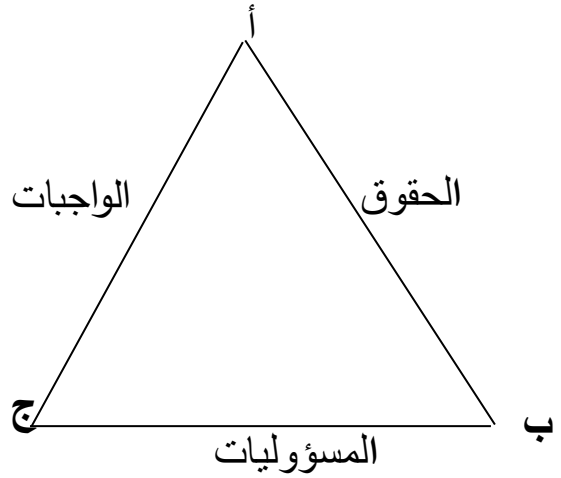

الشكل رقم (1)

الخوف من أجل الحقوق والواجبات والمسؤوليات:

تتماثل مطالب الذات ورغباتها وأمانيها مع مثلث ممارسة الديمقراطية (مثلث التوازن القيمي)، وهذا ما يجعل ممارسة الديمقراطية حقاً ينبغي أن يؤخذ، وواجباً ينبغي أن يؤدّى، ومسؤولية ينبغي تُحمْل، ولذا سيظل الخوف سائداً إنْ لم تمارس الذات حقوقها وسيظل سائداُ إنْ لم تؤدّي واجباتها، وسيظل سائداً إنْ لم تحمْل مسؤولياتها، وإلّا هل يمكن أن تمارس الديمقراطية بدون مسؤوليات واجبة الحمْل؟ أو حقوق واجبة الأخذ؟ أو واجبات واجبة التأدية؟

في اعتقادنا بما أنَّها الديمقراطية؛ فإنَّه من غير الممكن، لأنَّ حذف أيّ ضلع من أضلاع المثلث لابدَّ أن يخلَّ بشكله وزواياه المتساوية، وحذف

أيّ ضلع من أضلاع المثلث يجعل زاويتين من زوياه في خبر كان، ممّا يجعل البرهنة على التساوي منعدمة في مثلث ممارسة الديمقراطية.

وبناء على ما سبق قد يتساءل البعض:

هل يمكن أن يُزاح الخوف من الذات في حالة انعدام المساواة بين زوايا وأضلاع مثلث ممارسة الديمقراطية (المثلث المتساوي الأضلاع)؟

نقول:

بالتأكيد سيشتدّ الخوف وتُفقد الثقة ممّا يجعل الذات متطرّفة وغير مسؤولة عمّا يجري من فساد وإخلال بالأمن وتسيب إداري مع عدم جودة فيما يُنتج؛ فالديمقراطية بالنسبة للذات= (حقوق + واجبات + مسؤوليات)، وهذا يعني:

ممارسة حقوق + أداء واجبات = ديمقراطية . حمْل المسؤوليات الذاتية= (خوف).

حقوق + مسؤوليات = ديمقراطية . واجبات ذاتية= (خوف).

واجبات + مسؤوليات = ديمقراطية . حقوق ذاتية= (خوف).

ممارسة حقوق + أداء واجبات + حمْل مسؤوليات= (سكينة)

إذن بطبيعة الحال إنْ تحقّقت الديمقراطية للذات تحقّقت لها السكينة.

وعليه أتساءل:

1 . ما المسمى الذي سيطلق على الديمقراطية عندما تصبح في حالة ناقص مسؤوليات ذاتية؟

2 . ما المسمى الذي سيطلق على الديمقراطية عندما تصبح في حالة ناقص واجبات ذاتية؟

3 . وما المسمى الذي ينبغي أن يطلق على الديمقراطية ناقص حقوق ذاتية؟

في اعتقادنا أنَّ الإجابة عن الأسئلة السابقة هي التوازي، أي أنَّ الديمقراطية في السؤال الأول في حالة توازٍ مع الحقوق والواجبات، وكذلك هي في حالة توازٍ مع الحقوق والمسؤوليات في السؤال الثاني، وأيضاً هي في حالة توازٍ مع الواجبات والمسؤوليات في السؤال الثالث. ولأنَّها في حالة توازٍ، إذن لا يمكن أن تلتقي مهما امتدت على بساط المساواة، وهذه النتائج تؤدّي إلى ميولات سالبة ما يجعل السلوك في حالة ذاتية تميل إلى الأنانية، وقد يصل الحال إلى مستوى السلوك الشخصاني؛ فالذاتية بلا مسؤوليات تكون ذات في حالة ناقص، وذات بلا واجبات تكون هي الأخرى ذات في حالة ناقص، وهكذا عندما تكون بلا حقوق تصبح ذاتاً أو شخصية في حالة ناقص. ولكي تكون الشخصية في حالة الموجب، ينبغي أن تمتلك مثلث ممارسة الديمقراطية الذي يمكّنها من ممارسة الحرية بأسلوب ديمقراطي، ويصبح لها دور فعَّال في أداء الواجبات، وممارسة المسؤوليات وتحمُّل أعبائها، وأخذ الحقوق بلا منة من أحد.

إنَّ امتلاك كلّ مواطن حقوقه، وأداءه واجباته، وتحمّله مسؤولياته، تجعل أضلاع المثلث متساوية، وزواياه متساوية، وفي الوقت ذاته تجعل الذات في حالة اعتدال واتزان وسكينة وأمن وطمأنينة، ما يجعل المواطنة بالنسبة لكلّ ضلع من أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع هي ⅓ واحد على عدد المواطنين، وعندما يمتلك كلّ مواطن مثلثاً تصبح العلاقة بين المواطنين =(⅓) أي تقسم الحقوق والواجبات والمسؤوليات

على عدد المواطنين بالتساوي، مساواة في الحقوق، ومساواة في الواجبات، ومساواة في المسؤوليات. ولا يميّز أحد عن آخر إلّا الدور الذي يؤدّيه كلّ منهم، فدور الأبوة والأخوة ودور المعلمين، ودور المكلّفين بمهام إدارية سواء في مؤسسة حكومية أم في شركة خاصة، لابدَّ أن يكون مختلفاً وفقاً للدّور الذي يتأثّر بالمهنة أو الوظيفة أو المؤهل والتخصّص أو نسبة المشاركة في الملكية في كثير من الأحيان.

ولتبيان ذلك أتناول كلّ ضلع على حدة وفقاً للآتي:

أولاً: الضلع (أ ب) وهو المكوّن للحقوق Rights:

الحقوق كما ورد في لسان العرب هي "جمع حقّ وهي نقيض الباطل"[40].

ومع أنّ لسان العرب قد عرّف الحقّ بمناقضته للباطل إلّا أننا نقول: الحقّ لا يناقضه باطل؛ فالباطل هو دائماً ما دون الحقّ، ولذا فلا يمكن له أن يساويه في القوّة والقدرة حتى يقال أنّه يناقضه، وهو أيضاً لم يكن عكسه دلالة ومعنى، ولأنّه كذلك فهو دونه ولا يمكن له أن يناقضه، مصداقاً لقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ}[41]، أي أنَّ الحقّ واحد لا يتبدّل ولا يتغيّر ولا يتعدّد، ولكن ما دونه يتغيّر ويتبدّل ويتعدّد، ولذا فالدائم ثابت والمهتز منتهٍ، ولهذا لا يمكن أن يناقض منتهٍ دائماً أو ثابتاً (متغيّر ثابتاً).

وعليه عندما يجئ الحقّ قوّة وقدرة يُزهق الباطل، ولكن إن جاء الباطل أو ساد فساداً في الأرض ثمّ جاء الحقّ قوّة وقدرة وأمراً؛ فيكون أمراً نافذاً

---

[40] لسان العرب.

[41] الحج 62.

(هو كما هو) إزهاقاً للباطل، {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[42]، أي أنّ طبيعة الباطل هي الزهق، ولذا عندما يظهر الحقّ بيّناً فلا ظهور لباطلٍ في المواجهة، أي الحقّ لا يواجهه باطل ولا يحلّ محلّه قوّة وقدرة وتساوٍ.

فالحقّ كينونة بقاء، والباطل صيرورة وانتهاء، {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[43].

وعليه إن لم يكن الخوف سائداً في الأنفس لا يمكن أن تؤخذ الحقوق أو تمارس وفقاً لاشتراطاتها الرئيسة، وهي:

1 . الحاجة:

الحاجة بأسباب الخوف دائماً تدفع المحتاج إلى البحث عن المشبعات؛ فهي عوز ونقص يصاحبه شعور بالخوف وعدم الاطمئنان، ويترتّب عليه توتّرات نفسية تدفع المحتاج إلى البحث عن مصادر الإشباع أو إلى الآخر الذي يُمكّنه من المساعدة المحقّقة للإشباع؛ فالحاجة قد تقتصر على الفرد كمفردة، وقد تتعدّاه إلى كلِّ من يشاركه فيها؛ فعلى مستوى الذات: كلّ المواطنين في حاجة للأمن وفي حاجة للتعليم والصحة والعمل، وفي بيئة سليمة، وفي حاجة للسكن والتنظيم الذي يمكّنهم من الحركة الفاعلة. ولأنَّه من الطبيعي أن تُشبع الحاجات، إذن ما يشبع الحاجة هو الحقّ الذي ينبغي أن يؤخذ بإرادة أو بغيرها.

2 . الرغبة:

---

[42] الإسراء 81.

[43] الأنفال 8.

قوّة عقلية موجهة لهدفٍ محدّد أو موضوع بعينه، وإحساس نفسي تدفعه قوّة الخوف تجاه الآخر، وشعور بالميل إليه، وهذا ما يجعل روح التجاذب تحرّض على المتابعة والاقتراب ممّن تتوافر فيه اشتراطات الإشباع المرّضي، ومفهوم الرغبة يحتوي على جملة من المطالب، التي يقرّرها الإنسان في حينها، أي في حين الحاجة إليها. وبما أنَّ للإنسان حاجات طبيعية، إذن ينبغي أن يكون له الحقّ في إشباعها بما يتراءى له، لا كما يتراءى لغيره دون أن يمتدّ خارج حدوده، ولهذا يترتّب على الرغبة حرّية الاختيار التي تعدّ حقاً لكلِّ إنسان ذي علاقة بالموضوع.

3 . الإرادة:

تُعدّ الإرادة نشاط عقلي على درجة عالية من الوعي؛ فيتمكّن من خلالها الفرد من اتخاذ القرار بحرّية، ويتمكّن من خلالها من الإقدام على أداء الفعل، وفي ذات الوقت يمتلك صاحب الإرادة المقدرة على الفعل والعمل والسلوك. والذي لا إرادة له لا حرية له، ولأنَّ أمر الإرادة يتعلّق بالحرّية، إذن لا ينبغي لأحدٍ أن يسلبه هذا الحقّ، ولذا فمن يقدِم على ما يقدِم عليه بإرادة، لا قوّة تدفعه لذلك إلا الخوف من أجل بقاء الإرادة حرّة بين يديه.

ولأنَّ الذات مكوّن قيمي اجتماعي، فهي لا تتكون إلّا بإرادة ووفقاً للحاجة والرغبة المدفوعة بالخوف، وحتى لا تُفرض الأمور فرضاً ينبغي أن تترك للاختيار الذي يبرز أهمية الإرادة في التمييز واعتبار الذات. ومع أنَّ للإنسان حقوقاً تستوجب الممارسة، إلّا أنَّ هذه الممارسة لا ينبغي أن تكون على حساب الآخر الذي له علاقة قيمية وعقائدية وعرفية بالإنسان الممارس لها.

4 . الطلب:

نظراً للإحساس بالحاجة والتعرّف على بواعث إشباعاتها، تصبح المطالبة بالمشبع حقّ لا يمكن التخلي عنه، ولا يهدأ البال وتطمئن النفس من المخاوف إلّا بأخذ ما يشبع ويحقّق الرضا.

إذن هناك علاقة بين الذات الخائفة، وما يحقّق لها السكينة من ممارسة حقوق؛ فالذات لا يمكن أن تكون آمنة مطمئنة إلّا وهي تمارس حقوقها (هي كما هي)، ذلك لأنَّ ممارسة الحقوق هي التي تجعل للذات اعتباراً، ولهذا لا يمكن أن تنفصل الذات عن ممارسة حقوقها، وإذا حاول أحد عزلها عنها؛ فليس لها بدَّ إلّا الصدام معه.

ثانياً: الضلع (أ ج) وهو المكوّن للواجبات Dutis في المثلث (أ ب ج):

بما أنَّ الحقوق تؤخذ وتُستلم؛ فإنَّ الواجبات تؤدّى في مقابل الاستلام والأخذ، وأداء الواجبات هو الذي يجعل الذات الفردية أو الجماعية والمجتمعية في حالة الإيجاب، أمّا اقتصار الفرد أو الجماعة والمجتمع على أخذ الحقوق؛ فإنَّ ذلك يجعل الآخذ طرفاً سالباً، والذي يغيّره إلى حالة الإيجاب هو أداؤه الواجبات، ولهذا من الواجب أن تعمل وتفعل وتسلك في مقابل ما تأخذ، وهذا لا يعني أنَّ الحقوق والواجبات هما كفتا الميزان في مكوّن ممارسة الديمقراطية، بل هناك شيء آخر من مكوناتها، ألا وهو المسؤولية التي تتّضح في الزاوية (أ ج ب) عند تلاقي ضلع الواجبات (أ ب) مع ضلع المسؤوليات (ب ج) وهذا التلاقي العلائقي هو الذي جعل من أداء الواجب مسؤولية، ولذلك ورد في

الموسوعة الفلسفية العربية بأنّه "لا واجب إلّا بالإضافة إلى التزام ومسؤولية"[44]، ولذا لا يمكن أن يؤدّى الواجب بنجاح إلّا وتحمّل المسؤولية جزءاً من أداءه، وهكذا حال المسؤولية هي الأخرى لا تؤدّى بنجاح إلّا والواجب يصاحبها، وهذه نتيجة التداخل العلائقي الذي يعبّر عنه بدقة في العلوم الهندسية ممّا جعل لزوايا المثلث قِيَم يستدل بها أو يستدل عليها. والعلائق في مجملها، هي نتيجة وجود الأنا أو الذات والآخر اللذين عندما يلتقيان لابدَّ بأسباب الخوف أن يحدث الحوار بينهما؛ فيؤدّي إلى القبول والتقارب والتفاعل أو يؤدّي إلى الرفض والابتعاد والفرقة أو الانسحاب، وفي حالة القبول والتفاعل الذاتي تتكوّن العلاقات كما هو الحال بين أضلاع مثلث ممارسة الديمقراطية المتساوي الأضلاع، وعندما تتكوّن العلاقات يترتّب على ذلك بالضرورة أخذ كما هو مبيّن في الحقوق، وعطاء كما هو الحال عند أداء الواجبات، وهذا يعني أنَّ العلاقة بين المسؤوليات والحقوق والواجبات، هي علاقة قرار وأخذ وعطاء، أي في اتخاذ القرار مسؤولية، وفي الأخذ حقوق، وفي العطاء واجبات، وعليه لا يمكن أن يتمّ الأخذ والعطاء عن وعي إلّا والمسؤولية في ذلك سابقة عليهما، ولو أخذنا وليّ الأمر نجد أنّه مسؤول على أفراد أسرته، وفي الوقت ذاته لهم عليه واجبات ينبغي أن يؤدّيها تجاههم، وما يعدّ واجبات على وليّ الأمر تجاه الأسرة فذات الواجبات تعدّ حقوقاً بالنسبة لهم، وهكذا في حالة التبادل تظل لوّلي الأمر حقوق ينبغي أن يأخذها أو يطلبها، وفي ذات الوقت تعدّ واجباً

[44] الموسوعة الفلسفية العربية. بيروت : معهد الإنماء العربي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، 1986، ص 823.

على أفراد الأسرة أداؤها، ولذلك فالحقوق والواجبات والمسؤوليات الذاتية يتمِّم بعضها بعضاً، كما تتمِّم أضلاع المثلث بعضها بعضاً.

ولكي تؤدّى الواجبات بإرادة ينبغي أن تتوافر اشتراطاتها وهي:

1 . الاعتراف:

يدل الاعتراف على تفهُّم الموضوع والتعرُّف من خلاله على ما يجب وما لا يجب، ثمّ التمسّك بما يجب والامتناع عمّا لا يجب، ولذا فالاعتراف بالواجبات عن وعي يؤدّي إلى التمسّك بها عن إرادة؛ فالذات المتكونة من القواسم المشتركة بين الأفراد والجماعات شاملة في مضمونها حقوقهم وواجباتهم ومسؤولياتهم، ولا يمكن أن توصف الشخصية بالذاتية في منعزل عن القيم العامة للمجتمع مكون الذات.

2 . القدرة:

إن امتلاك المقدرة العقلية والمعرفية والاعتراف بوجوبية الأداء قد لا يفيد دائماً ما لم تتوافر إلى جانبها المقدرة البدنية والمقدرة المادية الداعمة للتنفيذ؛ فالقدرة طاقة كامنة تملؤها المخاوف وهي تتحفّز للظّهور بعد تهيؤ.

3 . الإقدام:

يُعدّ الإقدام مرحلة ما بعد التهيؤ والتأهّب حيث الإقبال على أداء السلوك المحقّق للفعل، ولا يمكن أن يتمّ الفعل الإقبالي المؤدّي للواجبات إلا برغبة وإرادة.

ثالثاً: الضلع (ب ج) وهو المكوّن للمسؤولية Responsibility في المثلث (أ ب ج):

من خلال العرض السابق عرفنا التداخل المعرفي في العلاقة بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات، المتعلّقة بتحقيق الذات المتوازنة، وعرفنا أنَّ الحقوق تترتّب عليها مطالب أو أخذ، وعرفنا أنّ الواجبات يترتّب عليها أداء أو عطاء، وهذه تستوجب حماية أو حراسة تكون لها سنداً يبعد عنها المخاطر، وإن لم يتوافر ذلك تصبح الحقوق والواجبات في مهب الريح، ولذا يصبح حمْل المسؤولية هو الضرورة التي تحقّق الحماية أو الحراسة والاطمئنان؛ فالحارس أو الجندي الذي يحرس الحاكم أو المصنع، لو لم يكن مسؤولاً لا يمكن أن يؤتمن جانبه، وهكذا حال الطبيب إن لم يكن مسؤولاً، لا يمكن أن يؤدّي واجبه بأمانة؛ فالواجب بلا مسؤولية لا يمكن أن يؤدّى بأمانة، وهكذا حال الحقوق إذا لم تؤخذ بمسؤولية لا يمكن أن تؤخذ بأمانة.

ولكن لماذا الناس يرغبون حمْل المسؤولية وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء جِسام؟

لأنّهم يخافون، يخافون من الفساد، ويخافون من الحرمان، ويخافون من التغييب والإقصاء والإفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حقّ؛ فالذي ينوب عنك ويتحمّل مسؤوليّتك، لا يُمكن أن يوفّق في حمْلها كما لو تُحمل من قبلك مباشرة سواء أكانت على المستوى الفردي أم الأسرة أم على مستوى العمل والتعليم، أو ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات.

إذن تكمن المسؤولية في تحمّل المخاطر أو الأعباء المترتّبة على أداء الفعل أو السلوك، سواء أكان حقاً أم واجباً، ولذا فهي عبء يستوجب التحمُّل، ولأنّها كذلك فهي عملية عقلية تُبنى على معطيات أو مسلّمات

تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذهنية، وتستوجب التفسير والتمييز بين الخطأ والصواب، وبين الحلال والحرام، وبين القوّةِ والإرادة، ثمَّ أخذ القرار، وتحمّل الأعباء المترتّبة على ذلك، ومن هنا تأخذ المسؤولية مكانتها المتولّدة من التخطيط والتنظيم على الضلع (ب ج) في المثلث (أ ب ج) المتساوي الأضلاع.

ولأجل إحلال السكينة والأمن محلّ الخوف؛ فإنَّ تحمّل المسؤولية يتطلّب مبررات موضوعية لممارستها بإرادة، ومنها:

1 . الصلاحيات:

لقد تمَّ البحث في المسؤولية الذاتية من الناحية الفكرية، أمّا من الناحية العملية أو التنفيذية؛ فإنّ ذلك يتطلّب صلاحيات لكي يتمكّن الفاعل من القيام بتنفيذ الفعل، ولذا فالصلاحيات هي مجال الامتداد المسموح به للمسؤول الذي عندما يفعل يكون مسؤولاً، وعليه من يريد أن يكون مسؤولاً يجب أن يكون خائفاً وعن وعي قبل أن يفعل.

2 . الاختصاصات:

الاختصاصات هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به؛ فعندما يلتزم المسؤول بالحركة داخل مجال الامتداد في دائرة الممكن تُعدّ ذاته متّزنة ومعتدلة في الحركة الموجبة، وعندما تخرج عن ذلك، تقع في دائرة المسائلة والمحاسبة والعقاب، حيث تعدّ مثل هذه الأفعال أفعالاً سالبة أو منحرفة.

وعليه لكي تؤدّى المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية وتحلّ السكينة محلّ الخوف ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات.

3 . الوعي:

الوعي هو وظيفة الجهاز العصبي للإنسان، وهو نشاط ذهني وفكري يمتدُّ بين تذكُّر وتفكّر، ويدل على إيجاد علاقة بين الذات والموضوع، ولذا فبالوعي يتمكّن الإنسان من التبيُّن والمعرفة، كما أنّه يتمكّن من التمييز بين الأفعال الموجبة والأفعال السالبة، والتمييز بين كلِّ مفضّل ومرغوب، وبين ما هو غير ذلك ومرفوض، ولذا فإنَّ الوعي ذو صلة مباشرة بالمدركات العقلية التي تمكّن الإنسان من التفهُّم والاستيعاب، كما أنّها تمكّنه من التقويم الموضوعي الذي يجعل من الذات مركز الاعتدال والتوازن الانفعالي والسلوكي.

4 . القدرة:

القدرة الذاتية هي التي تمكّن الإنسان من التحمّل لما يجب أن يتمَّ تحمُّله باعتبارها طاقة تستوجب توفّر الاستعداد للقيام بالمسؤولية في حدود القدرة، والقدرة متنوعة المستويات؛ فهي على المستوى النفسي والمستوى البدني والمستوى المادي والمعرفي.

وبناء على ما تقدّم فالديمقراطية التي سُوِّق لها في أعوام ما قبل العولمة، كانت كالمنّة التي يَجود بها الحكّام على المتسوِّلين (الشعوب)، ولذا لم يتمّ الاعتراف بأنَّها حقّ لهم، واستمرت في أيدي محتكري السلطة والثروة والسلاح، واستمرت المطالبة بها حاجة ضرورية، ولا مجيب إلى يومنا هذا الذي بدأت فيه مؤشرات العولمة في هذا القرن تلوح في الأفق بأنَّ الديمقراطية حقّ يستوجب الاعتراف والتقدير بين الأنا والآخر.

لقد صفّقت الشعوب البسيطة خوفاً لكلّ الحكام الذين وعدوها بممارسة الديمقراطية، وهم بطبيعة الحال لم يفوا بوعودهم وعهودهم ولن يفوا بها،

إلى أن يتغمدهم الله برحمته، ومنذ آلاف السنين والحال على ما هو عليه شعوب تطالب وتثور، وحكومات تمنّ وتسقط، ولهذا جاءت العولمة لكسر هذا القيد المحلي بقيد عالمي، أي كسر المشجب الذي كانت تُعلّق عليه الاختلافات بين الأنا والذات والآخر بمشجب أكبر يتحمّل تعليق البلد بكامله دون أن يُكسر.

ونظراً لما يختصّ به كلّ مجتمع من المجتمعات البشرية من قيم وثقافة مرجعية؛ فإنّ ذات المجتمع في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع هي بين موجبٍ وسالبٍ.

. في الحالة الإيجاب (حالة تماثل الذات مع مثلث ممارسة الديمقراطية) في هذه الحالة تسود العدالة وتزول الفرقة وتحلّ السكينة محلّ الخوف، فيعيش المجتمع الحرّية من خلال ممارسة أفراده حقوقهم وأدائهم واجباتهم وتحمّلهم مسؤولياتهم، وعندما تسود الحرّية المجتمع بمختلف أعراقه وانتماءاته، تندمج الأقليات العرقية في وحدة المجتمع وينتهي الخلاف والصدام الذي سبّبه التفرّق والتعصُّب والتغييب والإقصاء بغير حقّ، وينتهي من ورائه الاحتكار لِمَا يُشبع حاجات أفراد المجتمع.

. في الحالة السلبية (حالة الميل أو الانحراف الأناني)، في هذه الحالة تمتدّ الذات المجتمعية على حساب ذات مجتمع آخر أو على حساب الذات الإنسانية بأسرها دون أن تضع اعتباراً للخصوصيات المجتمعية التي تميّز كلّ أمّة عن أمّة أخرى، أو عندما لا تسود العدالة ولا تمارس الديمقراطية على مستوى المجتمع، في مثل هذه الحالات يصبح السلوك الظاهر غير الباطن؛ فيكون السلوك الظاهر الإخلاص والمحبّة، ويكون الكامن في الصدور الكره والخيانة.

ولمزيد من الإيضاح عمّا تقدّم، أعرض على القراء المحترمين مثلث التماثل العلائقي الآتي:

يظهر التماثل العلائقي بين المسؤوليات الذاتية والواجبات والحقوق الذاتية في حالة ممارسة الديمقراطية، وهذه العلائق يماثلها في بدن الإنسان الآتي:

1 . العقل في مماثلة المسؤولية.

2 . والحواس في مماثلة الحقوق.

3 . والضمير في مماثلة الواجبات.

ولذا لا يمكن أن تُحمل المسؤولية في غياب العقل، ولا يمكن أن تؤخذ الحقوق في غياب الحواس، وإلّا هل هناك من يتذوّق أو ينصت أو ينظر أو يزرع ويحصد ويأكل في حالة فقدانه لحواسه، وهكذا لا يمكن أن تؤدّى الواجبات في حالة غياب الضمير، ومن يحاول أن يؤدّيها بغيره فلا بدَّ أن تكون النتيجة الخيانة والانحراف. وهذا يدلُّ على أنَّه لا يمكن أن تمارس الديمقراطية بدون العقل، أو بدون الحواس، أو بدون الضمير؛ فغياب أيّ من هذه الأضلاع الثلاث يؤدّي بالضرورة إلى حالة الإعاقة التي لا أمل في علاجها أو تأهيل من أصابته في عقله أو حواسه أو ضميره، والشكل رقم (2) يبيّن هذه العلائق.

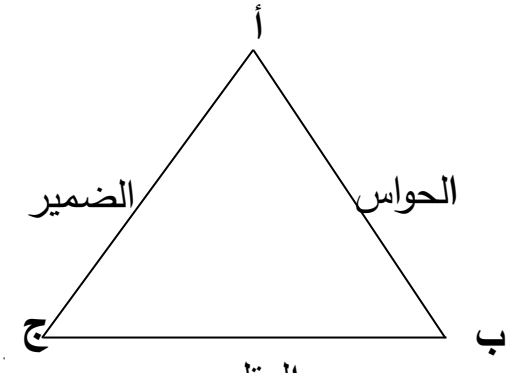

الشكل رقم (2)

ولذا فإنَّ فقدان أيّ من هذه الأضلاع الثلاثة لابدَّ أن يؤدّي إلى فقدان القدرة التي تمكّن من أخذ الحقوق وأداء الواجبات، وتحمّل المسؤوليات، وتؤدّي كذلك إلى فقدان التقدير والاعتراف بين الأفراد والجماعات والمجتمعات.

المستوى القيمي للخوف التطلُّعي

قيمة الخوف في الزمن الآن لفت الانتباه الفكري والعقلي لِما هو آتٍ دون شكّ في دائرة الممكن المتوقّع، كي لا يقع إذا بُذل الجهد المُمكّن

من تحقيق السكينة لتحلّ محلّ الخوف، ولذا فالتطلّع للمستقبل الأفضل والأجود والأنفع، هو مكمن الآمال والطموح التي فيها تتحسّن الأحوال وتحدث النُقلة من مستوى قيمي أدنى إلى مستوى قيمي أعلى.

إذن من يعمل في الزمن الآن برؤية المستقبل، يجد نفسه قد أمّن لنفسه مستقبلاً خالٍ من التأزمات، ومن يغفل عن ذلك في زمنه الآن، يجد نفسه في القاع مع الذين هم في أسفل السافلين.

وعليه فمن يخاف عليه أن يقع في تأزّمات مستقبلية، يجب على الخائفين عليه أن يعظوه في الزمن الآن وإلّا سيكون واقعاً فيها لا محالة، مصداقاً لقوله تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا}[45]؛ فالذين تخافون نشوزهنَّ في الزمن الآن عليكم بإعاظهنّ وإلّا سينشوزنَّ، ويومها ستكون التأزمات قد حلّت ولن ينفع الندم، وقد لا يكون بعدها إصلاح، ولذلك من خاف اليوم سلم غداً.

ولأنَّ الخوف في الزمن الآن هو من أجل تأمين المستقبل؛ فآمن المؤمنون خوفاً من العذاب الشديد، وإلّا لماذا الذين آمنوا قد آمنوا، ثمّ أصبحوا يذكرون الله كثيراً ويصلون ويزكون، ويفعلون ما يأمرون؟ بدون شكّ خوفاً من ذلك اليوم الذي يوم أن يأتي ستتقلّب فيه القلوب والأبصار، مصداقاً لقوله تعالى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ

[45] النساء 34.

بِغَيْرِ حِسَابٍ}[46]؛ فهم يخافون في زمنهم الآن، لكي تكون الجنّة سكينة لهم جزاءً على ما فعلوا من خيرات حِسان.

وعليه لولا الخوف في الزمن الآن ما فكّر من فكّر في مستقبله، وما سعى وتطلّع لبلوغ ما يحقّق به الأمن والسكينة، ولذا فالتطلّعيّة مرحلة من مراحل الوعي الفكري والثقافي، فيها تمتدّ الذات من حيّز التمركز على ذاتها، إلى مجال التطلّع تجاه الأخر الذي له من الخصوصيات التي تميّزه عن غيره، وفقاً لقدراته واستعداداته ومواهبه وإمكانياته وعلومه وثقافته وحضارته، ممّا يجعل الذات في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قادرة على نيل كلّ ما من شأنه أن يحُق لها الفائدة والمنافع.

فالتطلُّعيّة تُعدّ منطقة وسط بين الذاتية والموضوعية، وهي مجال النشاط الفكري والسلوكي المتميّز عن (الذاتية) والمتميّز عن (الموضوعية)، ولكنَّه في الوقت ذاته مكوّن مشترك بين مقوّمات الذاتية ومقومات الموضوعية، ممّا جعله قاطعاً مستقلاً بذاته في خماسي تحليل القيم[47].

وعندما تقتصر رؤى الشخصية على مكّوِنات الذات القيميّة، توصف بالذاتية، وعندما تستوعب تلك الرؤى وتستوعب إلى جانبها ما ينبغي أن تقوم به أو تفعله وتسلكه تجاه الآخرين، حينها توصف الشخصية في هذه الحالة بأنّها منطقية أو تطلّعية، حيث تتطلّع إلى ما هو أفضل وفقاً لافتراضاتها المنطقية لِما هو متوقّع أو مفترض.

والعيب الذي قد يظهر في هذه الشخصية المتطلِّعة خوفاً، هو ليس كلّ مفترض أو متوقّع متطلّع إليه خوفاً هو حقيقة؛ فالمفترض أو المتوقّع

---

[46] النور 37، 38.

[47] عقيل حسين عقيل، خماسي تحليل القيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2004، ص 38.

المتطلّع إليه بالضرورة يحتاج إلى زمن ومبررات الإثبات أو النفي، ولذا فإنَّ الأحكام التي ستثبته مؤجّلة، فإذا سلكتْ الشخصية أو فعلتْ أو حكمتْ وفقاً لافتراضاتها؛ فقد تفعل أو تسلك خطأ، ولذا فعليها أن تنتظر إلى أن تتبيّن حتى لا يقع الخطأ، ولهذا فعلى سبيل المثال: القضية التي تقول:

كلّ من وقف بعرفات كُتبت له حجّة

عبد الله وقف بعرفات

إذن عبد الله كُتبت له حجّة

هذه قضية منطقية لا شكّ فيها، ولكنّها قد تكون قضية لا مصادق لها، ولذا يصبح الشكّ فيها، فإذا كان عبد الله قد وقف بعرفات في غير موسم الحجّ، وفي غير يوم عرفات، فلا تُكتب له الحجّة، وكذلك إذا كان عبد الله موظفاً أو طبيباً أو حارساً أو بائعاً، ووقف بعرفات في يوم عرفة، بهدف أداء مهام خدميّة فقط؛ فلا تكتب له حجّة، وذلك لافتقاده مبررات أداء الفريضة، وهي أن يكون ضامراً للحجِّ، وقد أدّى ما سبق من فرائض قبل الوقوف بعرفات، في هذه الحالة يصبح الوقوف بعرفات حقيقة لأداء ركن من أركان الدين الإسلامي، وينطبق المنطق على الواقع الموضوعي. ولهذا الحوار المنطق ينبغي أن لا يقتصر على تبادل الحجج الوثائقية، بل يجب أن يحتوي أيضاً على توفّر النيّة والرغبة الصادقة في التواصل والترابط والتآخي، وأن تكون الأفعال المصاحبة تهدف إلى كسر القيد الذي يكبّل الإرادة.

وكذلك القضية التي تقول:

كلّ من آمن كُتبت له الجنّة

سعيد آمن

إذن سعيد كُتبت له الجنّة

نقول:

نعم أنَّ الجنة لا تُكتب إلا لمؤمنٍ، ولكن من هو المؤمن؟

إنَّه الذي يخاف الله.

وهل كلّ المؤمنون يخافون الله؟

نقول:

لا. بل أكثرهم لا يخافونه بفسقهم وإجرامهم، ومكرهم وكيدهم، وبسهوهم عن صلواتهم، وعدم إخراجهم الزكاة كما يجب، وعدم انتهائهم عمّا نهى، وعدم إتباعهم لِما أوجب وفرض، ولهذا ليس دائماً كلّ من آمن قد كُتبت له الجنّة.

وعليه فالإنسان المتطلّع للحقيقة بمنطق قيميّ معرفي، هو في حالة تطلّعيّة، أي أنّه في حالة النُقلة، من التمركز على الذات إلى حالة الاتزان النفسي الذي يتفاعل مع قيم المجتمع وعاداته وأعرافه ومعتقداته، ثمَّ يتفاعل مع كلّ ما هو مفيد لدى الآخر، وليس بمنغلقٍ على ما يقصره دائماً على تراثه القيمي، بل هو من يكون في حالة امتداد موجب مع الثقافات والأفكار الإنسانية الأخرى، وفي ذات الوقت لا يُفرِّط في خصوصيّته الذاتية.

وبعد أن كانت المغالبة في المستوى الذاتي للعاطفة في تقييم الآخر ومعتقداته وأفكاره وحضارته، بدأت المشاعر والأحاسيس الذوقية بالخوف تتهذّب تدبراً وتطلّعاً تجاه ما يُفيد عند الآخرين دون إقصاء لأحدٍ منهم.

إذن التطلّعيّة شخصية توافقيّة، تستوعب قيم وفضائل (الذاتية) وتتفتّح بإرادة ومنطق على الآخرين دون أحكام مسبقة، وذلك لاعتمادها قيمة الحرّيّة في كلّ اختياراتها؛ فهي تتفاعل مع الحقّ والعدل والواجب والمسؤولية على مستوى الذات ومستوى الآخر، ولذلك لم تكن منغلقة أو متعصّبة ولا متفاعلة إلّا مع ما هو منطقي.

ولذا فعندما لا تسيطر العاطفة أمام العقل على الفعل والسلوك بالتمام، يُفسح مجالاً جديداً للعقل والنفس بأن يكون التفكير فيما يجب، ممّا يجعل النفس تسعى لِما يُفترض أو تميل إليه، والميل هنا موجب، حيث التطلُّع للأفضل، الذي يحافظ على الهويّة والخصوصية، ويمتد من أجل أن يتعرّف على الجديد المفيد، ويسعى إلى الحصول عليه. وهذا لا يعني أنَّ كلّ ميل هو موجب، فعندما تميل الشخصية من حالة التمركز على الذات إلى حالة التخلي عن بعض من مكوناتها القيمية تصبح الشخصية على حالة من الإنسحابية؛ فتوصف في هذه الحالة بالشخصية الإنسحابية التي تتخلى عمّا يجب الأخذ به.

وعليه: فالتطلُّعية مرحلة من الوعي يُمكّن الذات من استيعاب دورها وما يجب أن تفعله مع الآخر، حتى لا يحلّ ما يخيف محلّ ما يجب.

ولأنَّ التطلّعية هي حالة وعي بالمحيط المعرفي والثقافي والحضاري، فهي تُعدّ مرحلة نضج، به تتمكّن الشخصيّة المتطلّعة من الإلمام بالموضوع المشترك مع الغير كواقع لا مفرَّ من التعامل معه.

ولأنَّ (الذاتية) هي ما يدور من حوار بين الرغبات والمطالب، والحاجات والبواعث، والحقوق والواجبات والمسؤوليات، في حدود الدين والعرف والقيم السائدة، على مستوى المجتمع أو الدولة، حيث ثبات الذات وتغيّر

الأدوار وتنوع المواضيع، فإن التطلّعيّة هي درجة من الاعتراف بأنَّ للآخر رغبات ومطالب وحاجات وبواعث مشبعة، وحقوق وواجبات ومسؤوليات ينبغي أن تُقدّر وتحترم، وإن لم تُقدَّر وتُحترم ستكون العواقب غير محمودة، ولذا فمن غير المنطقي أن يتمَّ تجاوزها أو الإغفال عنها، كي لا تُمسّ ولا تؤخذ بما هو على حسابها.

وللتمييز بين المستويات القيمية للشخصية الخائفة نقول:

1 . الأنانية: معيارها الشخصانية (أنا كلّ شيء).

2 . الإنسحابية: معيارها نفعي انسحابي (أنا أولاً، وإلّا ..).

3 . الذاتية: معيارها العاطفة (نحن كلَّ شيء).

4 . التطلُّعيّة: معيارها المنطق (حُجّة بحُجّة).

5 . الموضوعية: معيارها العقل (نحن سوياً).

وعليه: عندما يخاف الإنسان من المظالم، يتمسّك بالقيم والمعايير الاجتماعية التي تستنبط من الإطار المرجعي لمجتمع العاطفة، ويقدّر قيم الآخر ومعاييره، في هذه الحالة تعدّ ذاته في حالة تطلّعيّة، وعندما يتمسّك الإنسان بالقيم والمعايير الخيّرة بغض النظر عن مصادرها، تؤسّس أحكامه على الموضوعية، وتُعد معاييره إنسانية. ولذا عندما تميل كفّة المعايير العامة بمنطق على حساب كفة المعايير الخاصة، حينها تميل الشخصية إلى الموضوعية فتوصف بالتطلّعيّة، وعندما تميل إلى ذلك دون حُجّة ولا حقيقة، تصبح الشخصية في حالة ميلان إلى الأنانية.

ومع أنَّ المنطق يَفترض أنَّ الناس متساوون في الحقوق والواجبات والمسؤوليات، إلّا أنَّ الواقع قد يُثبت غير ذلك، حيث نجد البعض من

بني الإنسان في حالة إشباع، والبعض في حالة عوز، والبعض في حالة ادّخار بعد الإشباع، وآخر في حالة شُح، والبعض الأخر في حالة إيثار حيث يُقدِّم من هو في حاجة أو من هو أفضل على من هو أقل، ولذا فالشخصيّة المؤثرة، هي الشخصية المنطقية التي تميّز بين ما يجب وما لا يجب، وعندما تحتكم بالمنطق تقول الحقّ وتفعل صواباً مصداقا لقول الله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}[48].

وهنا فالشخصية المتطلِّعة لا تقتصر أهدافها وغاياتها على الظرف الآني، بل تمتدّ منه إلى ما هو مستقبلي، فتميل إلى المغالبة، مغالبة الفضائل على النواقص، وليس مغالبة النواقص على الفضائل كما هو حال الشخصية الإنسحابية الغافلة عمّا يجب أن تفعل.

ولأنَّ الخوف هو المحفِّز على صناعة المستقبل، فإنَّ الخائفين هم دائماً سبّاقون لصناعته، والذين لا يخافون هم دائماً الأخسرون، مصداقاً لقوله تعالى: {إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ}[49].

---

[48] . سورة الحشر، الآية 9.

[49] المدثر 39 . 55.

تبيّن هذه الآيات الكريمة أنَّ الذين لم يخافوا الآخرة هم أولئك الذين لم يكونوا مع المصلين، ولم يكونوا من الذين يطعمون المسكين، وكانوا يخوضون مع الخائضين، وكذبوا بيوم الدين، فهؤلاء ومن هو على مثلهم لن تنفعهم شفاعة الشافعين، ولذا فمن لا يخاف سيدفع الثمن شدّة وألماً وعذاباً.

إن تجاوز الإنسان دور الذاتية، إلى مرحلة ممارسة النقد الذاتي، الذي به يتمكّن من معرفة جوانب القصور أو معرفة العيوب والسلبيات التي يمارسها، يصل دون شكٍّ إلى مرحلة التعديل والتغيير الموجب بالإرادة الممكنة من صناعة المستقبل.

إذن عندما تخاف الشخصية، تستشعر بأنّها في حاجة إلى المزيد المعرفي والعلمي والتقني والمزيد العلائقي الذي به تستأمن وتؤمّن مستقبلها، وهي في هذه الحالة ستمتدّ إلى مرحلة ما بعد الذاتية، فتصبح تطلُّعيّة على درجة عالية من المزيد المعرفي المُمكّن من إحلال السكينة محلّ الخوف.

وعليه: عندما تَعطي الشخصية الصدارة للمنطق في إصدار الأحكام واتخاذ المواقف، فهي توصف بالتطلُّعيّة، وهذا يعني أنّ التطلّعية هي نتاج تداخل المتغيرات وتأثيراتها الموضوعية خوفاً من القول أو العمل أو السلوك أو الفعل، وفي هذه المرحلة المنطقية، تُقيّم القضايا بالعقل والمنطق والحجّة المبرّرة، إلّا أنّ الشخصية في هذه الحالة لم تصل بعد إلى مستوى التفكير المجرّد الذي لا انحياز فيه إلّا للحقّ، بل إنّها في حالة نُقلة من حالة التمركز على التفكير والتقييم العاطفي إلى حالة التقييم المنطقي الذي يجعلها تميل من مستوى الحالة الأحسن إلى

مستوى الحالة الأفضل، وهذا التدرج يؤدّي بالضرورة إلى الميل المنطقي ويجعل الشخصية في مستوى التطلّعية.

المستوى القيمي للخوف الإنسحابي

الخوف قوّة اتقاء ودفع إلى الأمام (المستقبل) لا يستشعره إلّا الواعون، أمَّا الجبن فهو قوّة شدّ للخلف؛ فلا يتمسّك به إلّا الضعفاء، ولذا فالانسحاب من المواقف الموجبة لا يكون إلا بأسباب الجبن، ومن ينسحب ممّا لا يجب الانسحاب منه، هو كمن زُيّن له سوء عمله أو كمن كان فاسقاً؛ فهما لا يستويان مع من آمن وكان على بيّنة من ربّه، مصداقاً لقوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ}[50]

[50] السجدة 18.

وقوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}[51].

ولأنَّ الإنسان اجتماعي بطبعه فهو ذاتي بالضرورة، وهذا لا يعني أن يأتي يوم لا تحيد فيه شخصيته عن ذاتها الاجتماعيّة، وعندما تحيد عن مستواها الذاتي؛ فحيادها لا يلغي أنَّها اجتماعية الطبع والتطبُّع، وفي الوقت ذاته توصف بالمنطقية عندما تتطلّع مخافة إلى ما يجب، وتوصف بالإنسحابية نتيجة لضعفها وجبنها وما تسلكه من سلوكٍ سالبٍ تجاه القضايا والمواقف والمواضيع التي ينبغي أن يكون لها دوراً متفاعلاً تجاهها.

فالذات باعتبارها مكوّنا قيمياً ومركزاً لاندماج المشاعر والعواطف على المستوى الاجتماعي، تشكّل رقيباً على الأنا وأطماعها الشخصانية، وتكوّن قاعدة عريضة لأفرادها وجماعاتها المتطلِّعين خوفاً تجاه كلّ ما من شأنه أن يحقّق لهم مستقبلاً أفضل. ولهذا توقُّعات الذات من أفرادها وجماعاتها هي دائماً أن يكونوا مثالاً اجتماعياً يصبو لما هو أفضل، ولكن هذا التوقّع أو ذلك الافتراض، لن يتحقّق دائماً، بل في بعض الأحيان والظروف يتحقّق ما هو أدنى أو أقل من المتوقّع. وعندما يسلك الفرد سلوكاً أدنى أو أقل قيمياً ممّا ينبغي، أو أن يتخلّى عن أداء المهام والمواقف أو ينسحب من ميادين أدائها، في هذه الحالة يوصف بالانسحابي، حيث أصبح سلوكه وفعله على حالة من المخاوف القارة (الجبن) ممّا يجعل السكينة متعسّرة التحقّق والإحلال بدلاً من الخوف؛

[51] محمّد 14.

فيصبح المستوى الذي عليه الشخصية هو مستوى انسحابي (ذاتية تميل إلى الأنانيّة).

إذن على المستوى الذاتي يتوقّع المجتمع من أفراده الالتزام بأوامره ونواهيه، ويتوقّع منهم أيضاً أن تكون شخصياتهم تطلُّعية، وفي الوقت ذاته يودُّ أن يكونوا حريصين على التمسُّك بذات المجتمع التي تميزهم عن غيرهم، وتحافظ على هويّتهم، ولكن لا يودّ لهم التقدّم بدون خوف، ذلك لتوقّعه أنَّ التقدّم بدون خوف هو الذي سينهي خصوصياتهم العقائدية والثقافية والقيميّة، ولا يودّ لهم الانسحاب جبناً من ميادين إثبات الهويّة، إنّه لا يقبل التخلي عن الذات ولا يسح لأحدٍ من أفراده التفريط فيها، ومن يسلك أو يفعل ذلك توصف شخصيته بأنَّها شخصية الإنسحابية (ذاتية تميل إلى الأنانية).

إنَّ ميل تفكير الشخصيّة عن التمركز على الذات إلى الاستحسان فيما تودُّ أن تَقدِم عليه الأنا بشخصانيّة، أو ترغب في فعله والقيام به، يجعلها في حالة مراجعة لِما كانت تؤمن أو في ما كانت تعتقد، وعندما تصحو من غفلتها، تتطلّع، وعندما تتعمّق في غفلتها تستجبن وتنطوي وتتراجع إلى ما هو أدنى بالمنظور الذاتي، ولكنّه قد لا يكون أدنى بالمنظور الشخصاني Personalism، فالشخصانية يتمركز تفكيرها على ما يُفيد أنا، دون وضع أهميّة للآخرين، أي المهم أنا. والأنا هي المتجرِّدة من عاطفة الانتماء الاجتماعي الذي يُبرز أهمية الذات على أهمية الأنا. أمّا عندما تصبح الشخصية في حالة ميل من الذاتية إلى الإنسحابية، فإنَّ ذلك يعني أنَّ الشخصية لم تتخلَّ عن كافة مكونات ذاتها، بل إنّها جبناً وضعفاً تتخلّى عن شيء منها، والذي يجعلها في حالة مغالبة هو

تفضيلات الأنا على تفضيلات الذات، وهذا الأمر يؤدّي بالضرورة إلى مغالبة معايير الأنا ورؤاها على معايير الذات ورؤاها.

وللتمييز بين الشخصية الإنسحابية والشخصية المتطلِّعة، هو أنَّ الإنسحابية تميل جبناً ووهناً إلى الاتجاهات ذات المردود (السالب)، والمتطلِّعة تميل خوفاً إلى الاتجاهات ذات المردود (الموجب)، وهذا لا يعني أنَّ كلّ انسحاب هو ذو مردود سالب، ولا كلّ تطلّع هو ذو مردود موجب، فعندما تنسحب الشخصية من القيام بالأفعال المؤذية والمؤلمة خوفاً، فإنَّ ذلك الانسحاب يعدّ انسحاباً موجباً، وعندما تتطلّع إلى ما هو مؤلم وضار؛ فإنَّ تطلّعها هذا يعدّ تطلُّعا سالباً، وتوصف هذه الشخصية بالشخصية السالبة أو الإنسحابية حيث انسحابها من ميادين العمل الموجب وميلها إلى ميادين العمل السالب (المؤلم).

وتُعدّ الإنسحابية مكوّناً من مكوّنات الشخصية القابلة للانحراف والهدم السلوكي، وليس مكوّناً بنائياً؛ فالشخصية التي ترتكب أو تسلك الأفعال غير المقبولة أو غير المفضّلة اجتماعياً ثمَّ تكفّر عن ذاتها، وتعود مرّة ثانية وثالثة، وتندم بين الحين والحين، ثم تعود إلى ما فعلت، وهكذا، تُعدّ هذه الشخصية بالشخصية المتردّدة والمتبدِّلة، وذلك لمغالبتها للقيم المتبدّلة على القيّم الثابتة المفضّلة. وعندما يصل الحال بالشخصية إلى أن تقطع كلّ علاقتها مع كلِّ موجب، ومع كلّ ما بني على القيّم الضميرية أخلاقاً؛ فإنّها لن تتوقّف عن انسحابها إلى أن تصل إلى حالة الانطباع بالخصائص الأنانية والأفعال الشخصانية، وهي مرحلة من مراحل هدّ الشخصية في خماسي عقيل لتحليل القيم[52].

[52] عقيل حسين عقيل، خماسي تحليل القيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2004.

إذن الإنسحابية مستوى قيمي للخوف ومكوّن نفسي للشخصيّة، قد تصل فيه حالة الشخصية إلى درجة من التوتّر الذي يؤدّي بها إلى فعل السوء لمن يتعارض مع مصالحها أو تعتقد أنّه يشكّل خطراً عليها أو على ما تسوّله النفس وتعتبره منافع لا ينبغي لغيرها أن يشاركها فيها، مصداقاً لقول الله تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي}[53]. النفس الأمارة بالسوء هي النفس المائلة للشهوات، والمبتعدة عن الأفعال العقلية والمنطقية والأخلاقيّة التي تجعل الإنسان في حالة وعي وتمييز بين ما يجب وما لا يجب.

وعندما يحدث التحلّل من العلائق القيميّة الاجتماعية الضابطة للسلوك، سواء أكان هذا التحلُّل على مستوى الأسرة أم الجماعة أم المجتمع بكامله، تحدث الانحرافات والميول التي تُغيّر سلوكيات وأفعال الأفراد من مكانة اجتماعية إلى مكانة أخرى، ومن موقف إلى موقف، مع اختلاف درجة تأثيرها من شخص إلى شخص آخر. وفي مثل هذا الأمر نجد الشخصية الإنسحابيّة المتردّد، أو المتطرّفة والمنفعيّة، والمصلحيّة الخانعة، ومسلوبة الإرادة وغير المبالية؛ فكلُّ هذه الصفات تحتويها صفة الشخصيّة الإنسحابية (ذاتية تميل إلى الأنانية)، التي تنمو فيها مغالبة الرغبات الخاصة على الرغبات العامة، ومغالبة ما لا يجب على ما يجب، والميل إلى السلوك المتعارض مع القيم الحميدة والمعارف الضميرية، والإقبال على المطالبة بالحقوق والابتعاد عن أداء الواجبات وتجنّب حمْل المسؤوليات.

---

[53] . سورة يوسف، الآية 53.

ولأنَّ الإنسحابيّة مرحلة يملؤها الخوف بين إرادة سلبية باختيارات شخصيّة، وبين كرهٍ كما هو في مرحلة اليأس التي هي مرحلة عمرية نفسية ضعفاً ووهناً؛ فهي عندما تسود يسود الوهن في العقل والجسم والقدرة والاستعداد؛ فيحدث الانسحاب، ويسود النفس في بعض الأحيان التردّد، أو التخلي عن أداء ما ينبغي أن يؤدّى بين الناس قيماً حميدة وفضائل خيّرة.

وحالة اليأس هذه لا تقتصر دائماً على المرحلة المتقدّمة عمريّاً، بل في بعض الأحيان تسود الشخصية الإنسحابية وهي في ربيع العمر عندما تستسلم لأمر الواقع، نتيجة الضعف الذي يلمّ بها، وهو في كثير من الأحيان تسبّبه الحاجة، أو الرغبة فيما لا يجب، أو الجبن أثناء المواجهة من عواقب الأمور، وهذه من مبرّرات النفس اليائسة القانطة من رحمة الله، أمّا النفس التي لا تيئس ولا تقنط من رحمته؛ فهي التي دائماً يراودها الأمل، ولذا نراها تجدّ وتجتهد وتسعى خيراً حتى بلوغ الأمل الذي جعل منها شخصية متطلِّعة تمتلك الحُجّة والمنطق المحقّق لإحداث النُقلة إلى ما هو أفضل وأعظم.

ومع أنّ النُقلة ميسّرة الحدوث، إلّا أنّ أمر تحقّقها ليس هيناً؛ فأمرها يحتاج إلى:

1 . زمن الاستيعاب: الفترة التي تُمكِّن المنسحب من استيعاب المتغيرات والمبررات الجديدة.

2 . زمن الانفكاك النسبي: الفترة التي تُمكّن المنسحب من التخلُّص من الارتباطات القيميّة السابقة، والعلائق التي انتظمت على مستوى الذات.

3 . زمن الارتباط: الفترة التي يكوّن فيها المنسحب علائق جديدة مع الوسط القيمي الجديد.

4 . زمن الفعل: فترة التبدُّل التي تُمكّن المنسحب من الإقدام على الأفعال التي كانت محرّمة أو محذوفة من قاموسه القيمي.

5 . زمن العادة: فترة التكرار السلوكي مع الديمومة بما يشكِّل الخصوصية الجديدة والسلوك الجديد.

إذن لا يمكن أن يتمَّ التغيُّر نُقلة واحدة من التمركز على الأنا أو الذات أو الموضوع، بل لابدَّ من مسافة تسمح بالامتدادّ للممتدّ وتسمح بالانكماش للمنكمش، وكذلك لابدَّ من زمن لكلّ امتداد أو انكماش. ولا يمكن أن تكون الذات مكوّن مستقل عن الأنا أو الموضوع، ولا يمكن أن تتجرّد من الميلان إلى الموجب أو السالب، ولكن كلٌّ حسب الظرف والموضوع والمتغيرات المُدخلة أو المُخرجة.

ولأنَّ الانحياز سلوك بشري؛ فهو لا يتمّ إلّا بمعرفة، ولذا عندما ينسحب الفرد من موقف لموقف، أو من موضوع لموضوع؛ فهو بالضرورة يضع نفسه في مكان التخلّي عن موقف أو موضوع ما والانحياز لموضعٍ آخر، وهذا لا يعني أنّ كلّ انحياز هو ذو عائدٍ سالبٍ، بل هناك من الانحيازات ما هي ذات مردود موجب، كالانحياز للحقّ والعدل، أمّا الانحياز للعبودية والظلم؛ فهي إنحيازات ضعف وجبن ووهن سالبة، وهذا النوع من الانحيازات هو الذي تمتدّ فيه الشخصية الإنسحابية إلى النهاية، وذلك لعدم تحمّلها المسؤولية تجاه ما يجب أن تَقدِم عليه من أفعال، ولهذا إنّ تحمّل المسؤولية صفة موجبة تمكّن الفرد من أن يكون تطلُّعي أو منطقي فيما يفعل أو يسلك.

وعليه: الإنسحابيّة لم تكن شخصية طبيعية، بل هي شخصية مصطنعة، الشخصية الطبيعية هي التي فطر الإنسان عليها وشبَّ، أمّا الشخصية المصطنعة؛ فهي التي أوجدتها الظروف أو صنعتها على النقص لا على التمام، وحتى بعض من المناضلين والمتطلِّعين قد تكون آخر أيام نضالهم وتطلُّعاتهم تؤدّي بهم إلى الانسحاب؛ فيصبحون في حالة ميل من الذاتية إلى الأنانية، ذلك بأسباب الهزيمة أو ما يحدث في دائرة الممكن من متوقّع وغير متوقّع، ولذا فالإنسحابية قد تكون بمسببات الهزيمة، وقد تكون بمسببات الاستسلام ضعفاً أو جبناً أو سياسة لكسب الوقت وتحيّن الفرصة.

إذن ليس دائماً الابتعاد عن المواقف السالبة يؤدّي إلى المواقف الموجبة، فعندما يبتعد الإنسان أو يميل عن مواقف سالبة إلى أخرى سالبة، لا تعدّ في هذه الحالة أفعاله موجبة؛ فالذي يحدّد المواقف الموجبة من السالبة هو الموضوع المنحرف عنه والموضوع المنحرف إليه، ولهذا فالخوف يُجنب الإنسان من الوقوع في التهلكة ويرشده إلى ما هو خير.

وعليه فالذي يُبعد النفس عمَّا يوقع بها سالباً أو يؤدّي بها إلى موجبٍ هو الخوف من خلال مواقف ثلاث:

1 . مواقف التجنُّب:

التجنب قد يؤدّي إلى الابتعاد عن أفعال الخير، وقد يؤدّي إلى الابتعاد عن أفعال الشّر، وفي كلتا الحالتين عندما يعرف الإنسان ما هو موجب، وما هو سالب، ويمتنع عن القيام بهما؛ فهذا الإنسان هو الذي لا يفعل الخير بأسباب التجنّب، ولذا توصف شخصيته بالإنسحابية؛

فتكون شخصية على حالة من التجنّب لِما هو ممكن القيام به في مرضاة المجتمع الذي ينتمي إليه، ومثل هؤلاء هم الذين لا يقدّرون قيمة الخوف في الزمن الآن والزمن المستقبل.

إذن الإنسان الذي لا يفعل خيراً ولا يفعل شراً هو الإنسان الذي يتجنّب أن يفعل شيئاً، ومن لا يفعل شيئاً سلباً ولا إيجاباً يظل بأسباب تجنّبه مجهول الهويّة اجتماعياً وإنسانياً، ممّا يجعله تحت خانة الذين لا يُعتمد عليهم في شيء (أثناء شدّة أو أثناء رخاء)، وعليه فمن يفعل شرّاً في وقتٍ من الأوقات، قد يفعل خيراً في وقت آخر حتى ولو جاء متأخراً في مرحلة من مراحل عمره، ولكن من لا يفعل شيئاً في الوقت الذي يجب عليه فعله، لا خير فيه، ولذا فالشخصية التي لا تفعل الخير تُعدُّ في حالة تجنّب سالب من القيم الحميدة والفضائل الخيّرة.

2 . مواقف الانسحاب:

مواقف الانسحاب قد تكون ذات أفعال سالبة، وقد تكون ذات أفعال موجبة؛ فعندما تنسحب الشخصية من مواقف سالبة ليس بالضرورة أن تكون موجبة. وعندما تنسحب من مواقف موجبة ليس بالضرورة أن تكون سالبة، وكلّ هذه الانسحابات هي بمعطيات الخوف المُقدّر.

3 . مواقف الإقدام:

قد تكون ذات أفعال سالبة، وقد تكون ذات أفعال موجبة وفقاً للآتي:

أ . عندما تنسحب الشخصية من مواقف وأفعال سالبة، وتقدم على أفعال أخرى سالبة، فإنَّ إقدامها هذا يعدُّ سالباً. وفي مقابل ذلك عندما تنسحب من سالب إلى موجب تصبح أفعالها موجبة.

ب . عندما تنسحب الشخصية من موجب إلى موجب؛ فهي لا زالت ذات المواقف الموجبة، وإذا انسحبت من الموجب إلى السالب، تصبح أفعالها سالبة.

المستوى القيمي للخوف الأنـاني (Egoism)

الأنا هو ضمير يعود على من ينطق به؛ فأنا يشير إليَّ وأنت تشير إليك، وهم تشير إلى من لم يكن أنا وأنت، ونحن تحتوينا، وتستثني غيرنا. وترتبط الأنا بالأنانية عندما تخرج عن الذات والموضوع، وفي هذه الحالة توصف بأنّها في حالة ميل أو انحراف سلوكي يؤدّي بها إلى الأنانية، حيث إظهار السلوك الأناني على حساب الآخرين الذين لهم الحقّ في الوجود أو الظهور المماثل.

وهنا فالأنانية مرحلة من مراحل الجبن المكوّن للشخصية الفاقدة للقيم والثقافة والسلوك الاجتماعي والإنساني، والمستجيبة للرغبات والأهواء

والأطماع الخاصّة، التي تسود سلوك الفرد وأفعاله وأعماله، حيث ينعدم عندها الإحساس بالنخوة والغيرة والشرف، لفقدانها لِما هو عاطفي أو منطقي أو موضوعي.

وترتبط الأنا بالآخر والموضوع عندما تكون العلاقة موجبة، وتنفصل عن الآخر والموضوع عندما تكون العلاقة سالبة، وكلّما ظهر الأنا مع الآخر في الموضوع الواحد وهما في حالة تساوٍ وفق الحاجة والجهد كلّما قويت العلاقة بينهما، وكلّما ظهر الأنا أنانيّةً على حساب الآخر ضعفت العلاقة بينهما، وقد يحدث الصدام وتسود الفرقة إلى حين الالتزام بحقّ الآخر في الموضوع دون منّة؛ فالأنا الموجبة هي التي تتمسّك بما لها من الموضوع دون أن تمسّ حقّ الآخر فيه.

وعندما تكون أهمية الأنا وعياً عند الآخر، وتكون أهمية الآخر وعياً عند الأنا، تصبح الأنا مملوءة بالخوف الذي به تتمكّن من الاعتراف بحقّ الجميع في الموضوع العام، وفي مقابل ذلك عندما تعمّ الجهالة الأنا والآخر في الموضوع المشترك يُطمس أحدهما على حساب الآخر ويسود السلوك الأناني الذي تترتّب عليه الأفعال السالبة.

وبما أنَّ لكلّ فرد خصوصية تميّزه عن غيره وفقاً لقدراته واستعداداته وميوله وثقافته، إذن فلا داعي لطمسها، بل من الواجب إظهارها بما يمكّنها من أداء مهامها الخاصة بموضوعية واعتبار، وعندما لا تطمس الخصوصية، لا تطمس الذات العامة التي هي مجموع تفاعل الخصوصيات، فأنا كفرد أعرف أنّ ليّ حقوقاً وعليّ واجبات، ولذا أتحمّل المسؤولية مع الآخرين الذين لهم علاقات بالمواضيع المشتركة بيننا.

ولأنَّ لكلِّ أنا عاقل حقوق يخاف عليها، إذن بدون شكّ إن لم تعط له بإرادة ليس له بدّ إلّا أن يأخذها بالقوة، وله الحقّ في التصرُّف الحرّ في حقوقه، ولا حقّ له في الامتداد على حساب حقوق الآخرين، ولا يحقّ لأحدٍ أن يُقيّده عن ممارسة حقوقه، وإذا وُضِع القيد على الحقوق وجب فكّها أو كسرها بالقوّة، ولا ننسى ما يتركه وضع القيد من أثرٍ على الأنا، الذي بلا شك سيفكّر خوفاً مرتين أو أكثر قبل أن يفعل أيّ أمر، وسيضع إشارات الاستفهام والتعجُّب على من كان سبباً في وضع القيد، وقد تحدث المواجهة كلّما توافرت اشتراطاتها، ولكي تصبح حركة الأنا موجبة ينبغي أن يفسح له الامتداد في مجالات العلائق القيمية الآتية:

1 . مجال العلائق القيمية الاجتماعية.

2 . مجال العلائق القيمية الإنتاجية.

3 . مجال العلائق القيمية السياسية.

4 . مجال العلائق القيمية النفسية.

5 . مجال العلائق القيمية الذوقية.

6 . مجال العلائق القيمية الثقافية.

وعليه إذا لم يُسمح للأنا بحرّيّة الامتداد في المجالات العلائقية السابقة تصبح الأنا في حالة سلبية تؤدّي بها إلى ارتكاب الأفعال التي تضفي عليها صفة الأنانية (الشخصانية)، وعندما تصبح الأنا مملوءة أنانية، تظلُّ فاقدة لمكونها الإنساني؛ فلا تعطف ولا تخاف ولا تقدم على ما من شأنه أن يجعل لها شأناً اجتماعياً وإنسانياً.

ولساءلٍ أن يسأل:

لماذا بلغ الحال بها إلى هذا المستوى الشخصاني؟

نقول:

لأنَّ الخوف بأسباب الغفلة والجبن قد سكن فيها سكوناً؛ فلا حركة ولا امتداد. ولذا فمع أنَّ الذي لا يخاف لا يُخيف، إلّا أنَّه يشكل عبء على الآخرين الذين يخافون على الجميع.

وفي مقابل أخذ الحقوق ينبغي أن يؤدّي الأنا واجباته، وبطبيعة الأمر إذا لم يتمَّ أخذ الحقوق بإرادة، لن يؤدّي الأنا واجباته التي هي حقّ عليه للآخر، ولا ينبغي أن يُطلب منه أداءها، ذلك لأنَّ الواجبات تؤدّى في مقابل أخذ الحقوق، ولهذا يجب أن تتماثل مجالات أخذ الحقوق مع مجالات أداء الواجبات.

وإذا لم تؤدّي الأنا واجباتها بالتمام في ضوء ما تأخذه من حقوق تصبح الأنا ذات خصائص وصفات أنانية، ولهذا ترتبط الأنا بالشخصانية والفردية عندما تنفصل عن الموضوع والذات، وترتبط بهما عندما تنفصل عن الأنانية (الشخصانية).

ولأنَّ الأنا إثبات وجود موجب عندما تتماثل فيه ممارسة الحقوق مع أداء الواجبات وتحمّل المسؤوليات، لذا فإنْ لم يتمَّ التماثل الموجب، تصبح الأنا في منعرج السلوك الأناني الشخصاني الذي يُقيّم الأمور من زاوية تحقيق المنفعة التي تعود عليه، بغض النظر عمّا يصيب الآخرين من ضرر، ممّا يجعل لسان حال الأنا (المهم أنا).

ومع أنّ المسؤولية عبء وحمل ثقيل؛ فهي ضرورة للأنا الحرّة، وفي الوقت ذاته هي حقّ لها يجب أن تأخذها، وواجب عليها ينبغي أن تؤدِّيها، ولذا تعدّ المسؤولية الضلع الثالث في مثلث ممارسة الديمقراطية، حيث لا ديمقراطية بلا خوف يُمكِّن من ممارسة الحقوق، ولا ديمقراطية

بلا خوف يُمكِّن من أداء الواجبات، ولا ديمقراطية بلا خوف يُمكّن من حمْل المسؤوليات وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء.

وعليه: بنظرة طبيعية أنَّ لكلِّ (أنا) حقوق وواجبات ومسؤوليات، ومن واقعٍ فعلي قد لا تمتلك الأنا شيئاً من هذه المكوّنات الرئيسة لمثلث ممارسة الديمقراطية، ممّا يجعلها فاقدة لذاتها، ولا مفرّ لها من أن تنسلخ عنها لتمارس السلوك الأناني والشخصاني كردِّ فعل. ولذا ليس دائماً الأنا تسلك أو تفعل نتيجة ردود أفعال سالبة، بل في بعض الأحيان تمتلك الأنا كلّ الحقوق والواجبات والمسؤوليات المتعلقة بها ثمّ تمتد طمعاً على حساب ما يمتلكه الآخر، فتوصف هذه الأنا بالطامعة الفاقدة لقيم الاحترام والاعتراف والتقدير والاعتبار للآخرين.

وبناء على ما سبق أتساءل:

لماذا يودُّ البعض أن يُظهِر أنانيته (شخصانيته) على حساب قيم وفضائل المجتمع الإنساني؟

نقول:

الذي يَقصُر البعض عن بلوغ محقِّقات السكينة لتحلّ محلّ الخوف، هو ضيق الرؤية وقصور التفكير عن فهم ما يجب، ومن يقصُر عن ذلك يكون في حاجة لمن يخرجه من همّه وغمّه في شخصانيّته (أنانيته)، ولهذا ستظل الأنانية مرض (اجتماع نفسي) يمكن للمتخصصين الاجتماعيين والنفسيين من التعامل معه بعد دراسة موضوعية وافية؛ فانتشار المظالم بأنواعها المتعدّدة وفي كلّ المجالات (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والذوقية والثقافية) ينتج الكثير من

التأزمات التي تؤدّي بالبعض إلى الانسحاب من ميادين المنافسة وإثبات الذات والتطلّع إلى صناعة المستقبل.

ومع أنَّ مكانة الأفراد والجماعات والمجتمعات ذات علاقة بالتاريخ والقيم والفضائل التي تصنع الهويّة، إلّا أنّ البعض لا يضع لكلّ ذلك أهميّة؛ فينسحب من بعض القيم والفضائل المرسّخة للمكانة والهيبة، وينطوي على أناته وكأنَّها العالم بأسره، في الوقت الذي هو فيه غافل عمّا يجب تجاه نفسه وتجاه الآخرين.

ولأنَّ للفروق الفردية أثر على مكوّنات الشخصية، لذا يتفاوت الأفراد والجماعات في درجات التمسّك بما يجب، ودرجات التخلّي عمّا يجب، وفي درجات التقبُّل والرفض، ممّا جعل لكلّ أحد مستوى من المستويات القيمية في خماسي تحليل القيم.

ومع أنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم، إلّا أنّه خُلق ضعيفاً من حيث كونه لا يكون قادراً على الحياة ما لم تتلقّفه أيدٍ آمنة تمدّه بالرعاية والعناية كما تمدّه بحنان الأبوّة والأمومة والأخوّة، ومع أنَّ هذا الإنسان الضعيف خُلق ضعيفاً، إلّا أنّه قادر على استمداد القوّة وإظهارها متى ما شاء، ولهذا يتظاهر البعض بالقوّة بين الحين والحين كلّما عرف بأنَّ الآخرين في حالة وهن وضعف، فيتمرّد البعض على المساكين، والبعض الآخر يتمرّد على الظلم في مصادره؛ فنجد البعض ينسحب من ميادين أداء الواجبات وتحمّل المسؤوليات، في مقابل إقدام البعض الآخر على أدائها، ممّا يجعل التمرّد على المساكين في دائرة الممكن سلوكاً سالباً لا يقدم عليه إلّا الجبناء، ويجعل التمرّد على الظلم سلوكاً موجباً لا يقدم عليه إلّا من كان لبنة خوف من لَبِنات صناعة التاريخ.

ولأنّ الإنسان في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع هو على حالة من الخوف بين سلوكٍ موجبٍ وسلوكٍ سالبٍ، إذن لا استغراب فيما يفعل، بل الاستغراب أن لا يفعل، وعليه، فالإنسان الذي عصى الله الذي خلقه، لا يُستغرب منه أن يعصي المجتمع الذي لم يخلقه، ولذا فالأنانية عندما تسود أفعالها تُنسي الإنسان معرفة من هو؟ ومن الذي خلقه؟ ولماذا خلقه في حاجة والخوف في مكوّناته؟

نقول:

خلقه على الحاجة ليكون خائفاً حتى يبلغ مشبعاتها، وخلقه على الضعف ليكون خائفاً حتى يستمد القوّة، وخلقه قاصراً حتى يبلغ معرفة التمام، وخلقه جاهلاً حتى يبلغ درجات العلم الرفيعة، وخلقه فرداً خائفاً ليكون مفردة من مفردات المجتمع الآمن.

ولقائلٍ أن يقول:

بما أنّ الأنانية مستوى من المستويات القيمية المكوِّنة للشخصيّة الإنسانية، إذن الأنانية لا عيب فيها.

نقول:

شخصية الإنسان وحدة واحدة، ولكن هذه الوحدة هي وحدة مركّبة ومعقدّة التركيب، لها من المستويات القيمية ما يجعلها تُفضّل شيئاً على شيءٍ، وتُميّز بين شيءٍ وآخر، ويجعلها تعرف وتعترف، وتشهد وتُنكر، وتصدق وتكذب، وتُظهر وتُبطن، وهكذا هي بين كفرٍ وإيمان، وبين نقيض ونقيض، ولأنَّها كذلك؛ فهي على مستويات خمس رتُبت على السلّم القيمي لخماسي تحليل القيم، والمستوى الذي نحن بصدده هنا، هو المستوى الأناني الذي كلّما تمركز الإنسان عليه كان شخصانياً لا

معايير له سوى رواءه الأنانية التي تقتصر على ما ينفع الأنا حتى وإن كان هذا النفع على حساب حرّيّة الآخرين وكراماتهم وقيمهم وفضائلهم وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة.

وعليه تتكون الأنانية أو الشخصانية عندما يطمع الفرد في حقوق وواجبات ومسؤوليات غيره، أمّا إذا تمسّك بحقوقه وحَبَّ أناته ولم يتجاوزها؛ فإنَّ ذلك يعنى أنّه لم يكن أنانياً أو شخصانياً، بل هو الإنسان المثال الذي يتوحّد المجتمع فيه فيجعله اجتماعياً بطبعه.

وهنا تعتبر القيم العنصر الأساسي الذي يميّز سلوك الإنسان الأناني أو الشخصاني عن سلوك الإنسان الذاتي أو الاجتماعي، فإذا كان تقييم الفرد للأشياء المشتركة بمنظور (كلّ شيء أنا) كانت أفعال الفرد أنانية وسلوكياته شخصانية، وإذا كان التقييم للأشياء والظواهر بمنظور المجتمع، كان الفرد اجتماعياً (ذاتيا)، وإذا كان تقييم الأشياء بمعطياتها كما ظهرت في الموضوع، كان الفرد (موضوعياً)، ولذا فالأنا قد تنفصل عن الموضوع، أمّا الذات فإنَّها ترتبط به.

وعليه توجد علاقة تداخل قيمي بين مكوّنات الشخصية الأنانية، والشخصيّة المنسحبة، والشخصيّة المتَّزنة اجتماعياً (الذاتية)، والشخصيّة المتطلّعة (المنطقيّة)، والشخصيّة الموضوعية (التقيّة)؛ فبالموضوع يمكن أن يكون الإنسان أنانياً، ويمكن أن يكون ذاتياً، ولهذا فالتنشئة كموضوع وحسب فلسفتها قد تجعل من الفرد أنانياً جباناً أو ذاتياً (اجتماعياً)، وهكذا الفرد قد يؤثّر في المجتمع بأنانيته سلبياً نتيجة جبنه وتمسّكه بالأنا، وقد يؤثّر فيه بموضوعيته إيجابياً نتيجة عدم انفصاله عن الموضوع، وعن الذات.

الأنا كعنصر مستقل تعنى الفرديّة كبؤرة اهتمام، وعندما ترتبط الأنا بالموضوع دون اعتبار للآخر، تصبغه بطابعها؛ فتكون الأنانية أو الشخصانية، وذلك لظهور نواياها الخاصة أو أطماعها الخاصة سواء أكان هذا الطابع فردياً أم أسرياً أم قبلياً؛ فإذا كانت المصلحة فردية، كان الأنا فردياً، وإذا كانت المصلحة أسرية أو قرابية، كانت الأنا جماعيّة ولكنَّها على حساب الآخرين.

وهنا نقول:

إنَّ الأنا تتكون من حبّ الذات والتطلّع للآخرين، والأنانية تتكون بالتخلّي عنها، ولهذا فالأنا موجبة عندما تكون من المكوّن القيمي للذات؛ فالذي يقول: أنا الوطن؛ فقوله دليل على تجسّد حبّ الوطن في نفسه، ومن يقول: أنا الأمّة فإنّ قوله هذا لدليل إثبات لتجسّد قيم الأمّة في نفسه، ومن يقول أنا الدين فقوله دليل إثبات تجسّد الفضائل الخيرة في نفسه، ومن يقول أنا ليّ من الحقوق ما يجب أن يؤخذ ويقدم على أخذه دون تردّد؛ فإقدامه هنا هو إقدام الأنا الواثقة المتّزنة، وهكذا من يقول إنّ ليّ من الواجبات ما يجب أن يؤدّى ثمّ يقدم على أدائها؛ فإقدامه هنا يُعدُّ إقدام الأنا الواثقة إيجابياً، ومن له من المسؤوليات على أيِّ مستوى من المستويات الاجتماعية ويقدم على حمْلها سواء أكانت أبوة أم أمومة أم عمومة أم أخوة أم وفقاً لوظيفة ودور موضوعي؛ فإنَّ حملها وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء هو تأكيد على أنَّ الذات واثقة، وينبغي أن تُقدَّر وتُحترم ويتمّ الاعتراف بما تقوم من أدوار.

أمّا الأنانية: فهي مستوى قيمي أدنى من كلّ المستويات القيمية، فيه ينكبّ الأفراد على رؤاهم الخاصة في مواجهة رؤى الجميع، ولهذا كلّما

اشتدَّ الخوف كانت الغايات المستهدفة عظيمة، وكلّما ضعف ووهن الخوف كانت النتائج فاقدة للدوافع المؤديّة لبلوغ الغايات والطموحات العظيمة. ولذا فمن يقول أنا كلّ شيء يصبح لا شيئاً، ومن يقول أنا فقط يجد نفسه على الحاجة التي لا تُشبع إلا بجهود الآخرين، ومن يقول أنا العالم، يجد نفسه أمام الذين أتوا العلم جاهلاً، ومن يقول أنا الحقّ وغيري باطل، يجد نفسه ظالماً وهو الباطل ولا شيء غيره.

إذن الأنا لم تكن عيباً إذا لم تتجاوز حدودها على حساب الآخرين، بل ينبغي التمسّك بها كطابع مميّز بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولهذا كلّ (أنا) خلقت متميّزة عن غيرها، وبالتالي لا يُعدّ التمسّك بها عيباً، وبما أنّ كلّ (أنا) هي متميّزة عن غيرها بخصوصياتها، إذن الكلّ متميّزاً عن غيره بما يمتاز به، ولهذا فالتمسّك بالميز يعنى التمسّك بالتنوّع الموجب في ظلّ القيم الخيّرة والأفعال الحميدة.

ومع أنَّ الأنا واحدة إلّا أنّ أدوارها متعدِّدة؛ فأنا الفرد تختلف عن أنا الأسرة أو الجماعة، وأنا المجتمع تختلف عن أنا الأمّة أو أنا الوطن أو أنا الإنسان، أي عندما أكون (أنا الإنسان) تكون القيّم الإنسانية هي التي يحتويها ضميري وتمارسها أفعالي وسلوكياتي القدوة.

وعليه: القيّم الإنسانية لم تكن ملكيّة فرديّة، بل هي ملكيّة عامّة تتجسّد في ذاكرة الفرد حتى يصبح إنسانياً اجتماعياً بطبعه، ولذلك عندما تتجسّد الأفعال الإنسانية في سلوك الفرد وأفعاله، يصبح الفرد وكأنَّه الإنسانية بحالها، ممّا يجعل حالته توصف بأنّها موضوعية، وإذا لم تتوحّد الإنسانية قيماً وفضائل في أفعاله وسلوكياته قد تتوحّد فيه أفكار

وأفعال على مستوى آخر قد يوصف مرتكبها بالمنطقي أو الإنسحابي، أو الذاتي أو الأناني.

وهنا يكون الفرد أنانياً بخروجه عن حدود (أنا الواثقة موضوعياً) وذلك بأسباب المصلحة الخاصة أو الطمع في شيء هو حقّ لغيره. وتكون الأنا الخيّرة هي التي تقف عند حدودها ولا تمتدّ طمعاً في السيطرة على غيرها؛ فتوصف بأنّها أسوة وينبغي الإقتداء بها. إذن ينبغي أن تسيطر كلٌّ (أنا) على أناتها حتى لا توصف بالطامعة، وعندما يسيطر كلّ فرد بإرادة على أنانيته (شخصانيته) ويصحّح عيوبه ويسلك كما يودّ للآخرين أن يسلكوا تجاهه، ويحبّ لنفسه كما يحبّ لغيره؛ فإنَّ ذلك يجعله على صفة من الخوف الذي يجعله يعمل ويفعل من أجل المجتمع بأسره.

ولهذا علينا أن نميّز بين الأنا وأفعالها، والأنانية وأفعالها؛ ففي الأنا كبرياء الذات وهيبتها نتيجة التزامها بقيّم المجتمع سواء على المستوى المحلي أم العالمي، وفى الوقت ذاته فيها الأنانية نتيجة الطمع والتعصّب للباطل والحياد عن الحقِّ. ويكون الإنسان كفرد مثالاً عندما يتمسّك بالأنا الملتزمة بكبريائها الإنساني الذي يقدّس قيمة الإنسان ويحافظ على نوعه، ويكون الإنسان ذاتاً عندما تتوحّد قيم المجتمع فيه ويلتزم بها، ممّا يجعل أمانيه من أماني المجتمع وآلامه من آلامه. فيرتقي الإنسان إلى أن يكون أمّة بحالها عندما تتوحّد خصائص الأمّة وأمجادها وهويّتها وعزتها وتاريخها وأمالها فيه، ممّا يجعله يحسّ بإحساسها ويتألم لآلامها حيث تشتمل فضائلها فيه، وهى لا تكاد توجد إلا متفرِّقة عند غيره، ولهذا كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام

أمّة، لأنّه قدوة حسنة لبنى أمّته، وذلك باشتمال قيم الأمّة الفاضلة فيه {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[54].

إذن الذي يُحدّد السلوك الأناني أو الذاتي هو الإطار المرجعي للأمّة؛ فإذا كان الإطار المرجعي أنانياً ذا اتجاهات سالبة يظهر دور الأنا على حساب قيم المجتمع أو الأمّة الفاضلة؛ فيوصف السلوك بالأناني، وإذا كان الإطار المرجعي مجتمعياً موجباً فيظهر دور الذات المستوعبة لطموحات الأنا من خلال القيم المشتركة بين أفراد الأمّة.

المستوى القيمي للخوف الموضوعي (Objectivity)

الخوف في دائرة الممكن على مستويات خمس، منها ما سبق ذكره وعرضه، ومنها المستوى القيمي الموضوعي قيد البحث؛ فمع أنَّ الخوف واحد لا يتجزأ، إلّا أنَّه على السُلّم القيمي درجاته لا تتساوى؛ فمنها الخوف الذاتي الذي لا يتعدّى الروابط الاجتماعية، ومنها المستوى التطلعي المحتوي للذات والمتطلّع لكلّ ما لم يكن على حِسابها، ومنها المستوى الإنسحابي الذي فيه تتخلّى الشخصية عن بعض القيم المفضّلة لدى أفراد المجتمع وجماعاته، ومنها المستوى الأناني الذي يغالب الجبن فيه صاحبه، ممّا يجعل الخوف ساكناً حيث لا حركة تؤدّي إلى معرفة الحلّ.

أمّا المستوى القيمي للخوف؛ فهو الخوف العدل الذي لا يسعى صاحبه إلى قول باطل، ولا ارتكاب مظالم، ولا سلوك ليس بقدوة، حيث لا

[54] النحل، الآية 120 .

انحياز لعصبيّة بغير حقّ، ولا إقصاء لمن له حقّ، ولا تغييب لمن عليه أداء واجب أو حمْل مسؤولية.

المستوى القيمي للخوف الموضوعي يأمل الحلّ الذي يقضي على الألم كما يقضي على ارتكاب المظالم، أصحابه يشخِّصون الحاضر، ويستقرون المستقبل؛ فيقررون ما يجب، ويحرّضون عليه، ويبشِّرون به، ويرشدون إليه.

ولذا كلّ شيءٍ عندما يتطابق مع ما يجب يكون في محلّه متطابقاً موضوعياً، وكلّ شيء عندما يتميّز عن غيره بما يجب، ينبغي أن يكون تميّزه في محلّه موضوعياً، ولهذا التنوّع والتميّز والاختلاف والتباين من الطبائع الموضوعية التي يجب أن تُقدّر وتُعتبر وتُحترم ويتمّ الاعتراف بها في دائرة الممكن حقوقاً تمارس وواجبات تؤدّى ومسؤوليات تُحمْل.

وعليه تُعد الموضوعية مكوّناً قيميّا استيعابياً تندمج فيها المعارف الإنسانية والعلوم والثقافات التي تحتوي الأنا وتستوعب الآخر، وتنتج أفعالا وسلوكيات تؤدّىَ من قبل الجميع بإرادة، وتكوّن منظومة قيميّة ذات أبعاد ومرامٍ إنسانية خالية من التعصّب والتحيّز خوفاً من سيادة المظالم والمفاسد على حساب الأمن والسكينة.

إذن الموضوعية مستوى من القيم والفضائل الإنسانية، فيها تسود أخلاق المساواة بكلّ شفافية دون أن يسود أحد على حساب سيادة آخر، فلا تحتكم إلّا للعقل، ولذا بعد أن كانت الشخصية تحتكم في قاطع ذاتية تميل إلى الموضوعية (التطلّعية) بالمنطق الذي يعتمد في أحكامه على ما هو متوقّع أو مفترض، أصبحت تحتكم بالعقل الذي به تتميّز في

أحكامها وسلوكياتها بعد أن تتبيّن الحقّ من الباطل والخير من الشر وما يجب وما لا يجب مخافة من المظالم.

فالموضوعية مستوى من مستويات التفكير الإنساني الورع، حيث يخاف الإنسان من ارتكاب الأفعال الظالمة ومن المترتّب على فعل الظلم. ولا يمكن أن تكون الموضوعية سلوكاً أو فعلاً ما لم يرتق التفكير إلى مستوى توفُّر الثقة الداعمة للإرادة، والممكّنة للفرد من اتخاذ قرار إنساني عن وعي وبتجرّد.

في هذا المستوى القيمي الموضوعي تُقيّم الظروف والمواقف الفردية والجماعية والمجتمعات خوفاً على الجميع وبكلِّ موضوعية عندما تتوافر معطياتها واشتراطاتها المبررة لوجودها، ولذا فإنَّ الموضوعية مرحلة وعي متقدّم على مستوى الثقافة والفكر الإنساني؛ فهي المملوءة بالمخاوف من أجل الالتزام بالحقائق المجرّدة قولاً وعملاً وسلوكاً وفعلاً؛ فلا تميل كلّ الميل، ولا تصدر الأحكام بلا معلومات ومعارف واضحة خوفاً من ارتكاب الأخطاء أو المظالم، ولهذا فالموضوعية مرحلة تيقُّن ومعرفة يتجاوز بها العقل مخافةً كلّ مراحل الانحرافات والميول السالبة التي تحيد أفعالها كثيراً أو قليلاً عن الحقيقة، وتنحاز إلى غير ذلك، إنّها المبتعدة عن المنقوص والمتمسّكة بكلّ فعل تام.

المستوى القيمي للخوف الموضوعي حالة مستقلة بذاتها، تُقيّم فيها الأمور بنزاهة لا بعاطفة، فهي ليست حالة اعتدال كما هو حال قاطع الذاتية في خماسي تحليل القيم، وهي ليست حالة من حالات التطرّف والانسحاب كما هو الحال في قاطعي (الأنانية) و (التطلّعية)، إنها حالة

الانسجام والتطابق مع مبررات المواضيع ومعطياتها العلمية، ولذا فإنَّ الموضوعية تتمركز دون تردّد ولا جبن على:

1 . التجرّد من رغبات الأنا وأطماعه ومصالحه الشخصانية.

2 . لا تعترف إلّا بما يجب، ولا تؤدّي إلّا الأفعال الواجبة السلوك.

3 . تُقيّم الأنا والذات والآخر بمنظور معياري، لا بمنظور مزاجي عاطفي ولا بمنظور شخصاني.

4 . السلوك والأفعال الحضارية المتماثلة مع الثقافة المستوعبة لكلِّ خصوصية.

5 . الاعتراف بوجوبيّة أخذ الحقوق.

6 . الاعتراف بأحقيّة أداء الواجبات.

7 . الاعتراف بأهميّة تحمّل المسؤوليات.

8 . التقدير لمن يجب ولِمَ يجب.

وعليه: بأسباب الخوف بلا ألم أصبح الاطمئنان صفة من صفات الشخصية الموضوعية، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}[55]، تعتمد النفس المطمئنة على قوّة البصيرة التي تمكّنها من معرفة الحقيقة، وتميّزها عن غيرها من الأنفس، {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}[56]؛ فالبصيرة قوّة عقلية واعية يتبيَّن من خلالها الإنسان الموضوعي معرفة ما يجب وما لا يجب، وعندما يسلك لا يتردّد، لثقته فيما يفعل أو يسلك عن معرفة سبقتها مخاوف صائبة.

---

[55] الفجر 27 . 30.

[56] القيامة 14 ، 15.

ولساءلٍ أنْ يسأل:

. من أجل ماذا الخوف الموضوعي؟ ومن الذي يتّصف به؟

نقول:

الخوف الموضوعي من أجل الحقّ ليس إلّا، والذي يتّصف به هو الساعي لإحقاقه.

ولهذا فالذين يسعون دائماً لإحقاق الحقّ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أي أنَّ الذين استقاموا لا اعوجاج فيهم؛ فهم على الصراط، ولكن متى يكون الإنسان على الصراط؟

نقول:

عندما تمتلئ نفسه بالسكينة حتى تصبح مطمئنة، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ}[57].

إذن الموضوعية يملؤها الخوف من أجل إظهار الحقيقة مهما اختلف الزمان والمكان والثقافة أو الدين والعرف؛ فالحقيقة واحدة سواء أكانت ذات مؤثّر سالب أم ذات مؤثّر موجب؛ فالكذب حقيقة والصدق حقيقة، والنفاق والرفض والتمرّد حقائق كغيرها من الحقائق، والموضوعية هي قول الحقيقة وفعل الحقيقة، وفي المنطق الموضوعي ليس عيباً أن يقال للكاذب كاذباً، وللسارق سارقاً وللصادق صادقاً، بل العيب أن لا يقال ذلك حقيقةً. هذه هي الموضوعية كحقيقة لا تتبدّل ولا تتغيّر مهما تغيّر

[57] فصّلت 30، 31.

الزمان والمكان أو تغيّرت وجهات نظر الأفراد وتبدلوا نتيجة تعرّضهم إلى مؤثّرات ومتغيّرات من الداخل أو من الخارج.

وبما أنَّ الحقيقة هي ما يتطابق مع الموضوع، إذن ليس بالضرورة أن تكون الموضوعية منطقية، وذلك لأنَّ معايير الحقيقة ليست هي المعايير المنطقية، فمعايير الحقيقة هي الصدق والثبات، أمّا معايير المنطق؛ فهي الافتراض والتوقّع؛ فالإنسان كونه موجوداً وجوده حقيقة موضوعية وليس وجوداً متوقّعاً، وتفكيره منطق، ذلك لأنَّ التفكير مرتبط أو مترتّب على وجود الإنسان باعتباره متميّز بقدرات العقل المفكّر، والحكم على أنَّ الإنسان موجود وأنّه مفكّر هو الحقيقة الموضوعية، ولكن ليس بالضرورة أن كلّ إنسان موجود هو مفكّر، حيث أنَّ البعض موجودون ولكنّهم فاقدون لحاسة التفكّر والتذكّر اللتين هما من خاصيّة الإنسان، وهذا ما يجعل المنطق ليس بالضرورة أن يعكس الحقيقة على ما هو واقع.

وفي الموضوعية ينطبق الحكم على المحكوم، حيث تطابق المعطيات المثبتة بالملاحظ أو المشاهدة، وإذا لم ينطبق الحكم على المحكوم تصبح الحالة المحكومة تحسّ بالظلم؛ فترفض وتطالب بالنقض، وإلّا ستتمرّد وتثور بأسباب الخوف على مصدر الظلم، ولذا عندما يتطابق الحكم أو الفكرة مع الواقع تسود الموضوعية؛ فتصبح سلوكاً أو فعلاً ماثلاً إثباتاً وليس افتراضاً.

وعليه: عند إجراء الدراسات والبحوث العلمية لظاهرة أو مشكلة ما يطلب البعض من الباحث موضوعياً أن يتجرّد من خصوصيته الاجتماعيّة والتشريعيّة التي بها يتميّز عن غيره، لكي لا يتأثّر بها عاطفياً على

حِساب موضوعية البحث العلمي، ولكن إذا كان الأمر كذلك، هل تُعدّ الخصوصية عيباً علمياً يجب تلافيه، أم أنّها تُعدّ ميزة علمية ينبغي أن لا تُهمل بالبحث الموضوعي؟

نقول:

إذا كانت الخصوصيّة ذات تأثير سلبي على إظهار الحقائق (هي كما هي)، بدون شكّ هي عيب لا علاقة للعلم بها؛ فالعلم تجريد الحقائق ممّا يعلق بها، وليس تلبيس الحقائق بباطل، ولذا فإنَّ البحث العلمي الموضوعي، هو الذي يتدارك الخصوصيات بالبحث دون أن يهمل شيئاً منها، ولكن البعض الذي يدّعي الموضوعية أو يودّ لها أن تكتسي بما ليس فيها، هو الذي يُعدُّ في حقيقة أمره خارجاً عنها، تلحقه الإشارات ولا يستطيع إلحاق الآخرين بإشارة واحدة.

ولأنَّ للخصوصية دلالة ومعنى، لذا لقد خُلقنا عليها، ممّا جعل بصمات الجميع لا تتساوى ولا تتطابق مع الجميع؛ فلكلٍّ خصوصيّته التي خُلق عليها دون غيره، مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ}[58].

ولذا إنْ كانت الخصوصية من صنعنا، فقد يكون العيب فيها، وإنْ كانت من صنع صانعنا؛ فكيف يمكن لأحدٍ أنْ يتخلّص منها؟

وعليه فالموضوعية أن تُقدّم الحقائق كما هي لا كما ينبغي أن تكون عليه، ذلك لأنَّ ما ينبغي أن تكون عليه هو المطلب، وستظلّ الحقيقة كامنة في الموضوعيّة إلى أن يتحقّق ذلك المطلب الذي يُقدِّمها موضوعياً (هي كما هي).

---

[58] الأنعام 94.

إذن الحقيقة علمياً هي كشف الزيف عن المعلومة سواء أكانت هذه المعلومة صادقة أم أنّها كاذبة، لذا يجب أنْ تُقدَّم (هي كما هي) ولا تُقدّم كما يودّ من البعض أن تُقدّم دون خوف.

ولإزالة اللبس والغموض عن الموضوعية، ينبغي أن نفرِّق بين التزام الباحث بخطوات البحث العلمي أثناء تقصي المعلومات والبيانات التي تعكس حقيقة الموضوع، وبين شخصانية الباحث وأنانيّته التي لا تعكس حقيقة الموضوع، ولذلك التزام الباحث بدينه وتحيّزه إليه هو حقّ لا يعدّ عيباً، بل العيب أن لا ينحاز إليه باعتباره الحقّ، وعلينا في مثل هذه الحالة أن نميِّز بين الدين كموضوع وبين سلوك البعض وخاصة الذين ليس لهم علاقة بالموضوع، ولهذا فمن الموضوعية أن يتميّز موضوع الباحث المسلم عن موضوعات غيره من البحاثة غير المسلمين عندما يكتبون عن الدين الإسلامي، وفي مثل هذه الحالة لسائلٍ أن يسأل:

من هو الباحث الموضوعي يا ترى؟

نقول:

في اعتقادنا سيكون الباحث المسلم أكثر موضوعيّة من غيره عندما يتعلّق موضوع البحث بالدين الإسلامي، ويكون المسيحي أكثر موضوعية من غيره عندما يكون الموضوع قيد البحث يتعلّق بالمسيحية، وهكذا يكون الباحث اليهودي أكثر موضوعية عندما يتعلّق أمر البحث بالدين اليهودي، ولذا فالباحث المسلم عندما يكتب عن دينه (الإسلام) يُفترض أن يكون هو الأقرب إلى المعلومة الصادقة من الكاتب غير المسلم، وهكذا حال الباحث الكنفوشي أو البوذي عندما تكون مواضيع البحوث ذات علاقة بأديانهم ومجتمعاتهم؛ فكلّ منهم يُفترض أن يكون

موضوعياً عندما يتعلّق موضوع البحث بدينه أو مجتمعه، ولكن متى يكون كلّ من الجميع باحث موضوعي؟

عندما لا ينحاز إلّا للحقّ؛ فإن انحاز لغيره وإن كان الباحث هو الأولى بالبحث؛ فهو على غير موضوعية.

ولساءلٍ أن يسأل:

لماذا في بعض الأحيان ينحاز البعض لغير الحقّ؟

نقول:

لانعدام الخوف من النفس؛ فلو مولئت النفس به لكان الحقّ ظاهراً، ولأنّها لم تملأ به، أصبح الحقّ كامناً، يعرفه الباحث ولكن لا يقدم على إظهاره.

وعليه: كلّما أشتدّ الخوف من أجل إظهار الحقيقة كانت الموضوعية هي القوّة الممكّنة من إظهارها (هي كما هي). ولذا فإنَّ قول البعض أن لا يدرس الباحث مجتمعه لكي يكون موضوعياً قول لا تسنده الحقائق.

إذن الباحث الموضوعي هو الذي يُميّز بين التزامه بمباديء أمّته وتاريخها سواء أكان تاريخاً سالباً أم موجباً، وبين شخصانيته وأنانيته التي يودّ لها أن تكون على حساب خطوات البحث العلمي أثناء تجميع المعلومات وتحليلها واستخلاص النتائج العلمية منها، فعندما يلتزم الباحث بمباديء أمّته ودينها وقيمها؛ فإنّه في هذه الحالة يوصف بأنّه ملتزماً بمباديء عامة (ملكاً للجميع)، وإلّا هل يعقل موضوعياً أن يفكر الباحث المسلم أثناء قيامه بمهمة البحث والدراسة بأنّه غير مسلم؟، وهكذا هل يعقل موضوعياً أن يفكِّر الباحث اليهودي أو المسيحي أو البوذي أو الكنفوشي بأنّه لا علاقة له بالدين الذي ارتضاه لنفسه؟

وهل الدين والثقافة والعادات والأعراف والتقاليد أملاك لفرد بعينه حتى يُطلب منه التجرُّد منها، وإلّا سيوصف بعدم الموضوعية؟

إذا كان الدين والعرف والقيم السائدة تُعدُّ مصادراً للتّشريع المنظم لعلاقات الأفراد والجماعات تحت مظلّة الأمّة أو الدولة؛ فكيف إذن يوصف الباحث المنسلخ عنها بالموضوعية؟ فالباحث الاجتماعي الذي يعتقد في الفكر الرأسمالي لا يمكنه القيام ببحثه إلّا من داخل هذا المنظور، وإذا وجدنا باحثاً من داخل المجتمع الرأسمالي يقوم ببحث وهو متجرد من هذا المنظور؛ فإنَّ ذلك يدلّ على أنّه غير منتمٍ إليه بالتمام، وقد يكون منتمياً لغيره، أي منتمٍ للآخر. وهكذا إذا وُجد باحثاً من المجتمع الماركسي؛ فهذا يدلّ هو الآخر على أنّ الباحث كان يُفكر بعقل الآخر. ولذا يجب أن يفكّر الباحث العلمي موضوعياً بعقله لا بعقل غيره، وأنْ يُقدِّر الآخرين وخصوصياتهم الدينية والعرفيّة دون أحكام مسبقة.

ومع أنَّ الموضوعية مطلباً رئيساً في البحث العلمي، إلّا أنَّ الموضوعية هي الأخرى نسبيّة وليست مطلقة، حيث لا مطلق إلّا من عند الله، ولهذا فالتمسّك بها وكأنَّها المُطلقة، تمسّك في غير محله، ولأنّها نسبيّة؛ فينبغي أن تمارس بخوف ومرونة لا باشتراطات وأحكام مسبقة.

وعليه: فالموضوعية تستوجب من الباحث الخوف لكي يتمكّن من الابتعاد عن الأحكام المسبقة وعدم الأخذ بالمسموع (هو كما هو) إلّا بعد إخضاعه للاختبار والقياس، ولذا فمن الموضوعية أن يلتزم الباحث بالموضوع ولا يحيد عنه عند دراسة الظاهرة، وعليه أن يميّز بين رغباته

وآماله وفروضه، وبين النتائج التي يتمّ التوصُّل إليها، التي قد تخالف توقعاته وافتراضاته المسبقة.

ومن الموضوعية أن لا يعمّم الباحث الموضوعي نتائج بحوث العينات في الدراسات الاجتماعية على المجتمع الذي لم تستهدفه الدراسة بالبحث؛ فالعينة دائماً لا تمثل إلّا نفسها، ونتائجها مؤشرات Indicators إلى المجتمع الذي أخذت منه العيّنة قيد البحث والدراسة، وإذا عُمِّمت نتائج العيّنة على المجتمع الذي لم يخضع للدّراسة؛ فإنَّ أحكامها تُعدّ فاقدة للموضوعية وفاقدة للمصادق، ولهذا موضوعياً لا ينبغي أن تعمّم نتائجها والأحكام المترتّبة عليها على من لم تُجر عليه الدراسة أو البحث.

وإذا كان من الموضوعية أن تُقال الحقيقة، فلماذا يلتجيء البعض إلى إخفاءها؟ ولماذا الادعاء بالموضوعية في الوقت الذي يحيد البعض عن قول الحقيقة أو فعلها؟ وهل من الموضوعية أن تُجمع المعلومات والبيانات النظرية عن موضوع البحث والدراسة المتعلّق بالمجتمع ككلّ، ثم تُقصر المعلومات الميدانية فقط على ما يتمُّ جمعه من معلومات أو بيانات من العيّنة التي تمّ اختيارها عمداً أو عشوائيةً؟

إنّها ليست الموضوعية؛ فالموضوعية أن تتماثل المعلومات في المجال النظري مع المجال الميداني عندما تكون الدراسة أو البحث يتكوّن من جانبين (نظري وميداني أو معياري). وإلّا هل يُقبل أن تكون المعلومات النظرية واسعة وتمتدّ إلى زمن بعيد من التاريخ لتحتوي على المعلومات العامة عن المجتمع بكامله، ثمَّ تأتي الدراسة الميدانية وتُضيَّق على عيِّنة محدودة؟ إنَّ مثل هذا الإجراء يدل على عدم الموضوعية.

فالموضوعية حقائق وليست تنبؤات Prediction . التنبؤات قد تقع كما هو متنبأ بها، وقد لا تقع كذلك، أي قد يكون لها على أرض الواقع سنداً موضوعياً وقد لا يكون، أمّا الموضوعية فلها من المصادق ما يمكن الإثبات والبرهنة بها على كلّ ما يتّصف بها، ولذا فمن الموضوعية ووافر الخوف أن لا يخرج البحاثة، وكذلك أطراف الحوار _ إنْ كان الموضوع حواراً . عن قواعد المنطق الموضوعي في تناول القضايا والمواضيع والإشكاليات قيد البحث والدراسة أو الحوار، وإن خرجوا فلا موضوعيّة ولا خوف، ولذا فهم من غيرهما (الموضوعية والخوف) يخرجون.

وعليه: للموضوعية شرط ولا شرط عليها، وشرطها هو أن تتوافر الإرادة التي تمكّن الفرد من قول الحقّ وفعله، ولذا عندما تنعدم الإرادة تنعدم الموضوعية، وبما أنَّ الإرادة شرط لتحقيق الموضوعية، والإرادة حرّة، إذن لا يمكن لأحدٍ أن يتّصف بالموضوعية ما لم يكن حرّاً.

وعليه: فالاشتراطات تشكِّل قيداً، والموضوعية تتطلّب فكّ القيد بإرادة أو كسره بالقوّة.

ولأنَّ الاشتراطات قيوداً تستوجب الإتباع وعن غير إرادة في بعض الأحيان؛ فإنّ كلمة (يجب) تحمل في مضمونها إجباراً وإصراراً على التقيّد بما تحتويه كلمة (يجب) من قيود لتكون الطاعة التّامة لِما تودّ أن تجبر عليه، كأن يقال لك يجب أن تتخلّص من خصوصيتك (بما تختلف به عن الآخرين أو تمتاز) وأن تتخلّى عن ثقافتك ودينك وتقاليدك، فإذا كانت الموضوعية من وجهة نظر البعض هي هكذا مبنية على كلمة (يجب)؛ فمن هو صاحب الأحقية في اتخاذ هذا القرار

الإجباري لكي نطيع أومره وننتهي بنواهيه؟ وهل إذا قبلنا بهذا الإجبار تكون محاوراتنا وبحوثنا حرّة ذات سيادة؟ وهل يمكن أن يكون المتحاورون أحراراً وهم مقيدون بكلمة (يجب) واشتراطاتها؟

بدون شكّ تُعدُّ الموضوعية نزاهة في الرأي والأسلوب أو المنهج والطريقة المتّبعة عند سبر أغوار الحقائق العلمية وتحليلها وتفسير نتائجها، ولذلك ينبغي أن تكون الأحكام العلمية نسبية وليست قطعية ولا مطلقة؛ فإذا كانت النسبية نظرية مثبتة في العلوم الطبيعية ألا يكون الأولى تصديقها والعمل بها في العلوم الاجتماعية؟ وإلّا هل هناك من يعتقد أنَّ نظرية النسبية لا تعتمد على الموضوعية في قوانينها؟ وإذا كان الوصول إلى نظرية النسبية في أساسه هو الاعتماد على الموضوعية في البحث العملي، ألا تكون الموضوعية في أساسها هي الأخرى نسبية؟

ولساءلٍ أن يسأل:

ما هي العلل والمعطيات والبراهين التي تجعل الموضوعية على النسبية؟

نقول:

الخوف المُمكّن من التمييز بين ما هو في دائرة المتوقّع نسبيّاً وبين ما هو خارجها مُطلقاً.

ولذا في نظريّة التقريب الإحصائي لا وجود للمطلق إلّا الذي هو خارج مجال قدراتنا البشرية، وبالتالي في حالة إجراء العمليات الحسابية سواء بالجمع أو الطرح لا يتمّ الانتقال من كمٍّ إلى كمٍّ إلّا بالتقريب الحسابي؛ فعلى سبيل المثال: الانتقال من 1 إلى 2 يحتاج إلى كمٍّ من الكسور كجزيئات مترابطة تُجمع بعد الواحد الحسابي لكي نصل إلى العدد 2، وهكذا لا يتمّ الانتقال إلى العدد 3 ثلاثة إلّا بالتقريب الحسابي، وإلّا لا

يمكن الوصول إليها حتى النهاية، ولهذا عرفنا (1، 01، 001، 000، 00001، 000001، 0000001، ...الخ) وهكذا لا يمكن الوصول إلى العدد 2 إلّا بالتقريب الحسابي وذلك لعدم وجود الأحكام المطلقة إحصائياً. وهذا الأمر يجعلنا نؤكِّد بأنَّه لا وجود للموضوعية المطلقة، بل الوجود للموضوعية النسبيّة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

وبناء على ذلك أتساءل:

هل من الموضوعية أن يتحرّر فكر الإنسان وعقله من القيود والموانع أم من الموضوعية أن يُقيَّد، أم أن كلّ شيء نسبي؟

نقول:

كلّ شيء في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع هو نسبياً، ولأنّ كلّ شيء في هذه الدائرة المعرفية هو نسبي، إذن ينبغي أن يكون الإنسان موضوعياً في دائرة الممكن.

وعليه تُعدّ الشخصيّة الموضوعية المفردة الأولى في مجتمع الفكرة، مجتمع (الناس متساوون) بغض النظر عن أجناسهم وثقافاتهم وأعرافهم ومعتقداتهم؛ فهم كأناس متساوون في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وتحمّل المسؤوليات، ولذا فإنّ مجتمع الفكرة هو المجتمع الموضوعي، ولأجل ذلك يجب أن تكون الفكرة مملوءة بالخوف لكي تكون سليمة من العيوب، والمنتمون إليها أو المتمسّكون بها هم الآخرون خالون من العيوب، عيوب التحيّز والتعصّب والتفرّق، حتى يكونوا على الحقِّ في آراءهم وأفعالهم وتصرفاتهم ومعارفهم.

ولأنَّ المعرفة تتكون من مجموع ما يلاحظ وما تدركه الحواس؛ فهي إذن نسبية التكوين، ولهذا نسبة من معارفنا عرفناها عن طريق حاسة السمع،

وأخرى عن طريق حاسة اللمس، وهكذا بقية معارفنا جاءت عن طريق بقية حواسنا.

وعليه بما أنّ الموضوعية نتيجة معرفة وخوف إذن الموضوعية من مكوّن نسبي. ولتبيان ذلك أورد القضية الآتية:

كلّ معرفة من مكوّن نسبي

الموضوعية من المعرفة

إذن الموضوعية من مكوّن نسبي

وهكذا إذا كان الحوار العلمي هو المؤسس على المعرفة، والمعرفة نسبية، إذن ألا يكون الحوار هو الآخرُ في دائرة الممكن نسبياً؟ بالتأكيد نعم إنَّه نسبياً، ولنرى القضية المنطقيّة الآتية:

الحوار نسبي

الموضوعية نتاج الحوار

إذن الموضوعية نسبية

وحتى إذا سلّمنا بمصداقية الموضوعية في حدود الالتزام بالنزاهة والتقصّي الدقيق، فإنَّ النزاهة والتقصّي الدقيق هما نتاج قدرات عقلية وإدراكات فكريّة، وبما أنَّ المدركات الفكريّة نسبية، والموضوعية مدرك فكري، إذن ألا تكون الموضوعية نسبية؟ فلنلاحظ القضية المنطقية التالية:

المدركات الفكرية والعقلية نسبية

الموضوعية مدرك فكري وعقلي

إذن الموضوعية نسبية

وحتى إذا سلّمنا بأنّ الموضوعية حقيقة كما سبق وأن بيّنا، والحقيقة العلمية ليست مطلقة، فهل يمكن أن تكون الموضوعية مطلقة؟

ولأنَّ زمن الحقيقة مؤقّت، إذن من الضرورة أن تكون له النهاية، ولذا لا تنتهي الحقيقة إلّا باكتشاف بطلانها؛ فكثير من الحقائق العلمية أصبحت ليست كذلك بالتطوّر والاكتشاف العلمي، ولهذا فالعلم متطوّر وحقائقه مؤقّتة، وكلّ فروضٍ علمية أو بحوثٍ جديدة تصبح في خبر كان أمام البحوث الجديدة التي ترتّبت عليها أو تجاوزتها بمعرفة حقائق جديدة، التي قد يأتي يوماً وتنفيها أو تُبطلها حقائق متجدِّدة وهكذا.

وعليه من الموضوعية أن يراعي الباحث أثر الظرف الزماني على تحليل الموضوع وتفسيره حتى لا يقيِّم موضوع ما وقع في الزمن الماضي بنظرة زمن اليوم، حيث أنَّ لكلّ زمن ظروفه ومعطياته الخاصة التي تميّزه عن غيره من الأزمنة، ولذلك تختلف معطيات الزمان من وقت لأخر، ممّا يحث الباحثين على الالتزام بالتحليل الموضوعي للفعل أو السلوك أو الظاهرة في زمان حدوثها، مع مراعاة المتغيِّرات التي استجدّت عليها، والتي أثّرت على الحياة الحالية بشكل أكثر أو أقل سلبية من الزمن الماضي. فعلى سبيل المثال الزمان الذي ظهر فيه سقراط وفلسفته يختلف عن زمان الفارابي، وزمانهما يختلف عن زمان الثورة الفرنسية، ولذا فإنَّ الزمان الحاضر تختلف مخاوفه ومعطياته ومتغيراته عن معطيات ومتغيرات ومخاوف الزمان الماضي حتى وإن كانت الأفكار بينهما متّصلة، ولهذا عبر الزمان تتغيّر حياة المجتمعات وتتطوّر أو تتقدّم.

إذن ينبغي أن تحلّل الأفكار موضوعياً وفقا لمعطياتها في الزمان الذي وقعت فيه لا بمنظور الوقت الحاضر الذي مخاوفه وظروفه ومعطياته تختلف عن ظروف ومعطيات ومخاوف الزمن الماضي.

وعليه: فإنَّ التحليل الموضوعي هو التحليل بالمصادق، لا بتركيب المقدمات المتضمِّنة نتائج المنطق الأرسطوطاليسي التي في بعض الأحيان تفتقد إلى المصادق، كما هو حال القضية الآتية:

كلّ الحيوانات تخاف الأسد

واللبؤة حيوان

إذن اللبؤة تخاف الأسد

هذه النتيجة لا مصادق لها، لانَّ الحيوانات في براريها تخاف الأسد، إلّا اللبؤة فإنّها لا تخافه، بل تعاشره بودٍّ، ويحدث بينهما الجماع الفطري، الذي تنجب من بعده اللبؤة شبلاً يكون من بعد أسداً بعاطفة أمومة اللبؤة وأبوة الأسد.

وهنا فالتحليل الموضوعي لا ينبغي أن توضع أمامه إشارة قفّ، بل يجب أن يُفسح المجال أمامه من أجل اكتشاف العلاقات بين المتغيرات التي تؤثّر في الموضوع، ولذا لا يجب أن توجد كلمة قف أو ممنوع في قاموس التحليل العلمي، حتى وإن قبل بها القاموس السياسي.

لقد اعتقد بعض الباحثين الاجتماعيين في الموضوعية لدرجة وصفوها بأنّها المثال الذي لا يساويه مثال في المصادق، حتى ظننّا أنَّ الموضوعية هي البيت الذي لم يسكنه الإنسان بعد، نتيجة شكّ البعض في الإنسان وثقتهم في البيت (الموضوعية). ومن هنا نتساءل:

هل يحقُّ لنا في الوقت الواحد أن نشكّ في الإنسان ونثق في الموضوعية؟

إذا كانت الإجابة بنعم؛ فإنّ ذلك يعنى أنَّ الموضوعية لا ترتبط بالإنسان على الإطلاق، ولهذا لم تكن صفة إنسانية، ولا علاقة لنا بها، وبالتالي سقطت اشتراطاتها علينا.

وإذا كانت الإجابة بلا، فإنَّ ذلك يعنى لا ثقة في الموضوعية من غير الإنسان، ولهذا لا يمكن أن يكون الإنسان موضوعياً إذا لم نضع الثقة فيه.

وعليه عندما تكون الثقة في الإنسان، لا يمكن أن تكون الموضوعية على حسابه، بل إنّها تكون من أجله.

ولذا لا يمكن أن يكون الباحث موضوعياً وهو متخلِّصٌ ممّا يميّزه عن غيره من قدرات واستعدادات وميول واتجاهات وقيم اجتماعية وفضائل إنسانية.

ولأجل معرفة أهمية الموضوعية والمخاطر المترتّبة عليها أتساءل:

1 . هل الالتزام بإشارة (قفّ) أو الالتزام عندها يعدّ موضوعية أم أنَّه لا موضوعية؟

2 . هل الالتزام بمضمون كلمة (ممنوع) يُعدّ موضوعية أم أنَّه لا يعدُّ كذلك؟

3 . هل التقيّد بالإجابة على الأسئلة التي تتطلّب الإجابة بكلمة (نعم) أو (لا) تعدّ موضوعية أم أنّها لا تعدُّ كذلك؟

4 . هل الالتزام (بالقانون) يُعدُّ من الموضوعية أم أنَّه يعدُّ خروجاً عنها؟

5 . هل الالتزام (بالأخلاق) يُعدُّ من الموضوعية أم لا يعدُّ التزاماً موضوعياً؟

6 . هل الالتزام (بالدين) يعدُّ من الموضوعية، أم أنّه لا يعدُّ موضوعية؟

7 . هل الالتزام (بطاعة الوالدين) تعدُّ موضوعية أم أنّها قد لا تعدُّ كذلك؟

8 . هل الالتزام (بسياسة الدولة) تعدُّ موضوعية أم لا؟

إنَّ الإجابة على هذه الأسئلة متروكة للجميع، لأنَّ الإجابة عليها قد تقودنا إلي الحديث عن حياة الفطرة (التي فطر الإنسان عليها)، وهى الحياة غير المنتظمة برؤانا واشتراطاتنا وقوانيننا، لانتظامها في فلك لا يوجد فيه فعل الأمر، ولا كلمة التحريم والتجريم، لأنّها الحياة المترتّبة على الخلق، لا الأخلاق، هذه هي حياة الفطرة ونواميسها الطبيعية. أمَّا الحياة الإنسانية؛ فهي التي نقلت البشر من حياة الطبيعة إلى حياة القيم والفضائل الإنسانية وحياة النواميس الاجتماعية. إنَّها حياة ما يجب وما لا يجب، حياة المقبول والمرفوض، وحياة الامتداد، والحركة، والسكون. حياة الدولة المتواضعة التي تأسّست على العلائق القيمية الاجتماعية والإنسانية، والدولة المرنة التي تأسّست على استيعاب الآخر بإرادة، والدولة الخشنة التي تأسّست على القوات المسلحة وهراوات البوليس التي أظهرت الحكومات المحكومة بقوانين التجارة العالمية، والبنك الدولي، ممّا جعلها مضطرة إلى تجنيد البشر ضد البشر، وترويضَهم إلى درجة أنّهم أصبحوا يتظاهرون ويطالبون بالقوانين التي تحدّ من سلطتهم وحرّيّتهم تحت عنوان من أجل الاستقرار، أو من أجل الديمقراطية التي

لم يتمكَّن المواطن من ممارستها. إنَّه من الصعب أن نستوعب كيف كنَّا بشرية، ولماذا لم نستمر وأصبحنا إنسانية؟

إذن يفترض أن نكون قد عرفنا الإجابة على الأسئلة السابقة، أو عرفنا مؤشراتها الموضوعية، وإذا لم نعرف بعد الإجابة عليها أو على بعض منها، نعيد طرح السؤال السابق: هل الالتزام بالقانون يُعدّ موضوعية أم أنّه يُعدّ قيد عليها؟ ولكي نجيب ينبغي أن نحدّد مضمون هذا النصّ الاستفساري، وذلك من خلال تحديد عناصره الأساسية وهى:

الحاكم: وهو المصدر والمقر للقانون.

المحكوم: وهو المنفِّذ عليه القانون.

الوسيلة: وهى المنفذة للقانون باعتبارها أداة الحاكم المديرة للأجهزة والإدارات العامة.

وعليه: فالإجابة الموضوعية على هذا التساؤل هي الإجابة النسبية، وليست المطلقة، ولذا فبالنسبة للحاكم يعدّ القانون تشريعاً لدعم الحرّيّة ويعتبر الالتزام به هو عين الموضوعية.

وبالنسبة للمحكوم يعدّ القانون قيداً على الحرّية، ومن الموضوعية أن لا يتمّ الالتزام به.

أمّا بالنسبة للوسيلة لا رأى لها إلّا من خلال رأى الحاكم الذي تعتبره مكمن الموضوعية، لأنّ تقييمها قد يتأثّر بالمصلحة التي أوجدت الوساطة والمحسوبية بين العناصر الثلاث. ولهذا هل طاعة القانون تُعدّ موضوعية واجبة التقدير، أم أنّها لا تستوجب ذلك؟

بناء على ما سبق تكون لهذا السؤال ثلاث إجابات مختلفة الدلالة والمعنى هي:

1 . بالنسبة للحاكم الخائف من الشعب (حيث لا ثقة) يعتبر طاعة القانون الذي يُطبّق على غيره عين الموضوعية؛ وهو وسيلته لإخافة الشعب؛ فيجب أن يطاع من قِبلهم إرادة أم كرهاً.

2 . بالنسبة للمحكوم الذي لم يشارك مباشرة في إقرار روح القانون الذي سيطبق عليه كرهاً، لا يعتبر طاعته موضوعيّة، بل يعتبر الموضوعيّة بمخالفته.

3 . بالنسبة للأداة المرتهبة مرتين (مرة من الحاكم ومرة من الشعب) باعتبارها الأجهزة المنفِّذة للقانون، ليس لها خيار إلّا أن تقول إنَّ الموضوعية هي في طاعة القانون، وعندما تسنح الفرصة لها أو تحين لتقول آراءها بإرادة، قد تتحرّر من هذا القيد، وتقول ما يمكن أن يقال في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

إذن من يسن الدساتير ويصدر القوانين خوفاً (عن وعي)، يطيعها بإرادة راضياً، ومن لا يشارك في ذلك بأسباب التغييب والإقصاء والاستثناءات القانونية الظالمة، سيكون رافضاً لكلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الحكم بها، ولذا فمن الموضوعيّة لا ينبغي لواضع للدستورٍ أو قانونٍ أن يخالفه، ومن يخالفها يعاقب موضوعياً، لإخلاله بشروط التعاقد القانوني التي التزم بها كواجب ينبغي أن يؤدّى، ومسؤولية يجب حملها وتحمُّل ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه فمن الخوف تصاغ القوانين إرادة (شِرعة ومنهاجا) فلا يتفشّى الفساد ولا تعمّ المظالم ولا ينتشر الانحراف بين الناس ولا تفسد الأخلاق ولا تضيع القيم الاجتماعيّة والفضائل الإنسانية.

الخوف وعلاقته بالقانون

القانون اصطلاحاً تمّ التعرُّف عليه كونه المنظّم للعلاقات الاجتماعية والدولية حركةً وسكوناً، والذين يقرّونه إرادة ليس لهم بدٌّ إلّا احترامه، أمّا أولئك الذين يُجبرون على طاعته كرهاً؛ فليس لهم بدّ إلّا مخالفته ظاهراً

أو باطناً، ولهذا لا علاقة للخوف بالقانون، بل العلاقة به لا تكون إلّا طوعاً واتّباعاً أو عصياناً وامتناعاً؛ فالقانون لا يخيف، بل الذي يُخيف هو المطبِّق له إن لم يكن موضوعياً عادلاً.

ومع أنّ القانون منظّم لعلاقات الأفراد والجماعات والمجتمعات، إلّا أنّه بالنسبة للمخالفين له يُعدّ عائقاً بينهم وبين ما يسعون إلى بلوغه من غايات مجرّمة قانوناً، ولذا لا يمكن أن تكون العلاقات مع القانون إلّا احتراماً، ومن لا يحترمه يجد نفسه في مواجهة مع الآخرين المحترمين له والمنفّذين، وعندما يكون القانون لا يستحقّ الاحترام سيكون الخائفون هم المحترمون المتصدّرون مخالفته ومواجهة المنفِّذين له.

إذن لو تمّ الإقرار بأنَّ القانون مخيف، لتمّ الاعتراف بأنّه ظالم، وإذا كان القانون ظالماً لوجب الخوف الذي يُحفّز على تغييره من أجل فكّ الظلم عن الرقاب.

وعليه: فالقانون قد يُحول بين المرء وأهدافه، ولكن الخوف لا يحول، بل الخوف يُحفِّز المرء على تحقيق أهدافه وبلوغ غاياته؛ فالذي يخاف على مستقبله لابدّ له من العمل والسعي الذي يحقّق له الأمان والسكينة والطمأنينة، أمّا الذي لا يخاف على مستقبله سيظلّ قابعاً في مستنقع الهموم وهو راضٍ باليسير مع وافر الجبن.

إذن موضوعياً لو كان القانون مخيفاً، لما قرّرت جميع المجتمعات الإنسانية سنّه لتنظيم علاقاتها المحليّة والدوليّة، ولذا لا يُعقل لعاقلٍ أن يسنَّ ما يجعله خائفاً ومهموماً، بل الكلّ يبحث ويسعى من أجل بلوغ ما يجعله آمناً مطمئناً.

فالخوف الموضوعي هو الذي يُحفِّز الخائف على مواصلة سعيه تجاه كلّ ما من شأنه أن يُمكِّنه من تحقيق أهدافه وبلوغ غاياته دون تردد، ولهذا القاعدة تقول: (الجبن يحول بين المرء وبلوغ غاياته، أمّا الخوف فيُحفِّز على بلوغها).

وهنا وجب القول: أنَّ القانون العدل يطمئن الأنفس، ولأنّه كذلك فهو لا يخيف، بل لو كان مخيفاً لما سعت المجتمعات والدول إلى سنّه لتنظيم علاقاتها، بل تعتبره القاضي على المخاوف بما يحقّقه من سكينة وطمأنينة نفسية للأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية، ولهذا كلّ المجتمعات التي لم ينظمها قانون هي مجتمعات راكنة تحت وطأة الخوف والجبن معاً؛ فلن تطمئن إلّا بسنِّه؛ فإن تمكّنت من سنِّه تمكّنت ممّا يُمكِّنها من محقّقات الطمأنينة للنفس وما تمتلك.

وعليه فالفرق كبير بين ما يحقّقه القانون وبين ما يحقّقه الخوف؛ فالقانون يحقّق السكينة، والخوف يُحقِّق الاضطراب الذي سيظل سائداً إلى أنْ يتمّ بلوغ السكينة.

ومع أنَّ القانون محقّق للسكينة، إلّا أن البعض من شياطين الإنس، لا يعتبرونه كذلك، ولهذا فهمّ يظلمون، ويعتدون، ويعملون كلّ ما من شأنه أن يُفرِّق بين المرء وزوجه، ولذا فالشياطين لا يُخيفون الذين آمنوا، بل يُخيفون الذين هم يظلمون، مصداقاً لقوله تعالى: {ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[59]، ولهذا فالقانون العدل يُعدُّ قيداً على شياطين الإنس، ويُعدّ تنظيماً لحياة الذين هم بمخافة ربّهم يسعون إصلاحاً في الأرض؛ فلا يقتلون النفس التي حرّم الله ولا يعتدون

[59] آل عمران 175.

ظلماً، ويقولون الحقّ ويُحقّونه فعلاً وعملاً. فمن يعمل من الصالحات فلا يخاف على مستقبله، وعليه أن يُكثر ولا يستكثر، {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا}[60].

ومع أنّ الإنسان واحد من حيث كونه إنساناً، إلّا أنَّ الأنفس في محيط كونه تتعدّد؛ فمنها المتماثل، ومنها المتباين، ومنها المختلف والمعاكس، ولذا فالذين يخافون هم دائماً يجتنبون أفعال وأعمال الآثام ويُقدِمون على الأعمال الصالحات؛ فينهون النفس عن الهوى مصداقاً لقوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}[61].

وعليه دائماً العلاقة بين خائفٍ ومخيف هي علاقة بين مظلومٍ وظالمٍ، ولا حلّ لهذه المشكل إلّا بأحد أمرين:

أ . حلّ دائم إرادي (مخافة الله) قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[62].

ب . حلّ مؤقت كرهي (قانون أو عرف يُجبر المنحرف على الانضباط). {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا}[63].

وعليه: فمن وقع في نفسه الخوف تجنّب ارتكاب المظالم، وسعى في تفادي ما تتركه من اثرٍ مؤلمٍ، ومن لم يقع في نفسه الخوف فقد ظَلَمَ، {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[64].

---

[60] طه 112.

[61] النجم 40.

[62] البقرة 256.

[63] النساء 34.

الخوف وعلاقته بالشجاعة

المستوى الموضوعي كما سبق تبيانه مستوى قيمي لا انحياز فيه، ولا تغييب، ولا إقصاء بين أنا وآخر، وفيه الخوف يصنع المستقبل إذا توفّرت الشّجاعة التي هي تصميم على الإقدام بعد حسابات موضوعيّة، ولكن إنْ تمَّ التخلّي عن الإقدام بعدما توفّرت معطياته الموضوعيّة، تُصبح الصفة السائدة هي الجبن، وفي مقابل ذلك عندما يكون الإقدام عن غير موضوعيّة، تُصبح الصفة السائدة هي التهوّر؛ فالشجاعة تكون حيث لا يكون الظلم، والتهوّر قد يكون والظلم معاً.

وعليه: فإنَّ الشجاعة عقباها تُحمد، والجُبن عقباه تُذمّ، والتهوّر يلام أصحابه، والشجاعة موضوعياً في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قد تؤدّي إلى الإقدام وقد تؤدّي إلى الانسحاب وكذلك قد تؤدّي إلى الإحجام؛ فالمتّصفون بها لا يقدمون إلّا على ما يجب الإقدام عليه، وقد ينسحبون إذا عرفوا أنّ الإقدام في مرحلة من مراحله سيؤدّي إلى التهلكة، وقد يحجمون عن وعي لمعرفتهم بما يجب، ولذا فالإقدام والانسحاب والإحجام موضوعياً، لا تتمّ إلّا بعد معرفة واعية بها يسترشد العقل.

ولسائلٍ أن يساءل:

هل الشجاعة هي في مواجهة الخوف؟

نقول:

لا شجاعة إلّا والخوف قوّة من ورائها يُحفّز على الإقدام؛ فلولا الخوف ما كانت الشجاعة وما استُفِزّت من مكامنها، ولا مرشد للشجاعة إلى

---

[64] الطلاق 1.

غايتها إلّا الخوف، ولذا ستكون الشجاعة ضالة لطريقها ما لم يرشدها الخوف إلى الأهداف والغايات التي تستوجب الإنجاز والبلوغ.

إذن لا يمكن أن تكون الأنفس ممتلئة شجاعةً إن لم يكن الخوف قوّة إثارتها، ومرشدها تجاه ما يجب أن يُنجز من أهداف وغايات عظيمة؛ فالخوف لا يكون إلّا حيث تكون المخاطر استقراءً ومشاهدة واستطلاعاً، فهو الذي به يُدرِك العقل ما يجب وما لا يجب، وبه يتمّ الاسترشاد الموضوعي إقداماً أم انسحاباً أم إحجاماً.

ولأنّه لا شجاعة إلّا والخوف من ورائها، إذن كلّما اشتدّ الخوف ازدادت الشجاعة شدّة، وكلّما انفرج الخوف انفرجت الشجاعة من شدّتها، ولذا فالعلاقة تكاملية بين الخوف والشجاعة. أمّا العلاقة بينها وبين الجُبن علاقة تناقض؛ فحيث ما يحلَّ الجبن تغيب الشجاعة؛ ولهذا فالجبن بخلاف الخوف من حيث كون الجبن مانع للإقدام والانسحاب الموضوعيين، والخوف محفّز عليهما ومرشد إليهما تجاه ما يجب؛ فهو المنبّه على مكامن الخطر وبؤر الفساد، لأجل القضاء عليها وتفادي مؤثراتها السلبية، وما يترتّب عليها من مظالم.

فالخوف مُنبّه فطري للعقل كي يتدارك الأمر قبل وقوع الكارثة، ولهذا فهو يؤدّي إلى أخذ الحيطة والحذر كلّما توفّرت الشجاعة، وفي مقابل ذلك لا يؤدّي الجبن إلى أخذها.

والشّجاعة موضوعياً لا تكون ظاهرة إلّا في حُسن تصرّف الفعل؛ ولا علاقة لها بتلك العضلات المفتولة لدى البعض؛ فالكثير من أولئك هم متهوّرون وبعضهم جبناء وبدون شكّ منهم العقلاء (الشجعان)؛ فالشّجاعة في الفكرة والرأي المترتّب عليها والقرار المنفّذ لها. أمّا التهوّر

الاستعراضي؛ فلا يُؤدّي بأصحابه إلّا للتهلكة أو الخسارة في أسواق المنافسة الحرّة؛ فمن يتّخذ القرار الصعب في الظرف الصعب عن حكمة يوصف شجاعاً، ومن يتقدّم لفك الفتيل قبل الانفجار المؤدّي إلى التهلكة يوصف شجاعاً، ومن يتبيّن خطورة ذلك عن معرفة واعية ويمتنع عن فكّه وهو قادر يوصف جباناً.

وعليه فالشجاعة قوّة عقلية (تفكُّر وتدبُّر) تُقدِّم أعمال الخير وأفعاله الحِسان، وتُسهِم في صناعة التاريخ وتُرسّيخ الهويّة، وأصحابها يقبلون دفع الثمن مقابل جزاءٍ إنساني في مرضاة الله تعالى.

ولذا فالفرق كبير بين الشجاعة والتهوّر؛ فالشجاعة موضوعياً لا تكون إلّا بحسابات الخوف، أمّا التهور والجبن معاً؛ فلا حِسابات في قاموسهما للخوف الموضوعي، ممّا يجعلهما يوقعان بأصحابهما في أوّل المحاذير التي لو كان للخوف مكانه في قاموسهما لتمّ تفاديها.

الشجاعة لا تتحقّق إلّا عن رويّة، وعاقبتها السلامة المُمكِّنة من بلوغ السكينة. أمّا التهوّر فلا علاقة له مع الرويّة، وعاقبته الندم والألم معاً، ممّا جعل للشجاعة منطق، وجعل للتهوّر سذاجة.

ولمتسائلٍ أن يساءل:

. لماذا الشجاعة عن منطق؟

. ولماذا التهوّر عن سذاجة؟

نقول:

الشجاعة لا تكون إلّا عن منطق، لأنَّها تستهدف إيجاد حلٍّ، وتؤسّس على سرعة التدبّر قبل تفاقم المشكل.

والتهوّر لا يكون إلّا عن سذاجة، لأنَّه يؤدّي إلى تأزمات، ولذا فهو المؤسس على التسرُّع.

وعليه فالعلاقة الموضوعيّة بين الشجاعة والخوف علاقة إقدام وتحسُّب وفطنة وانتباه وأخذ حذر، وصناعة مستقبل فيه السكينة والأمن. أمّا التهوّر فلا نتائج له إلّا فقدان الثقة بين الأنا والآخر ممّا يجعل لكلٍّ حساباته عندما تحين الفرصة.

إذن الشجاعة موضوعياً لا تكون إلّا إذا حلّت الثّقة والأمن في النفس، أمّا إذا رحلت عنها أو قاطعت الالتقاء بها، فلن يكون في النفس مكان يُحلُّ فيه إلّا أماكن الجبن والتهوّر، ولذا فإنْ استقرّ الأمن في النفس، رحل الخوف عنها، وإذا فارقها الأمن، حلّ الخوف فيها، وسيظلّ حتى أن تبلغ الأمن وتسترجعه إنْ أرادت سكينة وطمأنينة مصداقاً لقوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[65]. أي أن القرية كانت مملوءة بالعباد وخالية من الخوف، حاجاتها مُشبعة، ولم تكن في حاجة، حيث لا منقوص لديها، ومع ذلك كفرت؛ فلم تُقدّر أنعم الله عليها، فألمَّ بها الجوع وحلّ الخوف في نفوس ساكنيها.

وهكذا النتيجة دائماً كما يحلُّ الخوف محلَّ الأمن والسكينة والطمأنينة هي تحلّ محلّه، وسيظلّ الحال هكذا مبادلة إلى أن يبلغ الإنسان مخافة الله فلا يخاف، أي سيظلّ الخوف رفيقاً في أنفسنا إلى أنْ تتقي الأنفس ربَّها خوفاً؛ فإذا اتَّقته خوفاً أنعدم الخوف عنها وبقيت في سكينة آمنة

---

[65] النحل 112.

مطمئنّة، وإن بلغتْ هذا المبلغ، بلغتْ بلا خوف المقصد والحكمة التي تكمن في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}[66]. أي بعد التخلّص من الخوف ليس للإنسان بدٌّ إلّا الحمد ودوام الطاعة ثمّ الاستعانة بالله على كلّ أمرٍ في مرضاته حتى لا يحدث الانحراف كما حدث مع أصحاب تلك القرية. ومن بلغ هذه النعمة (لا خوف) بلغ قمّة التحدّي للباطل وأعوانه، {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[67]، ولذا فمن يؤمن بالله ويخافه لا يخاف، ممّا يجعله قادراً على القضاء على الخوف بالخوف.

وعليه فإنَّ الخوف الموضوعي وجوبي، سواء أكان خوف حذرٍ أم خوف حرصٍ، ولتبيان الفارق بينهما نقول:

أ . خوف الحذر: هو (الخوف من)؛ فالخوف من الآخر يستوجب إعداد عُدّة ترهب الآخر وتعيد الثقة في نفس الأنا، ولذا فإنَّ الإحساس بالخطر يستوجب أخذ الحذر الذي يترتّب عليه أخذ الحيطة باختيارات المواجهة أو اختيارات الانسحاب، ولكن إذا لم يكن الأمر محسوماً لصالح أحد الاختيارين، يصبح التنسيق هو الحلّ، وذلك حسب التقديرات والاحتمالات الممكنة.

فالصراع بين العرب والإسرائيليين على الأرض أنتج الشعور بالخوف المتبادل، خوف العرب من إسرائيل من أن تمتلك الأرض المحتلة،

---

[66] الفاتحة 2 . 7.

[67] آل عمران 175.

وخوف إسرائيل من العرب من أن يخرجوها بالقوة، ولهذا سيستمر الصراع ما دام الإحساس بالخوف مستمراً.

ولأنَّ الخوف قوّة تفاعليّة في النفس تجاه الآخر وما يمكن أن يفعله؛ فهو بطبيعة الحال قوّة مؤثِّرة إيجابياً إن تمّ التخطيط لِما يجب أن يكون بديلاً أو حلّاً ليحلّ سكينة وأمناً بدلاً من ذلك الخوف؛ فالخوف على الحياة ممّا يلمّ بها من مخاطر يستدعي إعداد عُدّة لتفادي تلك المخاطر، وإلّا في دائرة الممكن ستقع المخاطر لا محالة، ولهذا فالخوف الحذري تجنبي وقائي.

ب . خوف الحرص: هو (الخوف على)، كالخوف على النفس والخوف على الآخر الذي لم يُقدِّر ظرفه وإمكاناته وما يجب أن يقوم به أو يؤدّيه، وهذا النوع من الخوف لا يكون إلّا من حريص لا متهوّر ولا جبان، ممّا يجعل الآباء والأمهات والمسؤولين المحترمين ومحبي الخير حريصين كلّ الحرص على أن لا يلحق أدى بأبنائهم وبني جنسهم ومن ينتمي إليهم قيماً وفضائل.

وسيظلّ هذا الحال كلَّما توفّرت اشتراطات وجود الخوف الذي يترتّب عليه بالضرورة وجود خائفٍ ومخيفٍ. وعندما يحسّ أيٍّ طرف على أيٍّ بقعة من خريطة العالم، بأنَّ هناك من يشكل خطراً عليه؛ فقد يبادر هذا الطرف الذي يحس بالخطر بالهجوم على مصدر الخوف ليباغته بضربة قاصمة يمكن أن تضعف الخصم وتعيده إلى طاولة المفاوضات (طاولة التنسيق) .

الخوفً بين خائفٍ ومخيف

المُخيف هو الذي يمتلك مقاليد القوَّة وأدواتها، والخائف هو الذي يَفتقد مقاليد القوَّة وأدواتها، ولذا فالذي يمتلك أدوات القوّة المتنوّعة والمتطوّرة ويجتهد في تطويرها إضافة وتنوعاً سيظلّ دائماً مخيفاً لمن لم يمتلكها أو من لم يواكب حركة تطوّرها، والذي لم يَسعَ لذلك سيظّل دائماً خائفاً من الذي يمتلكها حتى يبلغها ويواكب حركة تطويرها وتطوُّرها.

ولسائلٍ أن يسأل:

كيف لإعداد العُدَّة أن يُرهب المخيفين ويقضي على الخوف؟

نقول:

بما أنَّ المُخِيف هو من سبق بإعداد العُدّة المخيفة استخداماً؛ فهو بدون شكّ هو من غرس الخوف في نفوس من لم يعدِّوها ودفعوا الثمن غالياً بأسباب عدم تملُّكها، لذا فإنَّ الخائف بأسباب ضعفه عندما يمتلك مُعدّات القوّة ويستعدَّ بها ويتأهب، يتحرّر من الخوف، ويصبح مرهباً لمن كان مخيفاً له، وإذا ما تحقّق ذلك، تصبح نفسه مطمأنّة آمنة حيث لا مكان للخوف فيها بعد إعداد العُدّة وامتلاك القوّة الماديّة والمعنويّة، والتمرّن على إدارتها متى ما وجب ذلك دون مظالم.

إذن بإعداد العدّة المتكافئة مع الذي كان متفرِّداً بامتلاكها تتعادل كفتا الميزان، ويُلغى من القاموس الحربي الخوف الذي فيه غالب ومغلوب على أمره، ليحلَّ محلّه الإرهاب الذي لا عدوان فيه ولا مظالم، بل هو مجرّد إعداد عدّة في مقابل عُدّة كانت لوحدها السائدة المسيطرة في الميدان.

وعليه: يصبح المُخيف لا يُخيف، ويصبح الخائفُ غير خائفٍ، ممّا يجعل كلّ منهما قادراً على تقديم التنازلات تجاه الآخر بلا خوف، ذلك بما للعدّة من قوّة مُرهبة تؤدّي إلى تحقيق الآتي:

1 . نيل الاعتراف:

بعد أن يمتلك الضعيف مقاليد وأدوات القوّة يصبح نائلاً للاعتراف من قِبل الذي لم يكن من قَبل معترفاً به وبحقوقه وحريّته وحدود وطنه ودين أمّته.

2 . نيل التقدير:

بعد أن كان الضعيف غير مقدَّرٍ بأسباب ضعفه، أصبح مقدَّراً بما يمتلكه من قوّة مُرهبة للذي لم يكن مقدِّراً له، وأصبح يُحسب للعدّة التي تمَّ إعدادها من قِبله ألف حساب، فعلى سبيل المثال: بعدما امتلكت الهند السلاح النووي أصبحت الباكستان خائفة ومرتعبة ممّا تمتلكه الجارة من أسلحة الدمار الشامل، وبعد أن عملت الباكستان ما استطاعت إلى أن استطاعت أن تمتلك هي الأخرى أسلحة نووية زاحت عن نفسها غمّة الخوف وتحرّرت منه، وأصبحت الهند مرتهبة ممّا امتلكته الجارة اللدود من أسلحة الدمار الشامل، وهنا أصبح إعداد العدّة وكأنَّه كلمت (قفّ) عندما تكون نافذة الفعل والتحقّق، قف عند حدِّك وإلّا ستكون الخسارة على الجميع متساوية على كفتي الميزان العدل، ولهذا لن تعتدي الهند على الباكستان بما هو مخيف، ولن تعتدي الباكستان على الهند بما هو مخيف، ويقف كلٌّ منهما عند الحدود مرتهباً ممّا أعدّه الآخر من عُدّة دون مخافة منه، وتصبح اللغة السائدة بينهما: (ما

تمتلكه نمتلكه) و(إن فعلتها سنفعل ما هو أعظم)، ولهذا (قفّ عند حدّك وقدّر الظرف كما أنا واقف عنده ومقدِّر له، وإلّا).

3 . نيل الاعتبار:

من يتبوّأ مكانة رفيعة بما يمتلكه ويعدّه من عُدّة (قوّة) ينال الاعتبار من قِبل الآخرين حتى وإن لم يكونوا من قَبل معتبرين له، ولذا فمن يعتبر نفسه بامتلاك مقاليد القوّة ينل الاعتبار من الآخرين، ومن لم يعتبر بذلك لا يعبأ على نيله.

4 . نيل الاحترام:

إنَّ الذي كان فاقداً لمقاليد وأدوات القوَّة وإعداد العُدّة وكان عصامي النضال حتى أصبح قوياً، بدون شكّ سينال الاحترام؛ فما وصلت إليه كوريا الشمالية من إعداد عُدّة وفقاً لإمكاناتها المتواضعة، يستدعي الاحترام ويمكِّن من نيل الاعتراف والتقدير حتى وإن كان الاختلاف معها سائداً في الزمن الآن، وهكذا إيران الخائفة من الذين يمتلكون الأسلحة النوويّة هي الأخرى إن امتلكت القوَّة بما تعدّ له من عُدّة، ستنال الاعتراف والاحترام، وتكسر حاجز الخوف عنها وستُرهب الآخرين الذين يتوعدونها ويهدّدون، وإن لم تمتلك؛ فلن تنال ما ناله من أمتلك القوَّة وأعدّ لها عدّتها، وستكون إيران معرّضة لِما هو أخطر كما تعرّضت العراق لِما تعرّضت له من رعب ودمار وتخريب وتطرّف واحتلال وتشريد وتقتيل بغير حقّ، ولذلك لا حلّ لمشكلة الخوف إلّا بإعداد العدّة التي ترهب المُخِيف وتقضي على الخوف.

وعليه: إعداد العدّة عمل إصلاحي كما تُصلح الأرض بعد إعدادها للزراعة، وكما تُهيأ الأشياء إلى أشياء أعظم حتى تصبح صالحة لِما

يجب أن تكون عليه؛ ولذا في الإعداد تجهيز مادّي بما يجب وفقاً للإمكانات المتاحة والتي يجب أن تتاح وفقاً لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

أمّا قوله تعالى: (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) أي بعد أن تعدّوا العُدّة القتاليّة وتستعدّوا بها وتتأهّبوا ستلفتون انتباه أعدائكم لأنفسهم بأنَّ الأمر تجاهكم لم يعدّ كما كان يعتقدون، بل إنَّه تغيّر إلى ما هو أخطر وأفضل، (تغيّر من حالة الخوف منهم إلى حالة استمداد الثقة بالأنفس)؛ فقوله: (تُرْهِبُونَ) تفاجئون أعدائكم بالقوّة التي أعديتمونها للمواجهة إذا ما كُتبت عليكم، وهذه العُدّة أعدائكم لم يكونوا قد أعدّوا لها حِساب من قبل، ولذا فالإرهاب بالنسبة لمن كان خائفاً أصبح مبعث ثقة وطمأنة في النفس، وبالنسبة لمن كان مخيفاً لغيره، أصبح الإرهاب ناقوس خطرٍ يدقُّ في آذانه لينتبه إلى أنَّ الأمر لم يعدّ كما كان يتوقّع.

وقد يتساءل سائلاً:

. من هو عدو الله؟ من خلال ما جاء في قوله تعالى: (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ).

نقول:

بالمطلق أعداء الله هم المفسدون في الأرض، وسافكو الدماء فيها بغير حقّ.

وفي مقابل ذلك فإنّ أحباء الله هم المصلحون فيها وغير سافكي الدماء بغير حق.

وعليه: يترتّب على إعداد العدّة أمرين:

الأمر الأول: تخلّص الخائف من الخوف.

الأمر الثاني: إحساس المخيف بالإرهاب.

ويترتّب على هذين الأمرين أمورٍ منها:

. الاعتراف بالآخر.

. المصالحة مع الآخر.

. التفاوض مع الآخر.

. أخذ الحيطة والحذر من الآخر.

. التفاهم مع الآخر.

. التسامح مع الآخر.

ولذا فإنَّ إعداد العدّة والاستعداد بها والتأهُّب للإقدام على خوض المعركة بإرادة يجعل الذين كانوا يشكِّلون خطراً على العباد يعيدون حِساباتهم تجاه الآخرين، وبدل أن كانوا يقدمون على أفعال الحرب والاقتتال أصبحوا يقدمون على كلِّ ما من شأنه أن يلغي تلك المبررات التي كانوا بها يبرِّرون اعتداءاتهم وظلمهم.

وعليه فالفرق كبير بين الخائف وبين المرتهب من حيث:

. الخائف يستطيع أن يتدبّر أمره وقد يقبل بالمخاطرة ودخول القتال خاصة إذا عرف أنَّ القبول بالمخاطرة والقتال هو مكمن الحلّ، أي: أنَّ الخائف يستطيع أن يُقرّر وإن كانت الظروف حرجة.

. المُرتَهِب هو الذي لا يستطيع أن يقْدِم على أفعال القتال بوجه السرعة حتى وإن رأى ذلك أمراً ممكناً، ولذا فالخائف يستطيع أن يُقدِم على تنفيذ الفعل بأسباب الخوف ذاته، أمّا المرتهب فهو الذي لا يستطيع أن يُجمّع قواه العقلية بنفس واثقة في مواجهة ما يُرهبه، ولهذا هو في حاجة للتدبّر قبل أن يتّخذ قراره.

إذن الإرهاب إن تحقّق في الأنفس أدّى إلى التفاوض والحوار والنقاش من أجل التفاهم وتفّهم الظروف وما يترتّب عليها من مخاطر، والتحكّم في كلِّ ما من شأنه أن يُرهب الجميع (الأنا والآخر)، ولذا فالإرهاب يستدعي من الأنا والآخر أن يُفكِّرا جيداً قبل أن يتكلّمان، وأن يتذكّرا حتى لا يغفل أحدهما عن أهميّة التاريخ في اتخاذ القرار وصناعة المستقبل.

فمن المفارقات العقلية التي لا يقرّها منطق أن يُجمع الخوف والإرهاب في مفهوم واحد على أنّهما يؤدّيان دلالة واحدة أو أنَّ أحدهما سببٌ للآخر، والآخر نتيجة له أو العكس على غرار ما دَرج استخدامه من قِبل كثير من المفكرين والباحثين والمثقفين ووسائل الإعلام.

ولذا فنحن لا نتسرّع إصدار الأحكام على ما هو مطروح في السوق الثقافي الذي يُجنى من ورائه مكاسب في استخدام المتناقضات والمختلفات والمفترقات من الألفاظ والمعاني على أنّها متوافقات في المفاهيم والدلالات والمعاني، ولذا نطرح بعض التساؤلات فنقول:

. هل الخوف إرهاباً؟

. هل الإرهاب خوفاً؟

. هل الإرهاب اقترن بالخوف في النصوص الفصيحة؟

. هل أنّ الإرهاب أضيف إلى الخوف أو وصف به؟

. أليس للإرهاب مقترنات خاصة تمنح الدلالة مفهومها من القصد في المعنى؟

. أليس للخوف مقترناته هو الآخر التي تفارق الإرهاب؟

. ألا يكون من الخوف أن يُعدّ الخائف العُدَّة التي تُرهب الآخرين حتى يتحرّر من الخوف إلى الأبد!

في الحكم على ما تقدَّم لا نتسرّع القول، ولا نقول حتى نأتي بالدّليل، ودليلنا في استنباط الحكم من نصوص لا يختلف على فصاحتها اثنان من أهل لغتنا، ألا وهو القرآن الكريم الذي أورد نصوصاً كثيرة في مادة (ر هـ ب) ومشتقاتها، وفي مادة (خ و ف) ومشتقاتها، لنقف على كلّ مادة لغوية من (الرهب والخوف) وما اقترن بها وما وصفت به وما أضيفت إليه أو ما أضيف إليها في النظم مع سياق الكلام.

ولذا فالإرهاب إرهاب ليس إلاّ، هو مصطلح نسيجُ وحدهِ، وفريدُ لفظهِ، واضح المفهوم، بيّن الدلالة، إن كان يداخله معانٍ أخرى؛ فإنّ الخوف أبعد ما يكون عنها، لهدوء الأول واضطراب الثاني، حيث أنّ الإرهاب استشعار السكون والطمأنينة، والخوف انتياب القلق والذعر وما يترتّب عليه من الفزع والهلع وما يؤدّي إلى حُزنٍ، وما إلى هذه الصفات التي تنتاب الخائف بعد وقوع الخوف في نفسه وعلى مستقبله، حيث يتّضح ذلك من القرائن التي ترافق الخوف أو تكون نتيجة له ويكون الخوف مسبباً لها.

وعليه لقد وردت مادة (خ و ف) في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة جاء معناه في معجم مقاييس اللغة: "خوف الخاء والواو والفاء أصلٌ واحد يدلُّ على الذُّعْرِ والفزَع. يقال خِفْتُ الشّيءَ خوفاً وخِيفةً. والياء مبدَلةٌ من واو لمكان الكسرة. ويقال خاوَفَني فلانٌ فخُفْتُه، أي كنتُ أشدَّ

خوفاً منه. فأمّا قولهم تخوَّفْتُ الشَّيءَ، أي تنقّصتُه، فهو الصحيح الفصيح"[68].

وكذلك بقية المعاجم فإنَّ الخوف لا يدلّ فيها بوجه من الوجوه على الإرهاب لا في مفهومه ولا في معناه، وإنّما جميع المعاجم تذهب في مفهومه إلى الفزع والذعر والهلع وما يترتّب عليها من نتائج يكون الخوف مسبباً للأسف أو الحزن أو الندم أو الألم.

ومن المفارقات العجيبة بين الإرهاب والخوف، أنّ الإرهاب يكون صفة القوي المطمئن، بينما الخوف قد يصدر من الإنسان في أضعف حالاته وهو لا يملك حيال الخائف شيئاً في وقته الحاضر ممّا يجعله يفكّر ولو قليلاً في مستقبل أكثر أمناً، مصداقاً لقوله تعالى: {فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[69].

فالموصي قد يحدث الخوف للآخرين وهو على فراش الموت في أضعف حالاته، أو فيما بعد موته، وهذا لا يكون من الإرهاب البتّة، ومن الملاحظ هنا أنّ الخوف كان من الابتعاد عن الحقّ ومفارقته له، بينما وجدنا الإرهاب هو اتباع الحقّ فيما أمر الله تعالى من الأخذ بالإرهاب به؛ فكيف يلتقان؟

ربّما يقول قائل: إنَّ الخوف ارتبط بالله تعالى في مواضع كثيرة فيما عوّلنا عليه من الاستشهاد بالنصوص في القرآن الكريم؛ فهذه حجّة أوهن من أنّ يدحضها دليل، ذلك أنّ الله تعالى كما يكون من صفات أسمائه ومن صفات أفعاله جلّ جلاله إيجاد الموجودات وإعدام المعدمات من

---

[68] – معجم مقاييس اللغة، ج2، ص230

[69] – البقرة 182.

الأشياء كالرزق والرحمة والقوّة والقدرة والعلم والحكمة؛ فالخوف شيء من هذه الأشياء التي صدرت عن صفات الأفعال، وهو المخيف المطلق، كونه سبحانه وتعالى خالق الخوف والخائف والمخيف، ولذلك أجرى الخوف على جميع مخلوقاته مصداقاً لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[70].

فمن هذه الآية نتبيّن أنّ الخوف كتبه الله على خلقه، بينما لا نجد هذا في الإرهاب وإن تساويا في الطلب (الأمر):

قال تعالى: {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}[71].

وقال تعالى: {وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[72].

فانفرد الخوف دون الإرهاب بأنْ أجراه الله تعالى على خلقه، ولم يجرِ عليهم الإرهاب.

وكما ابتعد الخوف عن الإرهاب في مفهومه ودلالته، كذلك ابتعدت مترتّباته ونتائجه، لأنّ ما يكون نتيجة للخوف لا يمكن أنّ يكون نتيجة للإرهاب، وأوّل مفارقة بينهما وأجلاها ظهوراً وأوضحها مفهوماً أنّ الإرهاب نتائجه إيجابية كما أوضحنا من الآيات والأدلة، بينما الخوف نتائجه بين سلبٍ وإيجاب، ولا يذهب ذاهب إلى إقحام الخشية والخشوع والتحسّب والتوجّس والحذر في مفهوم الخوف، بحيث أنّ هذه المفردات

---

[70] – النحل 50،49.

[71] – النحل 51.

[72] – آل عمران 175.

تأتي بنتائج إيجابية، فيكون بذلك قد خلط مفاهيم هذه المفردات بالخوف كمن جعل الخوف إرهاباً.

الخوف يسبب عِلّة لا تسببها تلك المفردات، ومنها أنّه يسبب الحزن، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}[73].

لقد علم الله سبحانه وتعالى أنّ الخوف سينتاب أمّ موسى صلّى الله عليه وسلّم ممّا كان يجري على المواليد الذكور من القتل الذي يمارسه فرعون خوفاً، ولذلك أوحى إليها إذا وقع الخوف في قلبها أن تقذفه في اليمّ.

والسؤال الآن هل هناك أعظم من حزن أمٍّ ألقت رضيعها في اليمِّ خوفاً عليه؟

. الخوف دفعها بما أوحى الله إليها أن تقذفه في اليمّ.

. كان الخوف مسبباً لأن تتخلّص من ابنها بهذه الطريقة.

. هذا الأسلوب في التخلص من الوليد، ولّد عندها حزن أمٍّ ثكلى.

. هذا الحزن كان الخوف مسبباً له.

ومن الملاحظة الدقيقة في سياق الآية، أنّ الخوف خوفان والحزن واحد، فالخوف الأول خوف الذبح من قِبَل فرعون، وبه يقوم حزن الأمّ على ولدها، والخوف الثاني الذي استبدلته بالخوف الأول عندما ألقته في اليمّ، فلم تعدّ تفكّر بالذبح، وإنَّما تفكّر في الغرق، فتلاشى خوف الذبح والقتل وحلّ محلّه خوف الغرق والحزن نفسه قائم، وهذا يعني أنَّ تبدّل نوع الخوف ومصدره لم يؤثّر في النتيجة وهي الحزن الثابت، ودليل أنّ الحزن أخذ منها كلّ مأخذٍ في الخوف الأول الذي مصدره القتل، وفي

---

[73] – القصص 7.

الخوف الثاني الذي مصدره الغرق، هو قوله تعالى: (ولا تخافي ولا تحزني).

ولقائل أن يقول كيف عرفتم أنّ أمّ موسى قد خافت وحزنت وأنّ الله تعالى نفى عنها ذلك؟

والجواب على هذا قائم في النفي ذاته، ذلك أن (لا) النافية تنفي وجود الحاصل وتزيله، كما قال تعالى: {إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ}[74].

فنفى الفزع الواقع نتيجة الخوف (بلا) النافية، ولو لم يجرِ الخوف والحزن على أمّ موسى صلى الله عليه وسلّم لنفاه بعدم وقوعه (بلم) التي تنفي حدوث الفعل وتحوّل معناه من المضارع إلى الماضي فكان قال (لم تخفْ ولم تحزنْ) فيكون بذلك نفى جنس وقوع الفعل مطلقاً، ولو أراد المستقبل، لنفى حدوث الفعل (بلن) فكان قال (لن تخافي ولن تحزني) فيكون قد أثبت لها الخوف والحزن في الماضي، ونفاه عنها في المستقبل، ولكن عندما كان الخوف واقعاً وما ترتّب عليه من الحزن حاصلاً، أثبت أنّ الخوف والحزن قائمان في نفسها لسببين:

الأول: أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما في نفسها، وهو أدعى لثقتها بما أوحى إليها.

الثاني: بثّ في نفسها الطمأنينة مكان الخوف والحزن.

ومثل ذلك قوله تعالى: {وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}[75].

---

[74] – ص 22.

ولو استعرضنا جميع الآيات التي وردت فيها مادة (خ و ف) لن نقف على قرينة واحدة من القرائن الموضحة للمفاهيم مشابهة للقرائن التي ذكرت مع الإرهاب أو مماثلة لها أو قريبة منها، إن لم تكن على النقيض تماماً، فإذن أين الإرهاب من الخوف؟

ثمّ إنّ الأمر الفارق والحدّ الفيصل بين الإرهاب والخوف الذي يجعل الإرهاب والخوف لا يلتقيان في مفهومهما على دلالة المعاني المقصودة من كلّ واحد منهما على مستوى الذات الإنسانية تحديداً، أنّ الإرهاب ينتج خوفاً ليس في نفسه وإنما في نفس الآخر، بينما الخوف لا ينتج إرهاباً لا في نفسه ولا في غيره، وإنّما يترتّب عليه الحزن والفزع والجزع والهلع.

ومن هنا لا يمكن للمصطلح أن يوافق من ذهب إلى أنّ كلّ تخويف للناس أو إيذاء لهم بغير حقّ أو صدّ عن سبيل الله، أو اعتداء على الأموال وإشاعة الذعر بين الناس، أو القتل والتخريب والإفساد هو نوع من الإرهاب، ثم بعد ذلك لا يجدون لاحتلال الدول وقهر الشعوب وغصب الأرض واستعباد أهلها ونهب ثرواتها، من مصطلح غير التحرير ونشر الحرية والديمقراطية.

وعليه: من هو الخائف؟

نقول:

الخائف هو من يعرف أنَّ كفّة النزاع والصدام مع الغير الظالم غير متكافئة ولا متماثلة ولا متطابقة، وفي مقابل ذلك قد يقبل بتقديم التنازلات إلى حدٍّ معينٍ، ولكنّه لا يستطيع أن يقدّمها إلى النهايّة، وذلك لأنَّه

---

[75] – العنكبوت 33.

خائف على أسرته إن كانت له أسرة، أو خائف على شرفه وعِرضه، أو خائف أن يُقتل بدون ثمن، ولهذا فهو لم يكن خائفاً من أجل الخوف، بل هو خائف لأنّه لم يمتلك القوّة بعد، ولهذا تقديم التنازلات هي علامة لكسب الوقت الذي به يتمّ امتلاك القوّة التي بها يُدمغ الباطل ويُزهق، وإلى ذلك الحين سيظل الخوف سائداً في السلوك الظاهر، والكره سائداً في العقل الباطن، ولا حلّ لمشكلة الخوف إلا إعداد العُدّة المرهبة التي تعيد الاتزان النفسي والتوازن المادي (عُدّة في مواجهة عُدّة).

إذن فمن هو المخيف؟

نقول:

المخيف هو الذي يعتقد أنّ الخائف قادر على تقديم التنازلات إليه بلا نهاية، ولهذا قد يستمر في الضغوط عليه من أجل نيل المزيد من التنازلات كما يعتقد، إلّا أنَّ الاستمرار في هذا الأمر الظالم هو الذي يقوّي العلاقة بين الخوف والخائف حتى يصبحا صديقا يألف أحدهما الآخر بعضهما بعضاً، أي: يصبح (الخوف مصادقاً للخائف) وعندما يصبح الخوف صديقاً للخائف بعدها لن يُعَد الخوف مخيفاً لمن كان خائفاً، ولهذا يتمّ التحفّز إلى رفع الصوت الخافت إلى صوتٍ جهورٍ خالٍ من التلعثم مع فائق الوعي والإدراك بقبول ما يترتّب عليه من أفعال، (سالبة أو موجبة) خاصة إذا عرف الخائف أنَّ قبول الموت بالقوّة هو المُنقذ له من الخوف والموت معاً.

إذن المُخيف هو من لا يتّق الحقّ في الآخرين وما يتعلّق بهم من أمر، أي هو من يعرف الحقّ ولكنَّه لا يعترف به؛ فيتطاول ويعتدي على حقوق الآخرين بالقوّة وهم ضعفاء.

ولذا عندما يبثّ المخيف مخاوفه باتجاه الآخر، ويتملّك الخوف منه؛ ففي دائرة الممكن المتوقّع أن يكون هناك ردّة فعل على ذلك، وهذا الأمر يُفضي إلى ظهور العنف بشتّى أشكاله، وبمظاهر متباينة، وهذه المظاهر تدور كلّها في فلك ردّة الفعل؛ فكلّ من يُعدُّ العدَّة بقصد وإصرار وترصّد على إخافة الآخرين، لابدَّ أن يولِّد خائفين، وإذا ولّد الخائفين؛ فهم بالمنطق يقدمون على أفعال المواجهة من الخوف، أو مواجهة ما يخيفهم فعلاً وعملاً وسلوكاً؛ فالخوف لابدَّ أن يولِّد ردّة فعل لأنَّه من ثوابت الفطرة الإنسانية التي تدفع الإنسان إلى الإتيان بردّة فعل لها، من أجل درءِ مسبِّب الخوف ثمّ الانتقال من حالة الخوف إلى حالة الطمأنينة.

ولذلك من المهمّ أن يفهم من يقوم بدور المخيف، أنّه بهذا النمط من السلوك أفرز جبهة من الخائفين الذين يتربّصون بدرءِ الإخافة، وهذا دليل أنّه أوجد على أرضية الواقع عدداً من الأعداء الذين يتربّصون به من أجل منع مظاهر التخويف من النيل منهم، ولكن لو فكَّر المخيف في غير ذلك، ألا تكون الطمأنينة هي البديل الأنسب والأفضل الذي يبعد عن الأذهان التفكير العدواني الظالم؟

وإذا ما تحقّق ذلك، ألا تكون السيادة للعلاقات المتوازنة المبنيّة على الثقة المتبادلة، هي المُحقِّق للأمن والاحترام بين الأنا والآخر، ممّا يجعل الخوف يختفي ويُنزع انتزاعاً من الصدور التي ضاقت به أحقاباً من الزمن بمحقِّقات الأمن والسكينة؟

إنَّ الإرهاب الناتج من إعداد العدّة بدون شكّ يجعل من كان مخيفاً واقفاً على الحدود وهو يحسب في نفسه ألف حِساب لِما يراه من عُدّة مرابطة

على الطرف المواجه له، أمّا الذي أعدَّ العدَّة ووقف عند هذا الحدّ إنَّما يقصد من إعدادها أن يمنع العدوان، ولكنَّ سيطرة الخوف على الجماعات أو المجتمعات من خلال سياسة التخويف من الأقوياء للضعفاء سيترتّب عليه ولاشكّ البحث عن حلّ، ربما يكون الحلّ منطقياً عادلاً، وربما يكون الحلّ اعتداءً أو فداءً أو تفخيخاً أو أيِّ سلوك يعدّه البعض خارج دائرة المنطق.

إذن المخيف هو من يَعدّ العُدّة بهدف الاعتداء على حقوق الآخرين وأوطانهم وثرواتهم ظلماً، ولذا فكلّ من يُعتدىَ عليه ظلماً سيظلّ خائفاً من الذي يشكّل خطراً عليه، ولهذا لم يكن الخوف من العُدَّة التي تُرهب، بل الخوف من استخدامات العُدة بغير حقّ.

إنَّ المخيف الذي يمتلك القوَّة في دائرة الممكن والنسبية، ليُخيف بها الضعفاء (أصحاب الحقوق) إنْ ظنَّ أنَّ الخائف سينسى ويصمت على ما يلمّ به ومن قبله ألمَّ بآبائه وأجداده من مآسٍ وآلام؛ فهو مخطئ وسيكتشف يوماً أنَّ الجروح الدامية لا يكفّ نزيفها إلّا بالإصلاح والتعويض المُرضي للذين ظُلموا.

وعليه تُبطل مقولة: (الخوف دائماً يجعل من الخائف مستسلماً للمخيف) ومن يظن غير ذلك سيجد الزمان كفيلاً بإظهار الحقيقة؛ فالخوف في دائرة الممكن غير المتوقّع هو الذي يجعل المخيف يقبل الإقدام على فعل أيِّ شيء حتى ولو كان انتحاراً.

وهنا فالعلاقة بين الخائف والمخيف علاقة لا ثقة تسندها، بل الذي يسندها بوضوح هو العمل على كسب الوقت؛ فالزمن بالنسبة للخائف كفيل بترّويض الطغاة، وكفيل برمي الخوف في تاريخ النسيان، وكفيل

بامتلاك القوّة لمن يسعى لامتلاكها، وكفيل بتغيير الأحوال من الغفلة إلى الفطنة والصحوة، وكفيل باسترجاع الحقوق، وكفيل بإلحاق الانتقام من الذين يظلمون، {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[76]، وقال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[77].

ولأنَّ الخائف يعلم جيداً أنَّ الخوف مؤقّت؛ فهو لم يكن متسرّعاً ولا مستعجلاً، بل لثقته بأنَّ اليد التي امتدّت عليه ولا يستطع قطعها ليس له من بدٍّ إلا أن يُقبّلها إلى أن يستطيع، وعندما يستطيع عُدّة وقدرة واستعداداً سيكون الإعلان عن ذلك بالنسبة له ضرورة، وستكون المعادلة الجديدة مؤسسة على ردِّ الاعتبار ونيل الاعتراف من الآخر الذي كان غافلاً عن حقيقة من أخافه ظلماً، وإن لم تكن الاستجابة المرضيّة ستكون المواجهة معه حتميّة.

وعندما يكتشف الذي كان مخيفاً بأنَّ الخائف قد امتلك القوّة المرهبة، سيرتهب، وحينها سيأتي مسرعاً إلى تقديم التنازلات للآخر حتى يتمَّ تعادل كفتي الميزان دون أن تُرجَّح كفّة على كفّة.

وعليه فإنَّ الإخافة لا تولّد خائفين، بل تولّد المتمرّدين والغاضبين والثائرين، ولهذا عمر الظالمين قصير؛ فلا يخيف، بل الذي يخيف أن لا يَعدَّ الخائف العُدّة المرهبة للمخيف.

إذن مقولة الخائف والمخيف هي استثناء وليست قاعدة؛ فالقاعدة هي: (تبادل الثقة طمأنة)، ولذا تبقى القاعدة ويتغيّر الاستثناء الذي يفترض

---

[76] إبراهيم 47.

[77] إبراهيم 42.

أنَّ الإخافة لا تولّد إلّا خائفين مستسلمين، ولم يفترض أنَّها ستولِّد متمرِّدين متأهّبين للردِّ والدفاع عن النفس، ومفكِّرين بشتّى الوسائل لإيقاع أكبر الضرر بالمخيف إن لم يقبل بالوقوف عند حدّه.

والمثال الحي لإظهار العلاقة بين الخائف والمخيف هو ما يجري في هذه الأيام بين الغرب وبين إيران التي تسعى لإعداد العُدّة لمواجهة التخويف المتزايد تجاهها باستخدام القوّة من قِبل الغرب تلميحاً وتصريحاً، وفي مقابل ذلك إيران تعلم أنَّها لو أعدَّت العُدّة القتاليّة واستعدَّت وتأهبت ورابطت؛ فإنَّ الخوف بالنسبة لها سينتهي، ومع أنّ العدوان على إيران في دائرة الممكن المتوقّع لن يحدث، إلّا أنَّه في دائرة غير المتوقّع ممكن الحدوث، ولهذا فالمواجهة بين الغرب وإيران ممكنة من حيث سباق الإخافة والتخويف المحتدم بين الطرفين اللذين أحدهما يعمل على رفع سقف الإخافة، والآخر يسعى لامتلاك القوّة التي تردع المخيف وتوقفهُ عند حدّه.

ولذا فعلى الذين يعتقدون أنَّ التخويف هو الحلّ، عليهم أن يعرفوا لو كان التخويف حلّاً لما كانت أحداث 11 سبتمبر ضربة قاصمة في قلب الولايات المتحدة الأمريكية، وعليهم أن يعرفوا أنّ الخائف سيظل دائماً متربِّصاً بالمخيف يُقبِّل يديه إلى أن يتمكَّن من قطعهما. لذلك فإنَّ أحداث سبتمبر ومهما كانت ألوان طيفها هي ردّ فعل خائف من مخيف. ولهذا لم تكن نظرية الإخافة ولن تكون حلّاً، بل إنّها نظريّة لاشتداد التأزُّمات، وإن لم يُنزع التخويف من عقل المخيف؛ فلن يُنزع من ذهن الخائف تقبيل اليدين من أجل أن تقطعا.

إنَّ نظرة المخوِّف ترى أنَّه بحاجة إلى تجويد ملامح التخويف وتقويتها من خلال استعراض أكبر كمٍّ من صور الاعتداء والبطش والظلم، ولهذا فالولايات المتحدة الأمريكية لم تقم بضرب عناصر من القاعدة ردّاً على أحداث سبتمبر فحسب، بل قامت بما هو أكبر من ذلك تهديداً ووعيداً، كما جاء على لسان رئيسها آنذاك جورج بوش (من لم يكن معنا فهو ضدّنا)؛ فكان احتلال العراق واحتلال أفغانستان، مع وافر أساليب التخويف والإيماء بالعصا الغليظة.

وعليه: فإنَّ نظريّة التخويف تجاه الضعفاء من ميزاتها، أنَّها كلّما أزداد التخويف شِدّةً حفّز الخائفين على قبول التحدّي وحفّزهم على التمرُّد والثورة حتى امتلاك القوّة التي بها يُرهب المخيف ويقف عند حدّه، ومن ميزاتها أيضاً، أنّ النتيجة التي سيتمّ التوصل إليها هي حذف كلمتي (خائفٍ ومخيفٍ) من القاموس الفكري، ومن بعدها لن يكون على أرض الواقع:

- مستسلم مترقّب لتلقّي الضربات.
- مُقدِم على تقديم المزيد من أفعال المظالم.
- متنازل عن حقوقه من أجل اتقاء المخوّف.
- متأهب للخوض في تحقيق أفعال المظالم.

وبتفحّص هذه الأنماط الأربعة لاشكَّ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، أن يكون التفكُّر والتذكّر هما اللذان يقودان العقل الإنساني إلى الأخذ بما يُخلّص من الخوف والتخويف، وإن لم يصل عقل الأنا لتقدير ذلك واعتباره، سيجد نفسه بامتلاك الآخر للقوّة مرتهباً، وهو مضطر

لتقديم التنازلات التي بها يتمّ الجلوس على طاولة التفاوض والتفاهم والتفّهم.

إذن عندما يعرف المخيف أنَّ الخائف لا يخاف الموت، فبما سيخوّفه؟

يقول جيمس ماتيل الذي كان رئيساً لطاقم الموظفين بمكتب الخارجية الأمريكية للمحاسبة والشفافية ببغداد (الخوفُ هو الخيط المشترك الذي يَنْسجُ الحركاتَ السياسيةَ العَنيفةَ سوية، هو لَيسَ الحافز الوحيد وراء العنفَ السياسيَ، ولا بالضرورة الأكثر وضوحاً، لَكنَّه عملياً دائماً هناك. حينما نَسْألُ لماذا يَكْره الناسَ، أَو لِماذا هم راغبون في القَتْل أَو المَوت من أجل قضية ما، الجواب دائماً .... الخوف).

وهنا يمكن القول إنَّ الخائف ليس بالضرورة أن يكون خائفاً من الموت؛ فالمؤمنون يعتقدون أنّ الموت حقّ، ويعتقدون أنّ الأحياء لن يموتوا قبل أن تنتهي أيام أعمارهم، ولهذا فهم لا يخافون الموت باعتبار أنّهم لن يموتوا إلّا إذا كانت أيامهم التي أعدّها الله لهم قد انتهت، أي أنَّهم يؤمنون أنّ الحرب والاقتتال لا ينهي الأيام والأعمار إذا لم تكن عند الله منتهية، {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[78]، ولهذا يخوضون الحروب إذا ما كُتبت عليهم كرهاً بوافر الاستبسال.

وكذلك كثير من العقلانيين يعدُّون الموت واقعاً لا مفرَّ منه، أمّا الخوف فأمره لم يكن مثل أمر الموت؛ فالخوف يكون من أمور أخرى، منها الإلغاء والتحقير والتهميش أو التسفيه أو التغييب أو احتلال البلدان والأوطان والاعتداء على أعراض الذين لم يمتلكوا القوّة، الأمر الذي

[78] النحل 61.

يفضي إلى التفكير بالتخلّص من مصدر التهديد بكلِّ الوسائل الممكنة في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع.

وعليه الكلّ يسعى للتخلّص من الخوف، أي أنّ كلّ الأطراف خائفة من الخوف، ممّا يجعلهم يسعون إلى التخلّص منه وبكلّ الوسائل والأساليب؛ فالخائف خائف لأنَّه يستشعر الخوف، ويريد أن يتخلّص منه، ولذلك يرى أنَّ العدوان على المُخيف ربّما يُخرجه من حالة الخوف إلى حالة الاطمئنان؛ فالخوف شعور يعبّر عن عميق المعاناة المسيطرة على الإنسان؛ فيشلُّ رغباته في التفكير ممّا يجعل الإنسان في دائرة التوتّر والقلق المتصلين، من أجل البحث عن حلٍّ يفضي للوصول إلى حالة الاطمئنان المنشودة، الأمر الذي يوجّه السلوك إلى دائرة الممكن للإقدام على الفعل المتوقع والفعل غير المتوقع.

إنَّ المخيف بدون شكّ يعرف أنَّ الخوف شعور لدى كلِّ الكائنات؛ فما بالك بالبشر، إنّه شعور قوي يُحفّز على اتخاذ قرار المهاجمة للدفاع عن النفس، دفاعاً شديداً واضح المنهج ومعلوم النتائج، أو دفاعاً هائجاً هستيرياً ينتج ضرراً ربما يتجاوز حدود المهاجم إلى غيره وما هو أبعد منه.

ولأنّ الخوف مشكلة أنتجت قاعدة (الخائف والمخيف) وجعلت بعضاً من الخائفين يقبل الموت ويقدم على تنفيذ أفعاله دون تردّد، ولأنَّ لكلِّ مشكلة حلّ؛ إذن لماذا لم يلتقِ الخائف والمخيف لنزع الفتيل؟

نقول:

الفتيل لا يمكن أن ينزع إلّا بالتقاء أيدي المخيفين بأيد الخائفين إرادة، ولكن هذا الأمر لن يتحقّق إلا إذا امتلك الخائف القوّة الفاعلة عُدّة

وإعداداً وتدريباً ومهارة وتأهّباً، حينها يعرف المخيف أنّ زمن تخويفه قد ولّى إلى النهاية.

قال تعالى: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ}[79].

يُفهم من هذه الآية الكريمة: أنَّ كفّة الصدام قد تعادلت؛ فلم يعدّ وجود لخائفٍ ومخيف، بل الوجود لطرفين هم على القوّة التي بها قد تحقّق فعل الإرهاب؛ فالمؤمنون من جهة هم الذين امتلأت صدورهم رهبة من الله تعالى، والذين لا يفقهون هم الذين امتلأت صدورهم رهبة من الذين آمنوا.

ومع أنّ الله هو أشدّ رهبة، إلّا أنَّ الذين لا يفقهون عندما رأوا قوّة الذين أمنوا ارتهبوا؛ فاعتقدوا أنَّها أشدّ رهبة من رهبة الله، ولكن الذين آمنوا يؤمنون بأنّ رهبة الأعظم جل جلاله هي الأعظم، ولو أدرك الذين لا يفقهون أنّ الله هو الشديد لآمنوا أنّ الله أشدّ رهبة.

ولهذا فإنَّ إعداد العدّة هو الذي يُرهب من لا يعترف ولا يقدّر الآخرين ويوقفه عنّد حدّه وإنْ لم يقف عنّده، سيُلقَّن درساً يعيده إلى الذاكرة التي تُمكّنه من الاعتراف بالآخر وتقديره.

---

[79] الحشر 13.

الخوف فكرةُ آفاق المستقبل

الفكرة نُضج تدبّري تحمل في أحشائها حلّاً، والخوف دائماً يبحث عن حلٍّ؛ فالخوف يثير العقل تفكّراً وتذكراّ وتدبّراً حتى يقتنص الفكرة التي فيها يكمن الحلّ، ولذا لن يكون الخوف أمناً إلّا في الفكرة المقتنصة حلّاً.

الفكرة تحملها الكلمة بين مرسلٍ ومستقبلٍ، وهي تحمل قضيّة تقدِّم حلّاً يُخرج من التأزّمات أو يُدخل فيها؛ فكثير من الأسوياء والعلماء والمفكّرين العظام يَجدّون في إنتاج الفكرة التي تحمل حلّاً يُخرج من التأزمات، والبعض الآخر يكيد أو يمكر أو يحسد ظلماً؛ فيُسخِّرون فكرهم وما يمتلكون أحياناً من أجل إشعال نار فتنة يعتبرونها حلّاً. فما جرى في الصومال من تدخل أجنبي كان مؤسّساً على فكرة تحمل حلّاً لأزمة من وجهة نظر المتدخّلين الأجانب، ثمّ بعد أنْ لا قوا المقاومة الشديدة من أبناء الصومال، جاءت فكرة الانسحاب ونُفِّذت كونها تَحِلَّ حلّاً مؤسّساً على فكرةٍ كلّما اشتدّت التأزّمات فُرجت؛ فاشتدّت التأزمات

ولكنّها لم تُفرِج بعد بأسباب الفكرة المتجدِّدة التي ترى في اشتداد التأزّمات حلّاً.

وفي دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع الفكرة تتعرّض لمواجهة الفكرة، ممّا يجعل نيران الاقتتال والفتنة كلّما انطفأت اشتعلت من جديد وعلى وجه السرعة؛ فالوطن عندما لا يكون الرأي فيه مؤسّساً على فكرة حلّ التأزّمات لا يمكن أن يأمن مواطنوه. وإن لم يشتدّ الخوف في نفوسهم على مستقبل أبنائهم ووطنهم وحرّيّتهم فلن يبلغوا حلّاً يجمع شتات أبناء الأمّة إرادة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات الوطنيّة سياسةً واقتصاداً واجتماعاً.

وما جرى في العراق كان مجرّد فكرة تحمل حلّاً من وجهة نظر الآخر مع مشاركة بعض من أبناء الوطن، نُفِّذت الفكرة التي ترى أنَّ القضاء على الرئيس السابق صدام حسين وحزب البعث هي الحلُّ، ولكن مع أنّ حكم الإعدام قد نُفّذ في الرئيس صدام حسين بعد احتلال البلد، وحُرم حزب البعث من المشاركة في السلطة، إلّا أنَّ التأزُّمات أزدادت شدّة على المواطنين؛ فالذين لم يكونوا آمنين في عصر صدام لا زالوا غير آمنين، ثمّ أزداد إليهم عدد غيرهم من الذين كانوا آمنين في عهده؛ فأصبح الجميع غير آمنٍ حتى كتابة هذا المؤلف، ومع أنّنا نأمل أن يأمن شعب العراق وترابه، إلّا أنَّنا نرى معطيات التأزُّم تظهر بين الحين والحين، من خلال ما نراه من فِرق انتحاريّة، وتفخيخ فردي، وقطّاع طرق، ومجاهدين ومناضلين، وحزب بعث على أرض الواقع، وسلطة متعدّدة الجنسيات، وحكومات في حكومة، ونفوذ مع تدخلات إيرانية، في مقابل نفوذ وتدخلات أمريكية وجنسيات متعدّدة، وتدخلات أخرى

ملحوظة وغير ملحوظة من سوريّة ومن غيرها، ومستقبل للتدخل التركي، وصراعات طائفية سُنّة وشيعة، عرباً وأكراداً، وديانات متعدّدة من عبدة الله إلى عبدة الشيطان وأخرى كثيرة منها ما يُختشى من ذكره، إلى جانب حدود غير آمنة بين طامع ومطموع فيه (غير متحكم في أمرها) وثروة مبعثرة في مواجهة ديون دوليّة.

بناءً على ذلك؛ فأمر التأزُّمات قد يؤدّي إلى استنساخ الفكرة المنفَّذة في الصومال، انسحاب أمريكي تعقبه صدامات واقتتال بين تلك التركيبة المبعثرة في غير حبّ الوطن. الوطن واحد، أمّا الشعب بما هو عليه ليس بواحد، فأين الخوف على الوطن؟ وأين الحرص على الهويّة المهدّدة بالطمس والتقسيم؟ ولماذا لا يتمّ التفكير الجمعي؟

بكلِّ أسف فالأمر مُعسّر لا ميسّر، ذلك لأنّ المواجهة هي سيدة الميدان بين الفكرة والتأزُّمات؛ فالفكرة كلّ يوم تولّد فكرة في مقابل التأزّم كلّ يوم يولّد تأزمات.

وإذا نظرنا إلى خريطة الفكرة في أقطار الوطن العربي، نلاحظ مكامن وأماكن التأزُّمات على وجوه مواطنيه وعلى تضاريسه وجباله وسهوله ووديانه وشواطئه وأنهاره المغرية للآخر الذي ينظر إلى أهميّة وضرورة انفصال أقاليم جنوب السودان عن أقاليمه الشمالية مع وافر تقديره لِما يجري في إقليم دار فور من نزاعات وصدامات واقتتال بين الأخوة مع رغبة الغرب وشدّة مطالبتهم بتسليم الرئيس البشير للمحاكمة خارج تراب وطنه، وكأن الوطن لم يلد من يميّز بين حقٍّ وباطلٍ ليحكم، ومع ذلك نلتمس للديمقراطية عُذراً.

ولأنّ فكرة تقسيم الوطن مجسّدة في خطة؛ فلا داعٍ لقلق المواطنين ولا داعٍ للخوف؛ فكلّ شيء آتٍ، ولكن لن يأتي قبل وقته؛ فما يجري اليوم في اليمن السعيد لا هدف من ورائه إلّا إبعاد السعادة عن أهله ليكون يمناً بِلا سعادة؛ فيا ليت أهله يفيقون لكي تبقى السعادة مِسك ترابه وعطره الفوّاح، ولكن لن تكون إنْ لم يستوعب فيه الأنا الآخر ويجلسان سوياً بتنوّعاتهم الفكرية والثقافية دون أن يغيَّب أو يقصي أحد أحداً.

ما يجري في اليمن اليوم هو بحقّ تجسيد فُرقة فكرة، وكما نعتقد لن تكون حدودها تراب اليمن، بل متمِّمات الفكرة على أرض الواقع هي دول الخليج والمملكة العربية السعودية بداية لِما تمتلكه من إمكانات وخيرات كثيرة، وما فيها من أماكن مقدّسة ومقامات عِظام، وما فيها من ثروات إن تمّ استغلالها بعقل أصحاب الفكرة لكانت المخلّص من الأزمة المالية العالمية التي لابدّ أن تُحلّ ولو كانت على حِساب حريات وأوطان الآخرين.

ولأنّ الأزمة المالية والاقتصادية والمائية والغذائية آتية على التوالي؛ فلا مفر منها، إذن لابدّ من إيجاد حلّ قبل أن تتفاقم التأزُّمات، ولأنَّ الهدف إيجاد حلّ؛ فالكلّ يشارك، ولكن سيجد بعض هذا الكلّ أنّه الضحيّة، ومع ذلك عليه أن يقبل، لأنّه ضحيّة من أجلّ الآخرين. ولكن أيّ آخرين؟

نقول:

إنَّهم أصحاب الفكرة.

ولساءلٍ من أخوتنا الأعزاء في الخليج أن يتساءل:

ما الحلّ البديل؟

نقول:

الحلّ لا فتنة.

فإن وُجدت الفتنة، وتمَّ القبول بها وكأنَّها الحلّ، سيكون الجميع دافعين للثمن بلا ثمن.

ولساءل آخر أن يتساءل:

وأين يكمن الحلّ؟

نقول:

الحلّ يكمن في اليمن السعيد؛ فعليكم يا أبناء الخليج ورجاله المحترمين باجتثاث الفتنة من اليمن لأنَّكم أنتم المستهدفون أولّاً، وما اليمن إلّا نقطة البداية. اليمن فقط جعلوها البيئة والتربة الصالحة لزراعة ما يشتهي أصحاب الفكرة خارج حدودهم الوطنيّة، وما يزرعونه أصحاب الفكرة في اليمن هو (فرّق تسد) هذه الفكرة ستنتشر في دول الخليج والتي ستزداد نشاطاً عندما تلتقي بتلك المتمّمات الفكريّة التي تمّ بذرها في بلاد العراق. وباستثناء أصحاب القضايا سيجد بعض المجنّدين أنفسهم (من الشعب والحكومة) أنَّهم بذرة من تلك البذور المنثورة لتكون طُعماً في أفواه الغافلين، ولذا فالغافلون هم دائماً الذين يعطون أصحاب الفكرة مبرِّراً للتدخل الذي به يتمّ احتلال تراب الوطن أو احتلال جزء منه؛ فالغزاة الذين يملؤهم الخوف من الأزمة المالية والاقتصادية والمائية والغذائية؛ لن يتأخروا يوماً عن مواعيد تنفيذ فكرتهم، بل يمكن أن يستقدموا موعدهم الذي ضمَّنوه في الفكرة.

فالصومال بدون شكّ كانت دولة ذات سيادة آمنة الحدود، واليوم الصومال لم تكن آمنة الحدود ولا هي آمنة ما بينها، وإنْ أراد أهلها

والعرب للصومال أمناً؛ فعليهم بقبول المتناقضات من أجل صوغ فكرة تستوّعب الجميع وتقبلهم دون أن تستثني أحداً من المشاركة في إدارة شؤون البلاد، وتحفِّزهم على العمل وتدفعهم إليه دفعاً، دون أن يغفلوا عن صوت المرأة والمعاق وحتى المجنون؛ فهو الأقدر على التعبير عن نفسه، ولذا فإنْ لم يتمّ الانتباه والإسراع لإنقاذ اليمن ستكون الكارثة على دول الخليج، ومن بعدها يعرف الجميع في الوطن العربي أنَّ النيران إذا شبّت في ركن من أركانه فلا تقف عند حدّ.

في دول الخليج كغيرها من دول العالم، قبول ورفض وإقصاء وتغييب وتطرُّف وتحزُّب وقبائل وتعصّب وتعدّد مذهبي وديني وحساسيات وعداءات ونفاق سياسي واجتماعي وزواج وطلاق وكره وكيد ومكر، إلى جانب جيران وأباعد لهم من النوايا ما يكفي لبث كلّ ما من شأنه أن يُحدث تأزُّماً، ولهذا فإنَّ معطيات اشتعال نيران الفتنة متوفّرة إنِ لم يتمّ استيعاب كلّ متغيّر من هذه المتغيرات الاجتماعيّة والدينيّة والسياسيّة والفكريّة والثقافيّة والنفسيّة في بوتقة الفكر الذي يسمح لكلٍّ حقوقه وعلى كلٍّ واجباته، ولكلّ مسؤولياته، وفقاً للصلاحيات والاختصاصات المقدّرة قانوناً أو دستوراً أو عرفاً ودیناً.

في الشام قيادات وأحزاب تحت مظلّة الثقافة والدين والطائفيّة؛ فمهما حاولت أنْ تكون حذرة فلن ينفعها الحذر مع قدرة صاحب الفكرة الذي يتلاعب كلّما شاء ببعض عناوينها، خاصة وأنّ دول الشام دول حدوديّة مع دولة إسرائيل (الشوكة) التي وخزت تراب الوطن الكبير؛ فمع أنّ الشوكة مؤلمة، إلّا أنّه لا يحسّ بآلامها إلّا من وخزته، ولذا فالذين لم تكن موخوزة في ظهورهم لن يحسوا بما تتركه من ألم، ولهذا فهم لا

يبالون بصريخ تلك النّسوة وأولئك الأطفال الذين يصرخون من شدّة آلامها، فالذين هُتكت أعراضهم في فلسطين وإنْ اتفق الساسة؛ فكيف لا يثأرون؟ والذين هُدّمت مساكنهم ومدارسهم ومساجدهم على رؤوس أهليهم؛ فكيف لا يثأرون؟ والذين طُرِدوا من مزارعهم ومصانعهم وقتِّل من قُتل من أهلهم؛ فكيف لا يثأرون؟

نقول:

لا يمكن أن يطمئن أبناء الوطن ويأمنون ويزول الخوف من أنفسهم ما لم تُزل الشوكة التي تضايقهم في ظهورهم ألماً. ولذا فالفكرة التي تقول: يجب أن يعيش الإسرائيليون والفلسطينيون أخوة متحابّين في دولتين مستقلتين ذات حدود آمنة، هي في حقيقة الأمر كمن يريد للنعجة دولي أن تعيش آمنة مطمئنة مع الذئب جنباً إلى جنبٍ.

نعتقد أنَّ الأمر ليس بالهين كما يراه البعض، فالقوّة الصاروخيّة في المنطقة في حالة ازدياد مع تطوّر معلوماتي وتقني إلى جانب النمو الديني لدى الشباب ليس في منظّمة حماس فقط كما يظن البعض، بل في جميع أرجاء الوطن العربي والعالم الإسلامي؛ فالمشكلة مملوءة خوفاً؛ فلن تحلّ إلّا بسلام إرادي لا إكراهي. تعنُّت حكام إسرائيل لا يؤدي إلّا إلى التطرُّف والرفض وإن رضيت الحكومات كرهاً.

فالحدود بين جنوب لبنان مع دولة إسرائيل المرابط حزب الله عليها، فيها الدماء غالية الثمن، ولذا فحزب الله مستهدف بالفكرة المصاغة في الغرب، ومقدمات رؤوسها تظهر بين الحين والحين وخاصة في زيارة الرئيس الإيراني أحمدي نجاد التي تلاها رئيس الوزراء التركي اوردغان

بالزيارة (سُنّة بعد شيعة)، فالأمر خطير جدّاً إن لم يتمّ تفادي الأمر بفكرة تجمع أهل الدين بأهلهم.

تركيا كسَّرت القيد العلماني، وفُكّ عنها القيد الأمريكي والأوروبي تجاه ما يجب أن تلعبه في الساحة العربية على وجه الخصوص؛ فهي الورقة الرابحة في لعب دور الضاغط على إسرائيل، وهي الورقة التي ستطرح حلّاً لتنظيم علاقات المسلمين، وستقدّم أنموذجاً في ممارسة السلطة على العالم الإسلامي؛ فتركيا بالنسبة لأصحاب الفكرة تمتلك نظاماً ومؤسسات دولة في الوقت الذي فيه تتراجع مؤسسات دول أخرى في المنطقة، ولذا فالغرب يُقدّم تركيا كونها قادرة لأنْ تلعب دوراً به تتمّ المحافظة على المنطقة من خطر الفوضى العرقية والطائفية والدينية.

ولأنَّ للفكرة أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ فهي لم تغفل عن الدور الذي يجب أن تلعبه تركيا التي هي الآن بدأت بتحسين أحوالها مع الدول العربية والإسلامية؛ فتركيا مع أنَّها عبر التاريخ قد احتلّت الوطن العربي في مجمله، إلّا أنّ معظم العرب إن لم يكن جميعهم فهم لم يعتبروا تركيا العثمانية بعهودها المتعاقبة على الوطن العربي دولة استعماريّة، ومن هنا نحن نعتقد أنَّ الأمر سيتكرّر وبرغبة ومطلب من بعض العرب؛ فالشعوب العربية مواقفهم تجاه تركيا تغيّرت منذ ذلك اليوم الذي وقف فيه رئيس الوزراء التركي السيد المحترم الطيب اوردغان ذلك الموقف من دولة إسرائيل. فهم اليوم يؤيدون السيد أوردغان وتركيا بشكل عام أكثر ممّا يؤيِّدون به زعمائهم ورؤساءهم.

ولسائل أن يسْل:

ومتى ستتمّ اللعبة؟

نقول:

بعد أن يشتدّ الصدام والصراع باسم الدين في مصر؛ فمصر لا يُضعفها إلّا الصراع الديني الذي إن شبّ، شبّ كالنار في الهشيم، ولذا فالفكرة لا تواجهها صعوبة إلّا في مصر، ممّا جعل الفكرة تظهر بين الحين والحين في صدامات بسيطة بين (مسلمين ومسيحيين وأخوان مسلمين ومسلمين ليسوا إخواناً، وحزب كفاية وكفاية للأحزاب وتكاثرها).

ومع أنَّ الدين متغيّر رئيس في تغيير الأحوال من سالبة إلى موجبة، إلّا أنّ الذين يعتقدون فيه تطرُّفاً وتعصّباً وإقصاء للآخرين ورأياً وأمراً فوقياً يستوجب الطاعة، وسلّماً لتبوّء المراكز أو تغفيل من لم يغفَّل بعد؛ فهم واهمون؛ فالدين لا فوقيّة ولا تغييب ولا إقصاء، حيث لا إكراه في الدين، والأمر بين الناس شورى، والمجادلة فيه بالتي هي أحسن، ولهذا فالدين استنارة في الأنفس والقلوب والعقول، يرشد للإصلاح ومقاومة الفساد، وكفّ سفك الدماء بغير حقّ، ولذا فهو الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر دون تمييز بين الناس في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

ولأنّ مصر سكّاناً، هي أقوى صخرة عربية يُكسّر فوقها الاستعمار، فالمسالمة تنسيقاً معها لا تكون إلّا لكسب الوقت وتفادي الألم، ولأنَّ أصحاب الفكرة الأقوياء لا يقبلون معهم على الساحة أقوياء غيرهم؛ فهم سيتوجّهون لمصر بغاية إضعافها، ولكن دائماً دائرة الممكن هي المحتوية للمتوقّع الذي حسبوا له الحسابات، وغير المتوقّع الذي لن تكون حِساباته إلّا بأيدي أصحاب الأرض، ولذا كما قرّر أصحاب الفكرة في دائرة الممكن المتوقّع في هذا القرن الواحد والعشرين أن يغزوا أرض

الصومال، قرّر الصوماليون حبّ الموت حتى حرّروا أراضيهم، وهذه عبر التاريخ هي من طبائع العرب، وهكذا ستكون القرارات في بقية الأقطار العربية إن عدتم عدنا والباديء أظلم، وفي النهاية دائماً ينتصر أصحاب الأرض في الوقت الصحيح إن لم يتأخروا عن دفع الثمن، وإنْ تأخّروا تأخَّر طرد المستعمرين عن تراب وطنهم.

وبهذه المعطية تحرّرت شعوب العالم من الغزو الخارجي، إلّا الولايات المتحدة الأمريكية لم تتحرّر ولن، حيث لا مقارنة بين مساحة الأرض وعدد سكّانها الأصليين مع عدد الغزاة الذين أصبحوا فيها غالبية مطلقة. ولهذا فالخطر من هذه الزاوية يلاحق بعض دول الخليج العربي التي أصبحت الشعوب المهاجرة إليها أضعاف مضاعفة لعدد السكّان الأصليين. وفي مقابل ذلك أصحاب الفكرة عندهم كلّ شيء بحساب؛ فهم في حاجة للأيدي العاملة المهاجرة، ولكنَّهم ليسوا في حاجة لأن يكون عدد المهاجرين في بلدانهم أكثر من عدد السكّان الأصليين. ومع ذلك فالأمر في دائرة الممكن غير المتوقّع له شأن آخر؛ فعدد المسلمين في جميع دول العالم هو في حالة تزايد أضعاف مضاعفة إذا ما قورن بنسبة الزيادة السكّانية للأهالي المحليّين، ولهذا فإنَّ الديانة الثانية في جميع بلدان العالم أصبحت بحمد الله تعالى هي الديانة الإسلاميّة؛ وهنا فالمستقبل للإسلام، وعلى خصمه قبول دفع الثمن (أسلم تسلم)، ولأنَّه لا إكراه في الدين، والإسلام هو الديانة الخاتمة وللناس كافة.

إذن فالدين الإسلامي دين الجميع هدايةً أو استهدافاً؛ فلا داعي للإكراه، ولا داعي للرفض ولا المكابرة، وفي مقابل ذلك حقيقة أنَّ الدين الإسلامي لا يخصّ أمّة الإسلام، إنَّه دين الكافة فمن آمن سلم، ومن لم يؤمن

بعد؛ فالفرصة أمامه ولا أحد يستطيع قفل أبوابها، بل الذين آمنوا هم المقصِّرون إن لم يدعو الآخرين إلى الإسلام، ولهذا فلا حرب إلّا مع معتدٍ ظالم.

أمّا المغرب العربي فأمره مقسّم بين بني سليم وبني هلال (الفاتحين العظام) من جهة، وبين العرق الزنجي من جهة، ومن جهة أخرى بين الأمازيغيّة، وجميع أنواع طيف العرب البائدة من طوارق وغيرهم من العرب الذين سبقوا أو لحقوا بني هلال وبني سليم، ولذا فأمر التركيبة الاجتماعية لم يكن خافٍ عن أصحاب الفكرة؛ فهم متى ما شاء لهم القدر شاءوا. ولأنَّ المغرب العربي يشكّل جبهة جغرافية وتاريخيّة في مواجهة الغرب الذي رازهم وزناً مرات عدّة، احتلالاً وتحريراً وتقتيلاً واستشهاداً ونصراً؛ فقاعدته المنطقيّة لا تختلف مع تلك التي أقرَّها عرب الخليج أو مصر والشام والعراق والسودان والصومال وهي قاعدة: (إن عدّتم عندنا والباديء أظلم).

وعليه إنْ لم تكن أنفسنا مملوءة خوفاً ممّا يحاك ضد شعوبنا وأوطاننا وديننا ومستقبلنا وحرّيّتنا؛ فلا يمكن أن نكون مشاركين في صناعة المستقبل الإنساني الذي تبرز بعض من رؤاه باسم العولمة. وعلينا أن نعرف أنَّ عصر جان جاك روسو وعقده الاجتماعي قد ولّى؛ فلا مكان اليوم لفرض الرؤية الواحدة والقبيلة الواحدة ولا مكان للتوريث، ولا مكان للإقصاء والتغييب والتحقير والتعذيب وتزوير الانتخابات، كلّ شيء في مرضاة الناس على البلاطة ولا شيء لإكراههم؛ فزمن العسكر قد ولى كما ولى عهد موسليني والفاشية والماركسية، وبدأ يظهر في الآفاق عصر الناس سواسية أمام القانون كما هم سواسية أمام الله، وبدأ يظهر

عصر انتهاء المتناقضات بسيادة التنوّع واستيعاب الآخر طوعاً، وتقبُّله هو كما هو من أجل أن يصبح على ما ينبغي أن يكون عليه في أحسن تقويم.

وهنا نقول للذين اتخذوا مدينة أفلاطون أنموذجاً لمدنهم في القرن العشرين، زمن مدنكم قد ولّى؛ فمدينة أفلاطون التي تُدعى بالفاضلة هي في حقيقة أمرها ليست فاضلة؛ فأنتم واهمون، فهل يُقبل أن تكون مدينته فاضلة والمرأة فيها تُحرم من ممارسة السلطة؟ وهل يمكن أن توصف بالفاضلة والعبيد فيها أكثر من الأحرار عدداً وهم جميعهم محرومون من ممارسة السلطة؟ وهل يمكن لأحدٍ أن يصفها بالفاضلة وهي تَحرم المعاقين وكبار السن من ممارسة حقوقهم الطبيعية وتدعو للتخلّص منهم أحياء في مواجهة الطبيعة؟ وهل لمن يمتلك أخلاقاً أو فضيلة وقيمة حميدة أن يقبل بقانونها الذي سنَّت فيه أن تمارس المرأة الرياضة عارية أمام الرجال، وأنّه لا مكانة فيها للأسرة، فالنساء الحسناوات حقّ مشاع للفلاسفة، أمّا اللاتي لا جمال لهنّ فحالهن كحال العبيد؟

ولمتسائل أن يسأل:

لماذا وصل الحال بالناس إلى هذا الحدّ؟

نقول:

لأنَّ الجبن في أنفسهم حلَّ محلُّ الخوف.

ولأنّ الخوف هو صانع المستقبل؛ فهو بدون شكّ محرّر العبيد.

ولسائلٍ آخر أن يسأل:

متى يتحرّر من لم يكن عبداً؟

نقول:

عندما يُصبح عبداً لله تعالى، لا عبداً للمادة يملؤه الطمع، ولا تسيطر عليه الشهوة المفسدة للأخلاق؛ فالخوف من الله يُحرّر العبيد من العبيد، ولذا فكلّ شيء تخافه تهرب منه إلّا الواحد الأحد فإنَّ من خافه فرّ منه إليه؛ فيهرب من سخطه إلى رضوانه ومن وعيده إلى وعده فلا ملجأ ولا مَنجى منه إلّا إليه[80].

وعودٍ على بدء نتساءل:

متى يتمّ تخليص المنطقة العربية من الجُبن وكيف؟

نقول:

عندما يسود الخوف ميادين المعرفة من أجل مستقبل أفضل؛ فإيران أصبحت في المعادلة الدولية متغيراً جديداً يحسب لها الحِساب، وتركيا كذلك، إلى جانب الدّب الصامت (الصين) والهند وروسيا القديمة الجديدة؛ فمن يمتلك القوّة يُحترم ومن لم يمتلكها يهان.

ولكن من الذي يستطيع أن يمتلك القوّة؟

نقول:

الذي كلّما قرأ التاريخ استشعر في نفسه خوفاً، وكلّما تمعّن الحاضر تدبّر حاله، وكلّما تطلّع إلى المستقبل أحدث النُقلة إلى الأفضل، أي هو من يعيش الألم فيسعى لإزالته بإحلال السكينة والأمن محلّه.

إذن على العرب أن لا يغفلوا؛ فالاستعمار كلّما توفّرت اشتراطاته عاد من جديد.

وقد يتساءل البعض:

---

[80] ناصر الزهراني، الله أهل الثناء والمجد، ص 681.

لماذا معظم الشعوب تحرّرت، ولم يَعُدّ الاستعمار إليها ثانية إلّا الشعوب العربية استعمارها عبر التاريخ يتكرّر؟

نقول:

العالم مجموعة من الأمم العظيمة، وعلى رأس هذه الأمم ثلاث أمم مُخيفة تصدّرت صناعة التاريخ تحدٍّ ومقاومة وإقدام مع قبولها الموت ثمن للحرّيّة، هي الأمّة العربية والأمّة الألمانية والأمّة اليابانية، ومع أنَّ جميع الأمم التي تعرّضت للاحتلال الاستعماري استسلمت، إلّا الأمّة العربية لم تستسلم بعد؛ فرأينا كيف استسلمت الأمّة الألمانية وقبلت باشتراطات المستعمر؛ وكذلك رأينا كيف استسلمت الأمّة اليابانية أيضاً، والشاهد على ذلك مئات الآلاف من العسكر الأمريكان هم يقطنون ويجثمون على التراب الألماني والتراب الياباني كرهاً، إلّا التراب العربي كلّ شبرٍ منه يتحرّر، يتحرّر بلا اشتراطات، ومع أنَّ محاولات المستعمرين لم تنقطع تبدّلاً، إلّا أنَّ حبّ العربي للموت كان خير رادعٍ لمن تسوّل له نفسه أن يستعمر أيّ ركن من أركان الوطن؛ فالعرب منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا وهم يتعرَّضون للاستعمار بغير حقّ، وكلّما تمّ احتلال جزءٍ من تراب الوطن تمّ تحريره من قِبل مواطنيه بالقوّة. لقد ثمّ استعمار الوطن من قِبل الروم إلى أن طُردوا منه بالقوّة، ثمّ عادوا تمّ طردوا، ثمّ عادوا ثمّ طردوا، وثمّ احتلاله من قِبل الفرس ثمّ طردوا بالقوّة. وقد أُحتّل من قِبل الأحباش وطردوا بالقوّة، ثمّ أُحتّل من قِبل العثمانيين ثمّ طردوا، ثمّ عادوا، وهم اليوم مؤهلون للعودة مرّة أخرى.

ولأنَّ أمّة العرب أمّة عنيدة لا تستسلم أبداً وإن خسرت معركة تُجمّع قواها من جديد فتدخل غيرها، ولذا فهي أمّة يخافها الموت ولا تخافه؛

فمنذ أنّ نشأت هذه الأمّة العظيمة والاستعمار لم يفارق ترابها، أو لم يفارق جزءا منه، ومنذ ذلك التاريخ (قبل الرسالة الخاتمة) والعرب أمّة لا تقبل الاستسلام؛ فجاء الدين قوّةُ عقيدة لها، فازدادت قوّة على قوّتها وثقة وصلابة؛ فأصبح شعارها في سبيل الحقِّ والكرامة والدين والوطن (من يطلب الموت تُكتب له الحياة).

أمّة تركع لله لا يمكن أن تقبل بالركوع لغيره، ويا ليت المستعمرون الطامعون ينتبهون لهذا الأمر (أمر الركوع لله) فإن انتبهوا سيعرفون أنّ هذه الأمّة لا يمكن أن تستسلم أبداً، وإن عرفوا ذلك يقيناً، ليس لهم إلّا أن يغيّروا فكرتهم التي لم تُغيّر بعد.

وبناء على قاعدة (إن عُدّتم عدنا)، فلا عيب أن يُعيد المستعمرون بموضوعية قراءة التجربة الاستعمارية مع العرب؛ فإن عادوا قراءتها وتشخيص حالتها، عرفوا الحقيقة أنَّ إيطاليا قد احتلّت ليبيا ويعرفون أنَّ الليبيين في المواجهة كلّهم كانوا عمر المختار، وأنَّ فرنسا قد احتلّت الجزائر؛ فوجدت كلّ الجزائريين عبد القادر الجزائري، وهكذا عرفت بريطانيا وأسبانيا وفرسان القديس يوحنا وأمريكا، أن دول المغرب العربي ومصر والسودان والصومال وبلاد الشام ودول الخليج العربي جميعها شعوب عنيدة لا تستسلم، ومن يعتقد أنَّ احتلالها نزهة كما اعتقد الأمريكان عند دخولهم العراق بالقوّة الاستعمارية 2003م؛ فهم مخطئون.

وعليه لقد استسلمت الأمّة الألمانية كما استسلمت الأمّة اليابانية وخضعت للأمر الواقع، إلّا الشعوب العربية لم تستسلم ولن، ولأّن المستعمرين يعرفون أنَّها أمّة عنيدة وخطيرة؛ فهم لن يتركوها وشأنها

تنهض؛ فإن نهضت نهض العالم بأسره برؤيتها لا بتلك الرؤية، وهنا تكمن الحقيقة التي قد غفل عنها بعض من أبناء الأمّة ولم يغفل الأعداء عنها، ولهذا لن ينتهي دفع الثمن بيسرٍ وسهولةٍ.

وعليه: فما هي الفكرة التي فيها يأمن الخوف؟

نقول:

هي تلك الفكرة التي تحملها الكلمة وهي تحمْل قضية تقدم حلّاً يُخرج من التأزُّمات؛ فيسود الفرج الذي فيه تحلّ السكينة والأمن محلّ ما يؤدّي إلى الخوف، ولذا فالفكرة مكمن الأسرار، والعقل يُرشِدُ إليها عن تدبّر، والفكر يسترشد بها عن دراية ومعرفة، والفكرة يمكن أن تباع وتشترى في أسواق المنافسة الحرّة، وقد تُسرق.

إذن الفكرة مع أنّها فكرة، إلّا أنّها مكمن الفصاحة إن تمّ الإلمام بها وبما ترمي إليه من أسرار، وأصحابها هم دائمون يأملون من الآخرين التوقّف عندها حتى التبيّن، ولذا فلا داعٍ للاستعجال والتسرّع لمن أراد أن يستقريء فكرة، ولا داعٍ للّعب بها.

ومع أنَّ الفكرة مكمن الأسرار، إلّا أنّها من حيث معرفتها ووضوحها في ذهن صاحبها المتدبّر أمرها لم تكن كامنة، بل ظاهرة وضوحاً ومعروفة، ولكنّها كامنة عن الآخرين الذين ستوجّه لهم الضربات، ولهذا فأصحاب الفكرة يستبشرون بها، والآخرون يتألمون من أضرارها ومخاطرها.

الفكرة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قد يُعظّم أصحابها وقد يُحقّرون؛ فهي قد تفتح أمامهم آفاق سوق العمل، فتُسهِم في حلّ التأزُّمات، وقد تضيِّق سوق العمل عندما تنتج ما يحلّ محلّ الإنسان؛ فتزداد البطالة وتتّسع دائرة الحاجة أمام ارتفاع كُلفة مشبعاتها.

ولسائل أن يسأل:

هل للفكرة مجتمع؟

نقول:

نعم. مجتمع الفكرة هو من ينتجها، أو هو الذي بها يتكوَّن وينتظم؛ فالمدينة الفاضلة على سبيل المثال فكرة فرديّة تحمل رؤية، حاول بعض الفلاسفة سعياً في تطبيقها، ومع ذلك لم تظهر الفضيلة في تطبيقاتها، ولذا فإنَّ ما وُصف (بالفكرة الفاضلة) في ذلك الزمان لا يُعدّ فاضلاً في زماننا، وذلك بأسباب معرفة القصور في تلك الفكرة، ولهذا لم تتحقّق المدينة الفاضلة بتلك الفكرة والرؤية التي تحملها ولن تتحقّق.

إذن المجتمع في أساسه لم يكن نتاج فكرة، ولكن بالمعرفة الواعية أصبح ينتظم على قيم وفضائل وفكرة، هذه الفكرة قد تكون اجتماعية وقد تكون اقتصادية وقد تكون سياسيّة، ولهذا تكوّنت المجتمعات الرأسمالية على فكرة رأس المال، وتكوّنت المجتمعات القبلية والعشائرية على فكرة الإنسان اجتماعي بطبعه، وتكوّنت المجتمعات الإسلامية على فكرة المعتقد المستمدّ من الدين.

وعليه: الفكرة قوّة تفاعل إلهامي تتولّد من فروض مجرّدة، وتساؤلات حُرّة؛ فبها يُلهم من ألمّت به وسكنت قلبه وعقله، وبها تتغيّر الأحوال إن تلقّفتها أيدٍ منتجة، تُدرك الواقع وتتطلّع للمستقبل، بعد أن تخلق سوقاً للعمل.

إذن الفكرة تُلفت انتباه العقل لأنْ يعقل ما كان عنه غافلاً، وتدفعه تجاه الآخرين ليكون من أجلهم، ولكن البعض يستطيعون أن يحرِّفوا الكلم عن مواضعه، فيتمّ الانحراف بالفكرة.

الفكرة المجرّدة لا تتجاوز حدود العقل؛ فإن تجاوزته تجسّدت على أرض واقع، وإنْ لم تتجاوزه ستظلّ سجينة جدران تفكيره إلى أن تُقبر مع صاحبها، ولكن من حيث كونها فكرة؛ فهي قابلة لأن يُبرهن بها، وقابلة للاستدلال عليها، وكشفها حتى معرفة مكامن أسرارها.

الفكرة دائما تولّد الفكرة التي بها تتحسّن أحوال المجتمعات وترشد وتتطوُّر تقنية وصناعة وعقيدة وعلماً وحكمةً وفكراً.

وعليه: فالفكرة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع هي دائماً ذات تأثير سالبٍ أو موجب، فالذي يُنتجها يعدّها موجبة في كلّ الأحوال بتأثيراتها الموجبة عليه وتأثيراتها السالبة على غيره، ولذا بالنسبة للغير بما أنّها مؤلمة فهي سالبة الأثر، وليس له بدّ إلّا العمل على تفاديها أو التخلّص منها بالفكرة المضادة؛ فالفكرة لا يمكن التخلّص منها إلّا بالفكرة، وهذه تستوجب معرفة واعية وعلم يرشد إلى الإصلاح وخوف يُحفّز على المثابرة والفطنة.

فإذا تساءل أحد العرب:

هل كلّ ما يجري في وطننا الكبير وما يجري تجاه الأمّة الإسلامية هو نتاج فكرة لا غير؟

نقول:

نعم نتاج فكرة لا غير. ذلك لأنَّ المسلمين يسجدون لله تعالى، ومن يسجد لله تعالى سيظلّ مخيفاً لمن يرى نفسه أنّه قوّة لابدّ أن تمتدّ متى شاء وكيفما يشاء ولو كره من كره، ومن هنا جاء الاستعمار احتلالاً للبلدان بالقوة كرهاً، ولأنّ من يسجد لله تعالى لا يقبل بأفعال الإكراه، لذا فهو يرفض، ولأنَّه يرفض، إذن لابدّ من المواجهة معه بالقوّة، وعندما

تتواجه الصفوف بطبيعة الحال لا اختيار أمام من يسجد لله إلّا أحد أمرين:

أ . استشهاد.

ب . نصر.

وعليه فمن يقول (الله أكبر) من أعلى المآذن هو يعلن أنّه قد نزع الخوف من نفسه بمخافته الله، ولهذا من يعتقد أنّه قادر على إخافته سيجده شجاعاً مستبسلاً حيث لا مكان في نفسه لاستقرار الخوف، وإن حدثت المواجهة من أجل إحقاق الحقّ سيجد نفسه مُقدماً بالقوّة وهو متأكد أنّه قد ضمن النتيجة المرضية (استشهاداً أم نصراً) أي بالنسبة له في الحالتين لا هزيمة.

وقد يتساءل البعض:

وما هي المبرّرات التي أقنعته بأنّها لا هزيمة؟

بدون شكّ المبررات هي؛ الخوف من الله.

وعليه أنَّ ما يجري على الساحة العربية والإسلاميّة من اتهامات هو مولود الفكرة (فرّق تسد)، فكانت الفُرقة بين المسلمين (إيرانيون وعرب) و(أفغان وباكستانيون وأتراك) و(مسلمون هنود ومسلمون باكستانيون) و(سنّة وشيعة) و(حماس وفتح) و(إخوان وبعثيون وناصريون، وشيوعيون وحكومة وشعب....الخ) و(عرب وأمازيغ) و(طوارق وزنوج) إلى جانب (عرب مسلمين، وعرب مسيحيين، أكراد، وعرب دروز، وتكرمانستان....الخ)، وفوق كلّ هذا أنَّ (المسلمين جميعهم وخاصّة العرب منهم هم متّهمون بالإرهاب والتطرُّف، ولكي تكتمل الفكرة لا

ننسى تلك الشوكة (دولة إسرائيل) التي وُخز بها البدن العربي عن قصد لسببين رئيسين هما:

أ . كُره صاحب الفكرة للعرب، ليعاقبهم بمن يكره.

ب . كُره صاحب الفكرة لبني إسرائيل، جَعله يقرّر عِقابهم مرتين: الأولى: سلبهم حقّ المواطنة الذي أقره لهم في أوروبا، وكذلك سلبهم دورهم التجاري فيها.

الثانية: لتنتقل الاضطرابات من أوروبا إلى خارجها، ويتمّ القضاء عليهم من قبل الذين عبر التاريخ لم يستسلموا لعدوٍ من أعدائهم، ولكن لن يُسمح لهم بالقضاء عليهم إلّا بعد أن يؤدّوا رسالتهم تخريباً وفتنة وتفكيكاً للمكوّن الاجتماعي العربي كما سبق أنْ أدّوها في أوروبا وعوقبوا عليها تقتيلاً وتحريقاً وتهجيراً وتشريداً.

وعليه فإنَّ كره صاحب الفكرة لكلٍّ من اليهود والعرب، هو الذي جعله يتّخذ قرار إقامة دولة إسرائيل في أرض العرب (فلسطين)، وللتاريخ شواهد على كرهه لبني إسرائيل حيث جاءت الحركة الصليبية وما صاحبها من تطرُّف ديني وهوس لتصبَّ مزيداً من السخط على نيران الكراهية ضد اليهود، الذين قد اشتهروا بالتجارة كما اشتهروا بالمراباة في استغلال الفقراء في أوروبا، ممّا جعل نيران غضب الفقراء في أوربا تشتعل ضدّ اليهود الذين يعتبرونهم المفسدين فيها.

ولما كان المرابون في أيِّ مجتمع محلّ كراهية الناس وحقدهم، فإنَّ الغطاء الديني الذي وفّرته الحركة الصليبية للغضب ضدّ اليهود يسّرَ لجموع الصليبين الهائجة أن تنتقم لنفسها من المستغلين؛ فكانت مذابح سنة 1096 ضد يهود شمال غرب أوروبا وكانت كلّ حملة صليبية تالية

ترتكب مذابح مماثلة ضد اليهود، بحيث عاشت الجماعات اليهودية بشكل مستمرّ في ظل العزلة والخوف. ولقد امتدت النزعة العدائية لليهود باعتبارهم هم من أعداء المسيح والكنيسة؛ فكانت المذابح متوالية ومنها، مذابح اليهود في لندن ويورك في 1189–1190 في بريطانيا. ومذابح ضد اليهود في أسبانيا ارتكبتها المسيحية في قرطبة وغرناطة، وحتى الأرثوذكس المسيحيين في أوروبا الشرقية لم يتركوا فرصة للاعتداء على اليهود ولم يستغلوها، ومنها مذبحة اليهود خلال انتفاضة الاوكران القوزاقين الأرثوذكس في 1648–1654[81].

ومنذُ بدايات الاتصال بين الأوروبيين واليهود والعداء مستمر بينهم والقيود القانونية تُسن ضد اليهود إلى سبتمبر عام 1791 حيث تمّ تحرير اليهود في فرنسا بإزالة أشكال التمييز العنصري القانوني ضدّ اليهود ومنحهم حقوقًا مساوية لغيرهم من مواطني البلد. وفي سبتمبر عام 1791، منح البرلمان الفرنسي اليهود حقوق المواطنة، ثمّ تمَّ تحرير اليهود بعد ذلك في اليونان عام 1830، وفي بريطانيا عام 1858، وفي إيطاليا عام 1870، وفي ألمانيا عام 1891. ورغم أنَّ المساواة المدنية التي مُنحت لليهود كانت قانونية، إلّا أنَّ يهود أوروبا ظلوا يلاقون مضايقات من خلال معاداة السامية والتمييز الاجتماعي؛ فجاءت مذبحة 9 مارس عام 1936 ببولندا حيث اندلع عُنف قُتل فيه ثلاثة يهود وجُرح أكثر من ستين آخرين في مدينة برزايتايك، وبعدها امتدت نيران الكره اشتعالاً إلى المدن المجاورة، وقبل انتهاء المذبحة، قُتل ما يقارب من 80 يهوديًا وجُرح أكثر من 200.

---

[81] Posted by FILKKA ISRAEL at Wednesday, February 18, 2009

وفي التاسع من نوفمبر 1938 بدأت السلطات الألمانية تقوم بهدم منازل اليهود وممتلكاتهم، وفي السنة التالية 1939 كان قد رحل عدد كبير من اليهود إلى بولندة، واستقرّ أغلبيتهم في وارسو، وكان آنذاك عدد اليهود 400 ألف يهودي تقريباً، لكن هتلر كان وراءهم بالمرصاد، فضيّق عليهم سُبل الحياة، وكانت فكرة هتلر لإبادة اليهود من العالم قد دخلت حيز التنفيذ بالقوّة العلنيّة منذ مجيئه إلى السلطة في سنة 1933، وبدأ بمطاردتهم من كلِّ النواحي، وحرمانهم من العمل، ومطالبتهم كذلك بدفع الضرائب، هذا الأمر في حقيقته لم يكن إلّا بداية انتقام هتلر من اليهود، حيث كان يعيش في ذلك الوقت حوالي ثلثي يهود العالم في أوروبا، وعندما غزت الجيوش الألمانية روسيا في يونيو 1941 أعدَّ هتلر خُطَّة قتل جماعي، لكلّ اليهود وجمع اليهود في معسكرات خاصة على أساس وجود مهمّة عسكرية، ثمّ أُصدرت الأوامر بأن يحفر كلّ واحد منهم قبره بيديه، ثمّ اصطفّ اليهود صفّاً واحداً بجوار قبورهم وأُطْلِقَ عليهم الرصاص، ولم يكتف هتلر بهذه الطريقة في إبادة اليهود ومحو آثارهم من العالم، بل أعدَّ لهم طرق أخرى للموت حيث أقام لهم الألمان أفراناً خاصة لحرقهم، واستمرت عملية الإبادة إلى 1945.

وإبادة هتلر لليهود كانت لها أسبابها ودوافعها القويّة، فهي كانت انتقاماً شرساً لما سبّبه اليهود من تخريب للاقتصاد الألماني وما قاموا به من فتن لتفكيك وحدة الشعب الألماني وإذلاله.

وعليه يذكّرنا تاريخ 09 نوفمبر 1938 بتلك الفكرة اللئيمة، فكرة اغتصاب فلسطين حيث كانت اللجنة الملكية البريطانية التي ترأسها

(الايرل بيل) قد نشرت تقريرها في شهر تموز سنة 1937 واقترحت فيه حلّاً لمعضلة فلسطين بواسطة مشروع للتقسيم، تنشأ بموجبه دولة عربية مستقلة وأخرى يهودية، ثمّ أعلنت عزمها على إسقاط اقتراح التقسيم ومحاولة إيجاد تفاهم بين العرب والصهاينة عن طريق المفاوضات المباشرة في لندن[82].

ولسائل أن يسأل:

ما هو المستقبل لدولة بني إسرائيل؟

نقول:

على المستوى القريب القدس عاصمة لكل الأديان، وعلى المستوى البعيد فلسطين للفلسطينيين مع حريّة المعتقد لسكّانها يهوداً ومسيحيين ومسلمين.

وعليه: كره الأوروبيون لليهود في أساسه هو أشد كرهاً من كرههم للعرب، ولأنّ الأمر كذلك قرّر الأوربيون ما أقرّته بريطانيا دولة لليهود في فلسطين (أبعد المكروه إلى المكروه تشتدّ التأزّمات بينهم وتأمن)، فكرة في عالم السياسة لا تساويها فكرة في اللؤم والدهاء.

إذن فكرةٌ هذا حالها فما هو المقصد من وراءها؟

المقصد إشعال نار الفتنة في الأمّة التي لا تركع إلّا لله تعالى لعلّها تركع، ومع أنّهم يعرفون جيداً أنّ من يركع يقيناً لله لن يركع لأحدٍ، إلّا أنّهم واثقون على الأقل أنّه من الممكن أن يتمّ إلها أبناء الأمّة في بعضهم بعضاً؛ فتُبثّ الفوضى ويُبثّ الرعب والفساد والتخريب في

[82] هتلر قاهر اليهود، 2009.

المؤسسات وإفساد الذمم والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية كي يجد صاحب الفكرة مبرّراً للتدخل، وهذا ما تخفيه الفكرة.

ونحن نعتقد أنّ الفكرة كالبذرة تُزرع بذرة فتنتج بذوراً، ولذا فتلك الفكرة التي نضجت وقُطفت ثمارها ذات مرة ومرة (احتلال من بعده احتلال)، و(تقسيم من بعده تقسيم)، هي اليوم من جديد قد بُذرت في الأرض المهيأة لها؛ فظهرت أوراقها فوضى في بلاد الصومال وبلاد اليمن السعيد لتمتدَّ فوضى إلى دول الخليج حتى تلتقي مع الجهود المبذولة فوضى في بلاد العراق التي ستمتدّ فوضاها هي الأخرى إلى أكثر من اتجاه؛ فهي كما ستمتدُّ إلى الجنوب تمتدُّ إلى الغرب مع سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وإلى الشرق مع إيران، ولذا فإنَّ مؤشرات هذا الأمر قد ينعت رؤوسه كما ينعت ثماره.

ولأنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ونحن نعلم يقيناً بذلك ونؤمن به، لذا فنحن من علمه الواسع في دائرة الممكن نعلم ما يجري من حولنا؛ وممّا نعلمه معرفةً أنّ القارة الإفريقية قارة بكر، يتوجّه إليها أصحاب الفكرة استثماراً واستعماراً، وهي تتوجّه إليهم هجرة واستقراضاً، ولذا فالمستقبل بين المستثمرين والمهاجرين، وبين المستعمرين والمستقرضين ستكون علاقة تمازج ألوان.

الصينيون في هذا القرن متوجهون لهذه القارة (الزنبقة السوداء) بعد توجّههم للقارة الأسيويّة؛ فهم بداية يتوجهون إليها استثماراً متواضعاً، ثمَّ استثماراً متقدماً، ثمَّ استعماراً مشتركاً مع أولئك الذين يخبرونها جيداً ويخبرون مكامن كنوزها وثرواتها المتنوّعة والمتعدّدة والمتميّزة، ويخبرون تركيباتها الاجتماعية والعرقية، ولهم فيها تجربة كافة، ولذا ستكون

المنافسة بينهم أولاً، ثمّ المصادمة ثانياً، ولكلٍّ حساباته من أجل عَدالة التقسيم.

وكذلك ستكون لغة تقديم القروض والمساعدات أولاً، ولغة استرجاعها بالقوّة ثانية، وفي مقابل ذلك ستكون الهجرة أولاً مسالمة، وتكون ثانياً أصوات المتظاهرين الأفارقة في شوارع أوروبا مع أصواتهم في برلماناتها تحت مظلة مآذن المساجد مخافة من الله وحده.

وعليه ستختلط الدماء بين القارتين الأفريقية والأوروبية استثماراً واستعماراً وهجرة، فتتغيّر الألوان من (أحمر وأسود) إلى دمٍ جديد في البرلمانات والحكومات الأوروبية تحت الشعار (الأسمر) المجنّس تجانساً، إنّه بالتمام مثل لون الرئيس الأمريكي باراك أوباما المحترم.

وكما يقولون تَوجَّه إلى القارة الأفريقية تجد ما يسرّك، ولكن من الذين يقول ذلك؟

بالتأكيد الذين يخبرنها أو يلمُّون بمعلومات وافية عنها؛ فالذين يخبرونها هم المستكشفون عرب وأوروبيون، تجّار وفاتحون، ومستثمرون ومستعمرون، هذا الذي كان سائداً، أمّا اليوم فهناك إلى جانبهم الصينيون الصامتون بدايةً، والحاسمون للأمر نهايةً، وهناك إلى جانبهم أيضاً من يسمّونهم برجال القاعدة، الذين اعتمدوا من وجهة الجهاد في سبيل الله مبدأ لا يقبلون الحياد عنه، ولذا فهم غير مستثمرين ولا مستعمرين، بل هم من يقتنص الفرصة فلا يضيعها، سلوكهم اعتداء على اعتداء، ولذا فهم على يقين أنّهم يخافون الله فيطيعون أمره، {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[83].

[83] البقرة 194.

ولسائلٍ أن يتساءل:

ولماذا هم متواجدون في إفريقيا؟

نقول:

هم في حقيقة أمرهم أصبحوا يتواجدون في كلّ مكان (خلايا نائمة وخلايا فاعلة)، يملؤون وطنهم بين (نائمين وفاعلين)، وينتشرون في بقاع المعمورة بكلّ اللغات وجنسياتها.

ولمتسائلٍ من الوطن العربي أنْ يسأل:

هل الوطن العربي في حاجة للقاعدة؟

نقول:

القاعدة اليوم أصبحت ليس بتنظيمٍ، بل هي نَعت يوجّه لكلّ من لم يكن مع الحكومات، ولذا فالقاعدة معارضة واسعة وعريضة، وتحالفات ومناصرة ضدّ من يصنّف عدّواً سواء أكان على تراب الوطن أم أنّه متحرّك مع حركة دوران الأرض.

ولكن ألا يكون الجهاد فقط ضد الأعداء؟

نعم. ولكن عندما تتعمّد بعض الأنظمة إلغاء مفردات الجهاد والفداء من مقرّراتها التعليمية وممّا يُبث في وسائل إعلامها، إضافة إلى إقصائهم وتغييبهم وحرمانهم البعض من ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمْل مسؤولياتهم في الوطن، ألا يُعتقد أنَّ ذلك لا يستفّز مواطنيها وقد يستفّز الآخرين الذين يميّزون بين ارتكاب المظالم والعدوان بغير حقّ؟!

ولأنَّ الإنسان خُلق عاقلاً، إذن لا يمكن أن يَقبل من أحدٍ أنْ يُقصى أو يُغيّب ويُحقّر، ولذا فكلّ من يوصف بصفة من صفات التحقير سيثور

آجلاً أم عاجلاً، ولابدّ له أن يغضب، بل لن تهدأ نفسه إلّا بعد أن يثأر لها من أولئك الذين كالوا لها الإهانات.

وعليه لا حلَّ للتأزُّمات الوطنية إلّا بالاستيعاب والتفاهم والتفّهم والتقدير والاعتبار والاعتراف أنّ الوطن ملك للجميع، وإنْ اعترفنا أنّه كذلك؛ فعلينا أنْ لا نغفل أنّ الثروة فيه حقّ للجميع، والملكية فيه حقّ للجميع، والسلطة فيه حقّ للجميع، وأنَّ أداء الواجبات فيه واجب على الجميع، وأنّ حمْل المسؤوليات عبء على الجميع فلا أحد يُحرم منها أو يُغيب عنها أو يتملّص منها.

في القارة الأسيوية مشكلة أفغانستان لم تُحلّ بعد، ومشكلة كشمير لم تُحلّ بعد، ومشكلة الشيشان لم تحلّ بعد، ومشكلة إيران هي الأخرى قائمة مع الغرب، وهذه جميعها دول إسلامية، الجهاد والفداء لغة مواطنيها حتى وإن اختلفت اللغات، ولذا فالحلول إنْ لم تكن عن إرادة ستكون الدماء فيها لا تقتصر على دائرة الممكن على المتوقّع فقط، بل تتعداها إلى غير المتوقّع، وإنْ حدث الاعتداء تضاعفت أساليب وألوان طيف العنف والتطرُّف على الساحة الدولية، وحينها لن تفيد قرارات الجمعية العامة ولا قوانين الأمم المتحدة وقراراتها.

أمّا مشكلة الكوريّتين فقراراتها بأيدي الكبار على الساحة الدولية، أي أنّ قرارات التأزّم أو الانفراج فيها لا تُتخذ إلّا هناك. ولكن على مستوى المناوشات والاستفزازات فالأمر لا يخرج عن كونه من حقِّهم ممارسة الديمقراطية وبكلّ شفافية، ولهذا عند الضرورة، تتمّ العودة للكبار الذين بينهم الخط الأحمر جرسه لا يدقّ إلّا عند رأس الرئيس.

ولأنّنا نحاور الفكرة بالفكرة والخوف يملؤنا نقول:

القارة الأمريكية تملؤها المتناقضات بعدد ألوان طيف جنسياتها والسكان المحليين (الهنود الحمر)؛ فاللون (الأسمر) قد ساد جنوبها، وبدأ يلوِّن شمالها، واللغة الاسبانية تكاد تسود هي الأخرى كما ساد اللون الأسمر جنوبها، والدين الإسلامي هو الديانة الثانية؛ فلا مستقبل للوبي الصهيوني هناك؛ فالمستقبل للمسلمين وإمام المصلين فيها هو اللون (الأسمر). ولذا فأفريقيا إنّها بحقّ أصبحت أشبه بالأم؛ فأين ما يكون أحد من أبنائها لا يفارقه لونها الزنبقي.

أمّا كندا فيكفيها الفراغ المكاني؛ فعدد سكَّانها حوالي الثلاثين مليوناً نسمة والمساحة قارة، فحالها كحال استراليا لابدّ أن يتمّ الامتداد إليها هجرة أم استثماراً أم استعماراً.

وعليه ينبغي أن تُقدّر وتُعتبر كلّ من الصين والهند الدولتان العازمتان على قبول التحدِّي من أجل أن يدخلا أسواق المنافسة الحرّة تجارة وصناعة وأيدٍ عاملة غير غالية الثمن مع مقدرتهما على سرعة الحركة والنمو، وكذلك القبول بالخسارة إن فاجأتهما في دائرة الممكن غير المتوقّع مع أيّ مواجهة؛ فالكمُّ العددي بالنسبة لهما يتأثر بالزيادة ولا يتأثر بالنقصان، أي إذا تعرّضت على سبيل المثال كلّ منهما إلى فقدان خمسين مليون نسمة في أيّ معركة قد تُكتب عليهما؛ فهل يؤثّر هذا العدد نقصاً في نسبة نموهما السكاني والاقتصادي والحرفي والمهني والغذائي والعلمي؟

نعم إنّ علم الإحصاء يعتمد نظرية النسبيّة والتقريب الإحصائي كلّما تعامل مع كمٍّ عددي، فعلماؤه يعلمون أنّه لا يمكن أن يتمّ الانتقال عداداً من (1 إلى 2) إلّا بالتقريب الإحصائي، أي عندما تبلغ نسبة الكسور

الإحصائية 50% يُقرّب العدد الكسري إلى عددٍ صحيح، ممّا يجعل (05 =1 تقريباً) و(1.5 = 2 تقريباً) ولهذا فإنَّ مليار نسمة ناقص خمسون مليون منهم يساوي تسعمائة وخمسون مليون، وإنْ سألنا أحد الإحصائيين عن المقاربة الإحصائية لهذا العدد؛ فسيقول بدون شكّ هذا العدد يساوي مليار تقريباً. هكذا ستكون نسبة الخسارة بالنسبة للصين أو الهند إنْ تعرّضت أيّ منهما إلى خسارة خمسين ملون من مجموع مليار نسمة افتراضاً، فالمليار نسمة سيكون ملياراً سواءً أكان عدداً صحيحاً أم عدداً مُقرّباً، ولذا دائماً إحصائياً ناقص خمسون مليون يساوي مليار تقريباً، أي وكأن العدد لم يتأثر. ولذا من ياترى سيكون في المقابل قادراً على أنْ يدفع مثل هذا الثمن ويتحمّل ما يترتّب عليه؟!

إذن إذا تحركت الصين بقوّتها البشريّة والاقتصاديّة في أي اتجاه لابدّ أن يتحرّك العالم بأسره، ولهذا لن يكون هناك مواقع للحياد، فالكلّ سيكون مقسّم على الكلّ، ولن يتمّ احترام أحد إنْ لم يكن مفردة في كتلة بشرية واقتصاديّة قويّة.

وعليه: فإنَّ هذه الفكرة تحمل خوفاً باستطلاعها تلك الفكرة.

ولساءل أن يتساءل:

ألا يمكن للفكرة أن تتغيّر؟

نقول:

نعم. تَحسُّن الأحوال يُغيّر الفكرة.

وكيف يمكن أنْ تتحسّن أحوال العرب من تلك المعطيات سابقة الذكر؟

نقول:

بالاستيعاب الذي به تَحلّ الطمأنينة محلّ الخوف.

ولهذا يجب أن يكون الاستيعاب بلا تردّد والتقبُّل حتى النهاية التي بها تُدرك الأمور وتتحسّن الأحوال وتُبلغ الحلّول. وعندما تُفقد أو تنعدم هذه القيم ومثيلاتها، يحدث التفرُّق والصدام والصراع، وتتجذّر العداوات بين أبناء الأمّة.

فالاستيعاب بين أبناء الأمّة يجمع الشمل، ولذلك فهو المُمكِّن من الوقوف على نقاط التمركز والتشتُّت بينهم في مواضع الالتقاء والفرقة، ممّا يستوجب الأخذ بنقاط الالتقاء واعتمادها جزءاً من الحلّ، ونقاط الاختلاف واعتمادها هي الأخرى جزءاً من الحلّ، ولذا فإنَّ الإلمام بالحالة وظروفها المتنوعة والمتغيِّرة والمتباينة والمتصادمة يُمكّن الجميع من معرفة العلل والأسباب مكامن الإصلاح والحلّول حيث لا حلّ إلّا ونابع من عِلةٍ أو سببٍ.

وعليه: فالاستيعاب هو المؤدّي إلى الحلّ، ولكن لا يُمكِّن من هذا الحلّ إلّا الخوف من تلك الفكرة اللعينة المستهدفة الأمّة بكاملها، تقيِّها وشقيِّها، مسلميها ومسيحييها، سنّتها وشيعتها، كردها وتركمانستانها ودروزها وأمازيغها وطوارقها، ولذا إنْ أرادت الأمّة حلّا لمشاكلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وحتّى النفسية؛ فعليها بالاستيعاب الذي لا يستوجب اشتراطات.

ذلك لأنَّ الاشتراطات هي مجموعة من الموانع والعَقبات التي توضع من قِبل أحد الأطراف فتحول دون التمركز على قاعدة (نحن سوياً)، ووفقاً لذلك لن يكون هناك من هو راهب ولا مرتهب، ولا مُتَطرِّف ولا مُتَطرَّف عنه أو منه.

إذن الاشتراطات في كثير من الأحيان تصدر فوقيّة لمن هم أسفل درجة على درجات السلَّم القيمي؛ فهي إملاءات مانعة للاستيعاب ودافعة للتطرُّف والإقصاء والتغييب، تطلب تنازلات ثمّ تطلب تقديم المزيد كلّما تمَّ قبول لاشتراطٍ من اشتراطاتها، ممّا يخلق حالة من الجفاء لا يكون من بعدها إلّا ما يقطع كلّ جذور الاتصال التي يمكن أن تتحقّق.

وعليه فبالاستيعاب ينتهي التغييب الذي هو فعل مترتّب على أفعال الإقصاء العمدي، وهو لا يفسح مجالاً للتعاون والتفاهم والتفهُّم بين أبناء الأمّة، فإن غُيِّبَ طرفٌ من أبناء الأمّة بأيَّة تعليلات تصبح العلّة في من كان سبباً وراء فعل التغييب، ذلك أنّ الذي يكون أساس المشكلة أو جزءاً منها، لا بدّ أن يكون هو أساس الحلّ الرئيس أو جزءً منه.

ولذا في حالة غياب من يتعلّق الأمر به يكون الحلّ ناقصاً بسبب تغييبه وليس غيابه، ذلك أنّ الغياب ذاتي صادر عن الأنا، أمّا التغييب فمصدره إمّا من الأنا للآخر أو من الآخر للأنا عمداً، وهذا التغييب غالباً ما يكون من أجل فرض رؤية الأنا المركزية الأمر الذي يؤدّي إلى:

. رفض الحلّ.

. تعدّد أنواع التطرّف.

. ازدياد حدّة المتطرّفين.

. انتشار الفساد والإفساد.

. تدهور الأخلاق.

. ضياع المستقبل.

وعليه فإنَّ نار الغضب تزداد اشتعالاً في الأفراد والجماعات الذين يُغيَّبون عن المشاركة في إيجاد الحلّ للقضية التي هم أحد عناصرها الرئيسة، وبالتالي فإنَّ الأمر لا يقف عند حدِّ الرّفض للحلّول كما يتوقّع البعض، بل الأمر سيؤدّي بهم إلى تنوع وتعدّد وتلوُّن أساليب التطرّف والاقتتال والعنف والمقاومة للحلّ الذي نتج بأسباب التغييب.

إنَّ إقصاء أيِّ أحدٍ من أطراف الأمّة أو تغييبه عن المشاركة (أيّ كانت هذه المشاركة) بأسباب أنّ له رأي آخر؛ فإنَّ هذا الأمر لا يلغي وجوده كونه طرفاً وله رأي آخر، بل قد يجعله على رأس هرم العنف بعد أن كان على مستوى من مستوياته الدنيا، ولذا فمن يستهدف الآخرين بالتغييب والإقصاء، سيجد نفسه أكثر الناس على إثبات وجودهم طرفاً من أطراف المعادلة التي لا يكون الحلّ إلّا بمشاركتهم استيعاباً.

ولأنّ الأمّة قد وصلت إلى ما وصلت إليه؛ فليس لها من بعده إلّا الصحوة، لتلتفت إلى ما تكنّه لها تلك الفكرة، فتتجنّبه بالقوّة المحقّة للحق والزاهقة للباطل. ولكن كيف؟

نقول:

ينبغي أن يُؤسّس مركز يتوسط المركزين ويقوم على شعرة تعادل كتفي الميزان دون طلب تنازلات عن حقوق واجبة الممارسة، ممّا يجعل المركز العام للأمّة مؤسّساً على الموضوعية لا على التنازلات والتغييب والتحقير والإقصاء وإحاكة المؤامرات وتقديم الإهانات.

ولذا يجب الانتباه لما تحمله الإهانة من ردود أفعل كثيرة منها:

. عدم الاحترام.

. عدم الاعتراف.

. عدم التقدير.

. عدم الاعتبار.

. عدم التفهُّم.

. عدم التقبُّل.

. عدم الاستيعاب.

ومن هنا نجد أنّ تقديم الإهانات للآخرين، يُعدُّ من المكامن الرئيسة التي تؤدّي إلى التطرّف، وتؤدّي إلى تآمر البعض ضدّ البعض؛ فالذين يظنون أنَّ اللقاء بأحد الأطراف يُعد اعترافاً بوجوده، وأنَّ نفيه يلغيه بالتمام؛ فهم بتفكيرهم هذا، بعيدون كلّ البعد عن العقل والمنطق، لأنّ الآخر الذي تنفيه:

. موجود بدليل نفيه.

. موجود بدليل رفضه.

. موجود بدليل نكرانه.

. موجود بدليل عدم الاعتراف به.

. موجود بتغييبه.

. موجود بإقصائه.

وعليه: فإنَّ أقصر الطرق وأفضلها للحلّ، هو الإقرار بما هو موجود، والجلوس مع الآخر على طاولة (نحن سوياً)؛ فقبول الآخر (هو كما هو) يُعدُّ مرتكزاً أساساً من مرتكزات القبول النابع عن الاعتراف بالوجود المؤدّي إلى الاستيعاب.

وعليه: فالوطن للجميع، وممارسة الحقوق فيه حقّ للجميع، وأداء الواجبات واجب على الجميع، وحمْل المسؤوليات عبء يجب أن يتمَّ

حمّله بإرادة من الجميع، ولذا عندما يتعرَّض الوطن لغزوٍ وتُحتَّل أراضيه، تصبح مسؤولية الدفاع عنه فريضة واجبة على كلِّ قادر حتى وإن وصف حمْل هذه المسؤولية تطرُّفاً من قِبل أصحاب الفكرة، ولهذا فالتطرُّف في مقاومة المحتلّين للأوطان حقّ يجب أن يكون بأيدي جميع المواطنين ولا يُنتظر فيه رأى من الغير ولا إعطاء رخصة.

ومن أجل أن لا يكون للتطرّف دائرة يمتدّ فيها أفراد وجماعات ومؤسسات ودولة ورأس دولة، علينا أن لا نستهين بالآخر؛ فلا نلغيه ولا نخاف منه، ولا نغيّبه، ولا نقصيه من شيء ينبغي أن يكون له أو يكون شريكاً فيه. ولذلك يجب أن يتمّ التقبُّل وفق هذه الحقائق دون شروط أو طلب تنازلات، ومن المرتكزات الرئيسة للتقبُّل:

. تقبّل الآخر هو كما هو.

. البدء معه من حيث هو.

. الوصول به إلى حيث ما يجب أن يكون عليه.

ولذا عندما يُجرى الحوار بين أبناء الأمّة على طاولة (نحن سوياً) تكون العودة إلى الأصول المشتركة من المعطيات التي تجمع الأنا والآخر وتلغي بينهم التغييب، وتصبح الفضائل والقيم المستمدّة من المصدر الذي يحكم الناس به ويُحتكم إليه هي المرجعية المُرضية للجميع بإرادة، ممّا يجعل العودة إلى المصدر تمركُزاً على معطيات الهوية المشتركة التي لا يوجد في فضائلها الخيِّرة وقيمها الحميدة تغليب وتسفيه لأنا على حساب آخر، ممّا يجعل قيم التفاهم والتفهُّم والتقدير والاعتراف والاعتبار معطيات رئيسة لوحدة الأمّة تُسهم في رسم استراتيجياتها المستقبلية.

ولسائلٍ أنْ يسأل:

متى يكون أبناء الأمّة على الاحترام والقوّة؟

نقول:

. عندما يتمكّنون من ممارسة حقوقهم.

. عندما يلتزمون بتأدية واجباتهم.

. عندما يكونون قادرين على حمْل مسؤولياتهم.

. عندما يكون لسان حالهم (نحن سويّاً).

. إذا تمكنوا من استيعاب بعضهم بعضاً دون تفرقة وتحسُّس.

. إذا تمكّنوا من التطلُّع نحو الأفضل.

. عندما يتهيّئون لإحداث التغيير إلى ما هو أفضل وأحسن وأجود.

. عندما يقومون بأدوار وفقاً للصلاحيات والاختصاصات بمهارات متنوعة خدمة للجميع.

. عندما يتفهَّم كلّ منهم ظروف الآخر ويقدِّرها.

. عندما يقف كلّ منهم عند حدّه.

. عندما يُقصى الإقصاء والتغييب من أذهانهم وأفكارهم تجاه البعض.

. عندما يستثمرون إمكاناتهم المادية الاستثمار الأمثل، تمشياً مع كلّ حلّقة من حلّقات التطوّر والتقدّم التقني والعلمي.

. عندما تُشبع حاجاتهم المتطوِّرة.

. عندما يكون التطلّع للمفيد والنافع قيمة في السلوك والفعل.

. عندما تصبح الثروة ملكاً للأنا والآخر في الوطن الواحد وفقاً لقاعدة (نحن سويّاً) دون أيّ حرمان من الملكية الحرّة والاستثمار الحرّ الخالي من الاستغلال والاحتكار.

. عندما تُلغى من القواميس الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية كلّ كلمات الإفساد وما يؤدّي بينهم إلى سفك الدماء بغير حقّ، وتحلّ محلّها كلمات وأفكار التسامح والتآخي والبناء والإعمار والإصلاح.

. عندما تكون الثروة قوّة تمكّنهم من إحداث النُقلة وتجاوز الجمود والسكون والرتابة.

. عندما تكون مستهدفات التعليم والصحة والثقافة والإعلام والشؤون الاجتماعية من أجل التنمية البشرية التي بها يتمكّن المواطن من تنمية قدراته واستعداداته ومواهبه وخبراته ومهاراته وتأهيله بكلِّ جديد مفيد.

. عندما تصبح لهم هويّة واحدة متنوّعة.

. عندما يصبحون منتجين للفكرة وقادرين على توليد الفكرة من الفكرة.

. عندما يصبحون مفكرين وهم يتكلمون ويقرؤون، وهم يستمعون ويتأملون، وهم يُفكّرون فيما هم فيه يفكرون.

. عندما لا يغفلون عن أهمية الخوف في صناعة التاريخ وترسيخ الهويّة.

. عندما يخافون الله (يقضون على الخوف).

. عندما يستوعبون الآخرين ويتطلّعون إليهم معرفة بمعرفة، ومعلومة بمعلومة، وقوّة بقوّة.

. عندما تكون لهم إدارة ماهرة قادرة على أن تلاحق المنتجين والعاملين في مواقعهم من أجل زيادة الإنتاج وتحسين أحوال المواطنين تعليماً وصحةً وضماناً اجتماعياً مع وافر الجودة في الخدمات المقدّمة. ولذا فالإدارة المركز ينبغي أن تكون قوّة جذب لمواطنيها، تجمع ولا تشتت كالجاذبية التي جمعت شتات الأرض وحافظت عليه، والتي إن فقدت جاذبيتها فقدت وجودها.

. عندما يعرفون أنَّ عقل الإنسان قوّة، ونفسه قوّة، وحواسه قوّة، وعواطفه قوّة، ومشاعره قوّة، وإرادته قوّة، وتهيّؤه قوّة، واستعداداته قوّة، وقراره قوّة، وتأهّبه قوّة، وأفعاله نتاج القوّة، ومع وافر التقدير والاعتبار.

وعليه: كلّ معطيات القوّة يمكن أن تكون بيد الإنسان إذا عرف أنّ عقله قوّة، وقدراته قوّة، ومهاراته قوّة. وإذا فكّر وخطط، ورسم الاستراتجيات أنجز أهدافه بكلّ قوّة، وإذا لم يستثمر ذلك فلن يكون إلّا على الوهن ضعيفاً.

ولهذا فإنّ قوّة (نحن سويّاً) تكمن في:

. قوّة العلائق وترابطها.

. قوّة المشاركة وحجمها.

. قوّة التفاعل وانتشاره.

. قوّة التنظيم وتشريعاته.

. قوّة الدين وتسامحه.

. قوّة العرف وأصالته.

. قوّة القوانين وشفافيتها.

. قوّة الفكر ونزاهته.

وبما أنَّه كلّنا لآدم وآدم من تراب؛ فلماذا لا نعود للأصل لنعرف الحقيقة ثمّ ننطلق إلى ما يجب. ألا يكون آدم هو من خُلِق من تُراب في أحسن تقويم؟

ولأنّ هذه حقيقة خَلقِنا، إذن ألّا توجد علاقة قويّة بين آدم والتراب (بيننا والوطن)، ولأنَّ هذه حقيقة الأمر، إذن لماذا لا نمشي هوينا على ترابه،

أي لماذا لا نجدّ في إصلاح أرضه وإعمارها وفلاحها؟ ولماذا البعض منّا يُفسد في أرض الوطن ويسفك الدماء فيها بغير حقّ؟

نقول:

بدون شكّ من يُفسد في الأرض كمن يبول في البئر الذي يشرب منه ويشرب الناس، ولكن من لا يتّقي الله ولا يخافه، بإمكانه أن يعمل كلّ شيء ليكون كلّ شيء شاهداً عليه يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا تنفع المعذرة.

وعليه فالعلاقة الحميدة التي هي في مرضاة الله تعالى، هي العلاقة بين الإنسان والأرض؛ فالذين يخافون الله؛ فبمخافتهم يتّقوه تجنّباً لوقوع ما يخيف القلب بدلاً ممّا يطمئنه، ولهذا فالناس الخائفون هم الذين يسعون تحسّباً وتجنّباً وإقداماً وانتهاءً، أمّا أولئك الذين لا يخافون الله فهم الذين لا يخافون الإفساد في الأرض، ولهذا فهم لا ينتهون إلى النهاية.

إذن من هذه المكوّنات لا يخلو الوطن العربي ولا أيّ وطن، ولذا فعلينا أن نقبل الأمر (هو كما هو) حتى يبلغ أبناء أمّتنا ما به يعقلون ويرشدون ويفقهون، ولأنّ الله لا تخفى عليه خافية؛ فعلينا أن نمشي على الأرض هوناً حتى تعمر وتستصلح ويأمن من عليها، {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}[84].

ولذا إنْ أردنا للأمّة أن تنهض من غفلتها وتستطلع مستقبلها، علينا بالمعرفة الواعية التي تُمكِّن من الحقيقة، وعلينا بتيسيرها في المساجد والمدارس ووسائل الإعلام المتنوّعة دون تطرُّف ولا إكراه؛ فلا ينبغي أن يكون من ورائها قصد لتحقير من خُلق في أحسن تقويم، ولا قصد من

---

[84] الفرقان 63.

ورائها لإقصائه ولا تغييبه أو التخلّص منه؛ فكما أنّ الدين للجميع والله ربّ الجميع؛ فكذلك الوطن ملك للجميع والناس فيه متساوون حقوقاً وواجباتٍ ومسؤولياتٍ.

وهنا ينبغي أن نميّز بين ما يجب، وبين ما لا يجب، وننتهي عنه ونجتنّبه؛ فلا نغفل، وعلينا أن نميّز بين عواطفنا تجاه أقاربنا أبوة وعمومة وأخوّة وجيرة، وبين ما يجب تجاه اختياراتنا لمن تناط بهم مسؤولية، {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}[85].

الفهرسة

1 . المقدّمة

[85] البقرة 204 _ 207.

2 . الخوف

3 . الخوف معيار التوازن.

4 . الخوف نقطة الانطلاق الموجبة.

5 . الخوف بين الفطرة والغريزة.

6 . الخوف صفة فطريّة ملازمة.

7 . استنهاض الخوف صناعة للمستقبل.

8 . الخوف ومنبّهاته على المخاطر.

9 . الخوف شعور استطلاعي.

10 . الخوف منبّه للمؤلمات والمطمأنات

11 . الخوف واقٍ من الألم.

12 . تعاقب الخوف والألم.

13 . التلازم والتناوب بين الخوف والأم.

14 . موجهات الخوف.

15 . الخوف مستدعٍ للاستراتيجيات.

16 . الخوف وعي بما يجب.

17 . الخوف والتاريخ

18 . المستويات القيمية للخوف

19 . المستوى القيمي للخوف الذاتي.

20 . المستوى القيمي للخوف التطلُّعي.

21 . المستوى القيمي للخوف الإنسحابي.

22 . المستوى القيمي للخوف الأناني.

23 . المستوى القيمي للخوف الموضوعي.

24 . الخوف وعلاقته بالقانون.

25 . الخوف وعلاقته بالشجاعة.

26 . الخوف بين خائفٍ ومخيف.

27 . الخوف فكرة آفاق المستقبل

الملاحظة رقم (1)

تُكتب هذه العبارة على غلاف الكتاب من الخارج (في خلف الكتاب).

(توجد علاقة قويّة بين الخوف والتدبُّر، وبينه وبين التفكّر، والتذكّر، حيث يتدبّر الإنسان حاله في الزمن الآن من أجل أن يستمدّ القوّة التي بها يتمكّن من التذكّر والتفكّر، ويتذكّر الماضي لكي يتدبّر حاضره عن بيّنة، ويعرف ما يجب أن يَقدِم عليه في مستقبله، أمّا التفكّر فلا يكون إلّا في كلّ ما من شأنه أن يحفّزه على صناعة المستقبل.

وكما أنّ هناك علاقة موجبة بين الخوف والتدبّر والتفكّر والتذكّر؛ فكذلك هناك علاقة سالبة بين الخوف والوهم؛ فالوهم مجرد افتراضات لا علاقة لها بالواقّع (تخيّل ليس إلّا)، أمّا الخوف فلا وجود له إلّا مع واقع، ولهذا فالفرق كبير بين متخيّلات الوهم وبين ما يكشفه الخوف حقيقة؛ فالخوف يأمن في تلك الفكرة التي تحملها الكلمة وهي تحمْل قضية تحمْل حلّاً يُخرج من التأزُّمات؛ فيسود الفرج الذي فيه تحلّ السكينة والأمن محلّ ما يؤدّي إلى الخوف، ولذا فالفكرة مكمن الأسرار، والعقل يُرشِدُ إليها عن تدبّر، والفكر يسترشد بها عن دراية ومعرفة، والفكرة يمكن أن تباع وتشترى في أسواق المنافسة الحرّة، وقد تُسرق).

الملاحظة رقم 2

إضافة إصدارات المؤلف

صدر للمؤلف 36 بحثا نشرت داخل الجماهيرية وخارجها. وصدر له 54 مؤلفاً منها أربعة موسوعات، ومجالات اهتمام المؤلف العلمية هي:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . الفكر.

3 . الأدب.

4 . الاسلاميات.

5 . طرق البحث الاجتماعي.

تُرجمت مجموعة من كتبه إلى اللغة الانجليزية واللغة التركية.

عناوين المؤلفات ومواضعها هي:

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط. طرابلس: اللجنة الشعبية للتعليم ببلدية طرابلس، 1989.

2 . الاصول الفلسفية لتنظيم المجتمع الجماهيري. طرابلس: منشورات جامعة الفاتح، 1992.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي. مالطا: منشورات الجا، 1995.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون. مالطا: منشورات الجا، 1996.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي. مالطا: منشورات الجا، 1997.

6 . المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل. الدار البيضاء: المؤسسة العربية للنشر وإبداع، 1999.

7 . البستان الحلم. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1999.

8 . التصنيف القيمي للعولمة. مالطا: منشورات الجا، 2001.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد). طرابلس: دار الحكمة،

.2001
10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت 2004.
11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت 2004.
12 . منطق الحوار بين النبا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004.
13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006.
14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006.
15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية، القاهرة، 2007.
16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية ، القاهرة، 2007.
17 . البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية، القاهرة، 2007.
18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية ، القاهرة، 2007.
19 . البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية ، القاهرة، 2008.
20 . مفاهيم في استراتيجبيات المعرفة، الدار الدولية، القاهرة، 2008.
21 . المقدمة في اسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت . دمشق، 2009.
22 . موسوعة اسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، ، دار ابين كثير، دمشق . بيروت، 2009.
23 . آلستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010.

24 . مختصر موسوعة اسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010.
25 . خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010.
26 ا قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010.
27 . اسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010.
28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م
29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م
30 . أدريس وهود وسالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.
31 . ابراهيم واسحاق واسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010.
32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.
33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.
34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.
35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.
36 . أيوب واليسع وذو الكفل والياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010.
38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010.
39 . 34 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، تحت الطباعة.
40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، القاهرة المجموعة الدولية، 2010م.
41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، القاهرة المجموعة الدولية، 2010م.
42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، القاهرة المجموعة الدولية، 2010م.
43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيس، القاهرة، المجموعة الدولية، 2010م.
44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، القاهرة، المجموعة الدولية، 2010م.
45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم واسماعيل وإسحاق ولوط، القاهرة، المجموعة الدولية، 2010م.
46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، القاهرة، المجموعة الدولية، 2010م.
47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، القاهرة، المجموعة الدولية، 2010م.
48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، القاهرة، المجموعة الدولية، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، القاهرة المجموعة الدولية.
50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، القاهرة، المجموعة الدولية.
51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، القاهرة، المجموعة الدولية، 2011م.
52 . السنا أمةً وسطاً، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011.
53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011.
54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية، القاهرة، 2011.